منشورات ضفاف
Editions Difaf

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

ناصر الظفيري

كاليسكا

«القيّوط يطارد غزالا»

رواية

كاليسكا

«القيّوط يطارد غزالا»

طبع في لبنان

كاليسكا

«القيّوط يطارد غزالا»

ناصر الظفيري

ALMANSOUR
المنصور
PUBLISHING HOUSE

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com

الطبعة الأولى

1439 هـ - 2018 م

ردمك 978-614-02-4248-7

جميع الحقوق محفوظة

هاتف بيروت: 9613223227+

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأيَّة وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أيَّة وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين

إلى:

سعود راشد العنزي

تنويه - 1 -

يختلف الزمن المفترض للجهراء – المكان في الرواية عن زمن الرواية وأماكنها الأخرى بما يقارب عقدًا ونصفَ العقدِ.

تنويه -2-

الأحداث لا تتطابق بالضرورة مع مثيلاتها، زمنيا أو مكانيا، وليست نقلا حرفيا لها.

"حين تختار طريقا لا تنظر إلى أين تؤدي الطرق الأخرى، لأنها ليست لك"

فهد غانم

"جميعنا، هنا، لا نريد أن نتذكر أين كان آباؤنا"

فهد غانم العوَّاد

مدخل

الذين منحوا أقدارهم لهذا الصخب.

"وطني هو إعاقتي الأبدية الوحيدة التي لن أشفى منها أبدا".

قال للسجين الذي يراقب آلة السمع المثبتة في أذنه اليسرى، ويسأله إن كانت إعاقته أبدية. لم يهتم السجين الأشقر لإجابته، وربما لم يفهمها، فأكمل أسئلته بطريقة فظة "ما اسمك؟" "من أي بلد أنت"؟ "لماذا أنت هنا؟"

نظر إليه طويلا كمن يعاتبه على صلافته ونهض عائدا إلى زنزانته دون أن يكمل طعامه أو يجيب على أسئلته.

كان يجلس وحيدا في زنزانته بعد أن ذهب جميع موقوفي مركز التوقيف في العاصمة أتاوا لمتابعة مباراة في الهوكي، اللعبة الوطنية التي لم يتفاعل معها، بين فريق المدينة ومنافسه الأمريكي بأهازيجهم وصراخهم الذي لا يحتمله وهم يعبرون نحو القاعة المفتوحة في نهاية الممر أمامه، ولكي ينفصل عن هذا الصراخ كان عليه أن يرفع آلة السمع عن أذنه اليسرى ويضع السدادة التي يحتفظ بها في أذنه اليمنى. هكذا كانت طريقته في الإنزواء عن أي

ضوضاء لا يحتملها، وتعطيل حاسة السمع لديه نهائيا. وكانت تلك الفائدة الوحيدة من العاهة التي أصيب بها في سجن سابق لسجنه هذا، في سجن بلد مولده، والذي يقارنه بسجنه هذا في بلد اختياره، إذا افترضناه اختيارا، ويضحك من شدة ألمه وهو يغمض عينيه على مآسيه التي مازال يحتفظ بها ويعيشها وكأنه لم يغادرها هناك.

أمامه، حتى نهاية هذه الليلة، خياران لا ثالث لهما: إما الاعتراف بجريمته وقبول عرض وكيل النيابة بأن يخفف الحكم عليه أو الإنكار والترحيل إلى السجن المركزي في مدينة تورنتو، في اليوم التالي، لتتم محاكمته والتي قد يفشل في كسبها ويعرض نفسه للبقاء في سجن تورنتو مضيفا غربة أخرى لاغترباته التي لن تنتهي.

في غرفة التوقيف تمدد على سريره، شعر بالملل من متابعة السقف الذي كان ينظر إليه طيلة عصر هذا اليوم. أحس بضجر تعطل حاسة السمع التي أحالت المكان إلى ما يشبه غرفة منزوعة الهواء. يتخيل صوتا يصرخ به ويتلفت حوله فلا يراه. جلس إلى المكتب الصغير في الغرفة يتأمل الممر الفارغ والجهة الأخرى للزنازين الخالية قبالته. ردد أغنية قديمة، حاول أن يمارس طقسا مارسه في سجنه السابق، لم تكن الفترة الزمنية تكفي لطقس كهذا، تأمل الكتب التي أمامه،

على الرف الوحيد فوق المكتب الصغير. نسخة من القرآن الكريم بالانجليزية، نسخة من الإنجيل المقدس، نسخة من التوراة اليهودية، ونسخة من كتاب لم يعرف ماهيته. حاول أن يقرأ عنوانه ولم يستطع أن يكمل الكلمة الأولى فتهجأه حرفا حرفا كما رُسمت حروفه أمامه Brihadaranyaka Upanishad كان الاسم الثقيل على لسانه مغريا لأن يتصفح دفتي هذا المجهول. تنقل بين فقرة وأخرى واستوقفته إحدى الفقرات فدوَّنها في دفتر صغير يكتب فيه نوتاته الموسيقية.

"كان الحكيم يستمع لمريده وهو يسأله: أخبرني أيها المعلم! حين يموت الإنسان ويتلاشى خطابه في النار وتتلاشى أنفاسه في الرياح وبصره في الشمس وعقله في القمر وجسده في الأرض وشَعر جسده في النبات وشَعر رأسه في الأشجار ودمه ومنيَّه في الماء، فمالذي يبقى من هذا الانسان؟ أجاب الحكيم: لا يمكن أن نتحدث بهذا أمام العامة، تعال لنجلس وحدنا بعيدا عن هنا. وحين انفرد به لم يتحدثا عن شيء سوى الفعل ولم يمتدحا شيئا سوى الفعل. قال الحكيم: اسمع يا صديقي! إنه الفعل الذي يحدد ما سيكون عليه هذا الإنسان. يتحول الإنسان إلى شيء حسن حين يكون فعله حسنا ويتحول إلى القبح إذا كان فعله قبيحا".

أغلق الكتاب وأعاده إلى رف الكتب، وأغلق دفتره الصغير ودسه تحت وسادته. وقف ممسكا بقضبان الزنزانة يسرّحِ بصره فيما وراء هذا المركز الذي لا يربطه بالمدينة وضجيجها سوى طريق معبدة يتيمة تنتهي إليه في قدومها نحوه، وإلى الحياة في رحيلها منه.

قرّر أن يكتب الاعتراف قبل أن ينام ويسلمه لمحاميه في الصباح. لكنه جثا على ركبتيه ثانية أمام هذا الكتاب الذي لم يستطع أن يقرأ اسمه كما يجب. وتحدث بصوت عالٍ لم يستطع، وهو في عزلة الأصوات تلك، أن يحدد ارتفاع نبرته:

"اسمع أيها الحكيم: ماذا عن الانسان الذي يبدأ حسنا وينتهي قبيحا؟ وماذا عن الإنسان الذي يبدأ قبيحا وينتهي حسنا؟ إلى أي شيء يتحول الأول وإلى أي شيء يتحول الثاني؟ أم أن الأمور عندكم، كما هي عندنا، بخواتيمها. ماذا عن الزمن الذي حوَّل القبيح إلى حسن والحسن إلى قبيح. إلى أي شيء يتحول هذا الزمن؟ تبا لك أيها الحكيم!".

قبل أن يخرج ورقة الاعتراف، ليوقعها، من درج المكتب الصغير أخرج ورقة بيضاء ومظروفًا أبيضَ عليه ختم السجن وعنوانه، وكتب رسالة اعتذار إلى "ستيفاني كاليسكا"؛ وللمرة الأولى كان ينطق اسمها الأخير وهو يكتبه، الاسم الذي ورثته

من جدتها، الهندية الحمراء، وترجمته له ذات يوم عن لغتها الأصلية "القيّوط[1] يطارد غزالا".

في الصباح، سيكون حرّا حتى موعد المحاكمة. سيذهب إلى بيته وينقل أمتعته البسيطة في غياب ستيفاني ويرحل إلى مكان لا يعلمه أحد. سيهاتف فهد غانم، صديقه الوحيد، في هذا العالم منذ أن تعرف إلى فهد غانم والعالم معا. سيخبره برقم هاتفه الجديد وعنوان سكنه؛ على أن يعطيه للمرأة الوحيدة القادرة على الفعل ليعود إنسانا حقيقيا كما كان. سيقول له: قل لرشا أن لا تخبر أحدا سوى أمها وأن تتحاشى شقيقها، العقيد عبدالرحمن اليزاز، حتى يتدبرا أمرهما وأن تنتظره كما انتظرها. سيقول له أن يهتم "بوالديه" وأن يعتذر إليهما عن كل ما بدَرَ منه. وأن يطمئنَّ على المجانين الأربعة "مرهش" وبيتهم المهجور. ويسأله كيف هي الفرقة وبيت الفن وساحات الجهراء، وباص 103.

تأمل ورقة الاعتراف، وكتب بخط جميل.

"أعترف، أنا فهد غانم العواد، بأنني ارتكبت الجرم المشار إليه أعلاه بكامل قواي العقلية، ودون أن يحرضني أحد، وأعترف بأنني جاهل بالقوانين التي خالفتها وكنت تحت وطأة الشراب".

وقَّع اسمه في المربع المحدد ووضعها في المظروف، ثم استرخى على سريره وأغمض عينيه ولم ينم.

الكتاب الصفر/1

الطارئون على الحكاية

غريب وستة قتلى طارئون على الحكاية

يقترب هذا النهار الرطب اللزج كجلد شاة مسلوخة للتو من نهايته، لم تغب الشمس بعد ولم تخف وطأة ظهيرة ساخنة بدأت باكرة في الثامنة صباحا من شهر يونيو. كان ينظر إلى الفراغ بين السماء والأرض كمن ينظر إلى قميص معلق على حبل غسيل لم يجف بعد. أحس بالهواء الخانق وضيق التنفس وهو يغادر السيارة السوداء الفارهة وتكييفها البارد حاملا حقيبته السوداء على ظهره، غيرَ مودِّع الثلاثة رجال المسلحين، حيث تركهم في السيارة دون أن يترك التفكير بهم. بالتأكيد هم الآن يراقبون كل حركة سيقدم عليها وينتظرون كل فعل سيقوم به. سيكونون حوله كهالة الألم المحيطة به، ولن يدعوه إلا وقد أنهى مهمته التي اصطفاها له الرجل القادم من أجلها أولا، ومن أجله ثانيا.

اقترب من المقهى الواقع على ساحل الخليج والشمس تسقط خلف الأفق البعيد تاركة ضياء ناعما أزرق اللون يتلألأ

على المياه المتعبة من حرب طويلة لا يبدو أي أمل في نهايتها. عمال المقهى يرشون الأرض المزروعة بحشائش تقاوم أقدارها تحت وطأة الهجير والأقدام، ويرصون كراسيَ خشبية طويلة مصبوغة برداءة لا مبرر لها، ثم يضعون طاولتين أمام كل أربعة كراسٍ متقابلة بانتظار زبائنهم الذين يتكررون عادة في نهاية كل أسبوع هربا من ضجيج أجهزة التكييف وجدران منازلهم والتزامهم اليومي.

لم يكن ثمة أحد في المقهى حين ارتفع صوت الأذان في المسجد المقابل سوى رجل مسن في زاوية قصية يجلس على كرسي منفرد ويتكئ على عكاز الأبنوس. ينظر بعيدا إلى البحر القريب، تخاتله رائحة رطوبة الماء وما يلقيه المد على رمال الساحل؛ مصغيا باهتمام إلى رجع صدى بعيد دون أن يهتم أحد عمال المقهى بالصور التي تمر أمام عينيه ولا إلى الجهة التي تتلاشى فيها. حين دخل الغريب مربع المقهى نهض المسن إلى صوت المؤذن. "أتمنى ألا تعود إلى هنا أيها الشيخ". قال الغريب في سره. واختار مربعا صغيرا من مربعات المقهى التي رتبت بتلقائية تتكرر دون تفكير مسبق. جلس على كرسي طويل وكأنه ينتظر رهطا لم يصلوا بعد.

يبدو الغريب منهكا، كآخر الناجين من حرب وهمية

يخوضها وحيدا، يضع حقيبته عن ظهره وهو يتنفس بصعوبة وألم واضحين كمن يحمل جثثا على ظهره. فتح أزرار قميصه الذي يرتديه على جلده الأسمر النحيل تاركا صدره العاري عرضة لنسمة هواء ليس لها أن تهب. توقع العامل القريب منه أنه عتّال من السوق القريبة هدّه التعب وأرهقته الشمس في لهيب يونيو. كانت هيئته تدل فعلا على عتّال يرتدي حذاء رياضيا قديما وبنطالا فضفافا شده حول خصره بحبل رقيق من الكتان الأبيض وترك طرفيه يتدليان يداعبان ما بين فخذيه وقميصا أبيض اللون تخللته بقع وخيوط من الأوساخ ليس باستطاعة أحد أن يدرك موادها الأصلية، ولا أحد يشك أنها مفتعلة.

اقترب منه العامل أكثر. "سنبدأ الخدمة بعد الصلاة". ورد بهدوء. "لا أريد شيئا الآن". فكر العامل أن لا بأس في أن يحضر له شايا وكأسا من الماء. خمن العمال وهم منهمكون في تجهيز اللحم والخبز وأباريق الشاي على المنقل الضخم أنه غريب، كان يتلفت كثيرا كمن ينتظر فزعا ما. لاشيء في عينيه يوحي بغرابته رغم حركتهما الدائمة في الخط الأفقي الذي يجلس فيه. أغمض عينيه بعد أن ألقى كأس الماء في جوفه دفعة واحدة تاركا إبريق الشاي على جمرات المنقل الصغير الذي وضعه العامل أمامه؛ يسودَّ كثيرا كما يحب أن يشرب الشاي عادة. لم يذهب في إغفاءة حقيقية

ولم يتخلص من صور الرعب التي مرت أمامه حين أثارت حاسة السمع لديه جلبة نسوة وأطفال، وتثير رائحة الشاي الذي بدأ بالغليان أنفه الذي استنشقها بعمق ثم زفرها ليعيدها ثانية إلى جوفه مستمتعا بلذة وحيدة ربما لن تكرر بعد الآن لو أن خطأ ما أرتكب لسبب غبي لم يضعه في حسبانه. فتح عينيه على عائلة تسير باتجاه المقاعد الخشبية تزيح الطاولتين عن مربع الكراسي وتفترش بساطا بلاستيكيا في مربع العشب وتضع حاجياتها. توافدت عائلات أخرى بعضها يتكلم اللهجة التي يتكلمها وبعضها يحاول تخمين لهجاتها المختلفة. وأغلب العائلات تفعل الشيء ذاته وتفترش البسط البلاستيكية في المربعات الخضر دون أن يجد تفسيرا مقنعا لذلك.

كان الأطفال يهرعون بسرعة نحو الماء متجردين من ملابسهم الخفيفة وتصرخ الأمهات بهم ألا يذهبوا إلى العمق ويطلبن من خادمات آسيويات أن يلحقن بهم، وفي قرارة نفسه يقول "أتمنى ألا تعودوا إلى هنا أيها الأبرياء الصغار". حين بدأ يصب الشاي في كأس صغيرة لاحظ أنه ليس أسود بما يكفي، ولكن رائحته طازجة ومنعشة. كان ينظر إلى الوجوه كمن يبحث عن وجه ينتظره لم يصل بعد. وضع يده على الحقيبة التي إلى جانبه كمن يهم بأن يخرج منها شيئا ولم يخرج منها شيئا. شرب إبريق الشاي كاملا قبل أن ينظر إلى

ساعته، ثم ذهب في إغفاءة أخرى قبل أن يضج المقهى بكامل زبائنه.

كان معلقا للمرة الثالثة على التوالي من يديه بحبل سميك ينتهي بحلقتين علاهما صدأ الحديد في غرفة صغيرة معتمة إلا من كوة مربعة لا يدخلها ما يكفي من الضوء. يحيط بالغرفة جدار سميك يستطيع رؤيته من الكوة وليس بمقدوره أن يحدد ارتفاعه. لا يعرف إن كانت جريمته تستحق فعلا أن يمارس عليه كل هذا العذاب، ولكنه يعتبر نفسه محظوظا فالأصوات التي يستمع إليها كل مساء تكاد أن تشي بعذابات ليس لبشري أن يحتملها. في المرة الأخيرة التي دخل عليه رجل بثياب مدنية سأله إن كان يريد أن ينهي عذابه ويخرجه من هنا. هز رأسه بالإيجاب.

"أنت تعرف أن تهمتك ليست خطيرة ولهذا نحن لا نقسو عليك كما يجب، ونعلم أن أخويك مقاتلان على الجبهة وهذا يغفر لك، ونعلم أنك الآن المعيل الوحيد لأسرتك". وكرر ما يكرره كل يوم "لم أفعل شيئا". لكن الرجل كان يظهر ودا تجاهه. "ليس بالضرورة أن تفعل شيئا لكي تكون هنا، أحيانا لأنك لم تفعل شيئا تستحق أن تكون هنا". "أنا لم أفعل شيئا". ابتسم المحقق وهو يضع وجهه كاملا أمام عيني الشاب" شاركت في مسرحية تتحدث عن دكتاتور، من كنتم

تقصدون؟". "أنا مهندس الصوت في المسرحية". "لا يهم يا صديقي. كنتم تقصدون من؟". "أعتقد كانت عن أمريكا اللاتينية، صدقني لم أقرأ النص". عاد المحقق خطوات إلى الوراء.

"إذن أنت مع النظام". "طبعا يا سيدي". سأسألك سؤالا أخيرا ثم أتركك تذهب لأنك فعلا لا تستحق العقاب الذي حلّ بأصحابك". وقبل أن يسأله استدعى عسكريا يعرفه الشاب كان قد علّقه للمرة الثالثة هذا اليوم. "أنزله" قال المحقق آمرا العسكري. ثم استمر مخاطبا العسكري "سأتركه معك ساعة كاملة، دعه يستحم ويرتدي ملابسه وقدِّم له طعاما طيبا ثم أحضره إلى مكتبي". "حاضر سيدي". قال العسكري دون أن يرفع عينيه عن الشاب الذي يتدلى رأسه قريبا من صدره. خرج المحقق من الغرفة. اقترب العسكري من الشاب "أنتم جبناء تستحقون الإعدام، يبدو أنك محظوظ". "محظوظ جدا". قال الشاب والكلمات تتقاطر من فمه إلى الأسفل. "اخرس وتعال معي". تركه يستحم لأول مرة منذ دخوله هذا المكان قبل ثلاثة أيام وأعاد له ملابسه ثم اصطحبه إلى غرفة خاصة بها مقعد وحيد ولبود من الصوف "اجلس هنا حتى أعود". لم يفكر الشاب بشيء سوى بكلمة العسكري" أنت محظوظ". ولم يفكر بالسؤال الذي ينتظره في غرفة المحقق وهل يستطيع الإجابة عليه أم لا. عاد العسكري بقليل من الرز ومرق لحم

مالح له رائحة منفرة لم يشعر بها الشاب وهو يلتهمه. فمنذ ثلاثة أيام كانت وجبته قطعة خبز وكأسا من الماء العكر وهو يشعر الآن أن معدته تستعيد وعيها الحقيقي. "هيا، الآن إلى المحقق!". يفكر بالسؤال المرتقب الذي سوف يسأله المحقق ولكنه قرر الإجابة عليه مهما كلّفه الأمر. أعاد العسكري عليه ذات العبارة وهو يعض على شفتيه "كم أنت محظوظ!". لم يلتفت إليه. دخل إلى غرفة المحقق. سأله المحقق "هل كنت فعلا مشرف الصوت في المسرحية"؟ وقبل أن يجيب استدرك المحقق "هذا ليس السؤال الذي سأطلقك حرا من أجله". "نعم أنا مهندس الصوت". وكمن يصحح اللقب استدرك المحقق" آسف نسيت لقبك، نعم، مهندس الصوت" وأكمل "لا يهم". أخبره المحقق أن الشباب الذين شاركوا في المسرحية الجامعية في طريقهم إلى الجبهة الآن أما هو فتم اختياره لمهمة أخرى.

"لا أعرف كيف سأشرحها لك" قال المحقق "ربما لها علاقة بالصوت" وضحك واقفا. "بالتأكيد لها علاقة بالأصوات جميعها". وفاجأه "هل تشرب بيرة؟ لدي بيرة باردة في الثلاجة الصغيرة. "سنغلق الباب، تعرف هذا ممنوع هنا". "أعرف ولكن..." "لا عليك". في زاوية غرفة المحقق ثلاجة صغيرة رص فيها علب البيرة. لم يمانع الشاب في علبة بيرة، بل وجد ذلك احتفاء غير منطقي في مكان مرعب كهذا. بدأ المحقق يسأله عن أخويه وعن آخر مرة عادا في زيارة إليهم والشاب

يجيب وبين سؤال وآخر يؤكد له "ذلك ليس السؤال الذي أريد أن أوجهه إليك". والشاب يهز رأسه فكل الأسئلة الآن بالنسبة له لا تستحق رفض إجابتها. بعد علبة البيرة الرابعة والشاب يشعر وكأنه يصعد جبلا من الغيم سأله المحقق "من أعز امرأة لديك". "أمي" لا.. لا هذه ليست أمك وحدك، بعد أمك" ورشف المحقق علبته الرابعة أيضا. سكت الشاب "قل. لا تصمت" انتبه وكأنه يضع قدميه على الأرض ثانية "لماذا لا نترك النساء جانبا" "هذا حديث أخوي لا علاقة للتحقيق به "وأكمل المحقق كمن يطمئنه" أنا زوجتي أعز امرأة لدي" ثم ضحك. رد الشاب بلسان متثاقل "أمي ميتة ولا زوجة لدي" فكر الشاب أن يختار زميلة له لا علاقة لها بالموضوع ولا تربطه بها علاقة ولكنه عرف أنه سيعرضها لظلم لا تستحقه وعذاب ضمير لا يمكنه التخلص منه. هو في ورطة الآن وعليه أن يجيب. "أختي" قال بانكسار. كانت تلك أخته الصغرى والوحيدة بعد الأخوة الثلاث. "أحسنت، أنا أيضا توقعت هذا، ولكن هذا ليس السؤال الذي أردت أن أسأله لك".

"عسكري!" صرخ بالعسكري مرة أخرى ودخل كأنما كان يقف إلى الباب. "خذه وعلّقه كما كان. "أحس الشاب أن ورطته بدأت الآن وكأن الأيام الثلاثة التي مرت ليست سوى تجهيز سكاكينهم لسلخه. حين اقترب العسكري ليشده من ياقته باغتته رائحة فم الشاب. "بيرة. تشرب بيرة مع المحقق.

كم أنت محظوظ". كان يجر قدميه كالمخمور ولكنه في كامل وعيه. حين تكون خائفا إلى هذا الحد لا تصنع معك البيرة ما تصنعه في طمأنينتك. قبل أن يدخله العسكري طلب منه الشاب أن يذهب إلى الحمام. "لا. لا لا. لا يمكن أن تكون محظوظا لهذه الدرجة. إلا هذه!" أدخله الغرفة. علّقه من يديه في الحلقتين وجرده من ملابسه تماما. حمل الملابس وخرج وهو يردد "هل عرفت كم أنت محظوظ". وضحك العسكري للمرة الأولى وهو يغلق الباب الحديدي ويحرك المزلاج الصدئ بعنف.

حاول الشاب أن يتماسك. صرخ. حاول أن يلف رجليه على بطنه، على قضيبه. أن يضغط بقوة ليمنع هذا الإنفجار المخيف في أمعائه. لم يستطع. كان تعذيبه بهذه الرفاهية البغيضة أشد قسوة مما يتوقع، وهو يتوقع الأسوأ في الأيام القادمة لو أنه عاش حتى تلك الأيام.

في اليوم التالي كانت رائحة الغرفة الصغيرة المعتمة كريهة لدرجة لا يحتملها المعتقل الذي أحضروه متهالكا من إحدى الغرف العديدة لتنظيفها. أما الشاب فعاد المحقق إليه وهو يصرخ بالعسكري "ياحيوان لماذا لم تذهب به إلى الحمام أولا". والعسكري بعينين زائغتين يتظاهر بأنه لا يجد ردّا. "لا عليك سيكون كل شيء على ما يرام". قال المحقق وهو ينظر

للشاب الذي انكسر بصره ناحية قدميه. "اذهب به إلى الحمام وبعد أن يغتسل أعد ملابسه وأحضره إلى مكتبي" ثم التفت إليه قبل أن ينصرف إلى مكتبه "لاتنس أن تطعمه إفطارا طيبا" ابتسم العسكري دون أن ينتبه له المحقق "والله، بشرفي أنت محظوظ". قالها العسكري بما يشبه الهمس.

حين اقتاده العسكري إلى مكتب المحقق مرة أخرى توقع أن يتكرر مشهد البارحة مرة أخرى، ولكنه فوجئ بفتاة تجلس في المكتب متشحة بعباءتها. "هذه مكافأة لك" وتركهما المحقق ليدخل غرفة صغيرة في مكتبه. "ماذا حدث؟" قال وهو يحتضنها ويقبّل رأسها. "لاشيء... لاشيء".

"كيف جئت إلى هنا" "هم أحضروني منذ ليلة البارحة" "هل..؟". "لا لم يحدث لي شيء". "ولن يحدث شيء، إذا أجبت على سؤالي الذي لم أسأله لك ليلة البارحة" قال المحقق خارجا من غرفته الصغيرة يمسح يديه بمنديل قطني ويلقيه جانبا. رآهما ما زالا واقفين فأشار بيديه "اجلسا". "ما هو السؤال؟". أدرك المحقق أن الشاب قد وصل لمرحلة القبول المطلق بمهمة لم يعرفها ولن يتردد في إنجازها. "أنت تعلم أننا نخوض حربا شرسة وقذرة أيضا... قذرة بكل معنى الكلمة، قذرة كأي حرب أخرى..." ونهض عن كرسي المكتب الذي جلس عليه للتو ليكون قريبا منه.

"ستقوم بمهمة لصالحنا. لا خطر على حياتك، كل ما عليك أن تقبل بمهمة نضمن لك عودتك منها إلى هنا مباشرة واصطحاب أختك الجميلة إلى البيت وينتهي الموضوع". "وإذا رفضت..." "لا أعتقد أنك سترفض ولا أظنني أستطيع قبول ذلك". نظر المحقق إلى الفتاة التي تجلس وقد أمسكت بيد شقيقها ونظرها إلى الأرض. "تقصد أن..". "نعم سيفعلون ذلك. أنا لا أفعل ذلك". الإثنان الآن ينظران إلى الفتاة التي لم ترفع عينيها عن بلاط الغرفة. "دعها تذهب وسأفعل ما تريد".

"لا. لا. ليس بإمكاني ذلك. ما سأفعله هو أن أعيدها معك حين تعود". وضع يده على جرس صغير فوق مكتبه. "خذها وأكرمها، سأقطع يد من يمسها بسوء". ثم التفت إليه "إرتحت الآن؟ ستعود لتجدها كما هي".

ثلاثة أيام كانت كفيلة بأن يتقن مهمته. كل ما عليه هو أن يحرك هذا المفتاح الصغير ويذهب بعيدا وما سيحدث لن يكون شاهدا عليه ولن يراه. نقله قارب عسكري ليلا إلى عرض البحر ليستلمه قارب مدني ينقله إلى الساحل لتلتقطه سيارة معدة لانتظاره. أعاد الدرس الذي حفظه أكثر من مرة بصحبة رجل المهمة الذي لم يره من قبل ورجلين رافقاه منذ وصوله وأقاما معه في شقة صغيرة قريبة من المقهى الشعبي الذي قرروا أن ينفذوا عمليتهم فيه.

حين فتح عينيه رأى المكان مزدحما والجلبة التي كان يستمع إليها تزداد. انتبه إلى رب أسرة يدور بين المقاعد بحثا عن مكان. لم يكن من مربع خال سوى المربع الذي يحتله وحيدا. دار رب الأسرة في المقهى بعينيه وهو يفتش في الضوء الخافت عن مكان تستقر فيه الأسرة. قبل أن يقترب قرر الغريب أن يترك مكانه للعائلة، مد يده في الحقيبة وحرك المفتاح بتلقائية تدرب عليها حتى لم يعد بحاجة للنظر إلى داخل الحقيبة.

أنزل حقيبته تحت المقعد وأشار للأب أن يحتل وعائلته مربعه. شكره الرجل بابتسامة وافترقا دون أن ينظرا في تفاصيل وجهيهما. أنزل الأب بساطه الذي يتأبطه وفرشه في المربع الأخضر، أنزلت الأم حمولتها، براد ماء صغير، قهوة عربية وحاوية صغيرة للتمر، أكياس مكسرات. اقترب عامل المقهى من الأب الذي أشار له ولم ينتبه لمغادرة الرجل الغريب المكان. ولم يكترث أيضا للحساب الذي لم يدفعه. طلب الأب عشاء وإبريق شاي. انصرف العامل وهو يصرخ بالعمال خلف المنقل الضخم أن يجهزوا طلب الرجل. أحاطت البنات الأربع بأمهن بينما هرع الصبيين إلى البحر بعد أن تجردا من ملابسهما بسرعة. "لا تتأخرا على العشاء" "ساعة ونعود" ولم يستمعا لبقية التوجيهات التي ارتطمت بضجيج رواد المقهى.

"بابا نسي الرجل حقيبته تحت المقعد" قالت إحداهن وهي تسحب الحقيبة السوداء من تحت المقعد. تطايرت ست جثث طرية أشلاء على الكراسي وبعيدا عنها. تساقط آخرون بجراحات مفاجئة. اختلط الصراخ بالعويل. أحال الذعر المقهى إلى قيامة مصغرة. الذين في المقهى يفرون إلى خارجه والذين خارجه يهرعون إليه. سيارات شرطة، أصوات سيارات إسعاف، سيارات إنقاذ. تحول المكان إلى ساحة حرب صغيرة. أما هو فسمع صوت الإنفجار وهو يركب السيارة مع الثلاثة الذين انتظروه في الموقع المحدد لكنه لم يعرف عدد ضحاياه الذين سقطوا، لم يعرف لماذا سقطوا، يستطيع أن يخمن سيل الدماء التي تناثرت على المقاعد الخشبية، ويشم رائحة اللحم الآدمي الذي انصهر بحركة مفتاح جهنم الذي أداره بكل برودة أعصاب كقاتل محترف، يعرف حجم جريمته التي ارتكبها لإنقاذ حياته ودماء شرفه ولكنه لا يعرف لماذا هنا وليس في أي مكان آخر. أغمض عينيه وتمنى أن يتقيأ روحه في يديه.

***

كان العقيد، عبدالرحمن اليزاز، يرتدي ملابسه الرياضية حين هرع إلى موقع الانفجار؛ يحيط به مرافقان لا يتركانه أبدا، يضع يديه حول وسطه العريض ويهمس إليهما:

«أريده أمامي الليلة، لا أريد أن يشعر بكما أحد، لا تتركاه يدخل البيت»

«من الذي تريده يا سيدي؟»

«العوّاد... العوّاد»

قال العقيد مخاطبا الرجلين اللذيْن غادرا المكان إلى مهمتهما اليسيرة.

فتاة طارئة على الحكاية

لم يحبني كما اشتهيت، لم يكن قريبا جدا مني. كنت أصغر منه بسنتين، والوحيدة التي يمكن أن تلفت انتباهه في حارتنا. لست الأجمل، قطعا، ولكنني الفتاة الوحيدة التي تخلصت من سلطة الرجل، حيث نشَّأتني أمي كما أوحى لها حلمها الذي لم يتحقق لسبب لم تفصح عنه، أبدا. كان يمر من أمام منزلنا كل يوم، وأرى أختي الصغرى تمد له لسانها من النافذة المشرعة دائما إلى الحارة الموصدة على نفسها. تصرخ بها أمي من الداخل "من؟" فترد بلا مبالاة "هذا العوّاد". فيتحول الأمر إلى لا شيء مهم. هو بالنسبة لأمي كبائع متجول لا تشكل عيناه خطرا على ثلاث إناث وحيدات في منزل تحاصره الأعين من زوايا لا يمكن تحديدها. وربما تلك هي الصفة التي تحولت لقبا، والتي حملها كوصمة عار في طريقه اليومي بين منازلنا. صفة العوّاد التي أحبطته؛ حتى أنه لم يجرؤ على أن ينظر نحوي. لكنني أحببته بالتأكيد. أنا الآن أفتقده بشدة ليس كحبيب وإنما كإنسان ينتمي للمكان الذي أنتمي إليه. منذ اختفائه وأنا أحاول تفسير سبب هذا الغياب.

لم أجد له سببا منطقيا يمكن أن يختفي فيه رجل بكامل قواه دون أن يبقى له أثر.

كانت أمي تحدث والدته عن سر غيابه، فتقول بحرقة الفقد التي لم تنطفىء. "لم يبق لنا إلا أن نتصل بالجن لنعرف مكانه، لم نترك شبرا من الأرض إلا وسألنا عنه فيه". وقبل أن ترتشف الدمعة التي تباغتها كلما تكرر هذا الحوار تقول "لم أر في حياتي نحسا كالذي أصابنا". ولا تجد أمي كلمات تُطمئنُ هذه المرأة التي هدّها غياب وحيدها في الأيام الماضية وأثقلها الفقد. كأنها تختصر في ليلتها عقدا كاملا من الزمن المرّ. "لقد يئسنا من السؤال حتى بات ثقيلا علينا أن نتحرك، سأذهب الآن لأعود بهذا الشيخ المجنون إلى منزله". وتكمل طريقها إلى محطة الباص حيث يتابع زوجها أملاً يتقدم به الزمن ليشيخ ويستحيل إلى يأس.

"هل يذهبان كل يوم إلى محطة الباص؟" سألتُ أمي. كنت رأيتهما مرة واحدة عصر يوم الخميس وأنا عائدة إلى المنزل في نهاية الأسبوع وظننتُها مصادفة. قالت أمي. "يفعلان هذا كل يوم. منذ أن توقفا عن سؤال الحكومة، يذرعان الطريق بين منزلهما ومحطة الباص ويشتكيان لكل عابر يمرّ بهما". جلست وحيدة في غرفتي التي أتقاسمها وأختي. شعرت برغبة بالبكاء ولم أبك.

في مرات قليلة كان يمر بي ويقف ليحدثني قليلا تحت المظلة المخصصة للبنات في الجامعة، لم يكن حديثه ليتجاوز "هل تحتاجين شيئا؟" وردي ليس بأكثر من "لا. شكرا". ويمضي في سبيله، تمنيت أن يطلب لقائي في مكان ما، ولكني عرفت أنه لن يفعل ذلك. قررت مرة أن أذهب إليه؛ حيث يجلس في الجمعية الطلابية، كانت تجالسه فتاة بحميمية فاتنة. لم يكن الأمر بحاجة إلى إنكار غبي لأعرف أنها حبيبته. وبالتأكيد سألته عني، فلم أكن سوى فتاة من جيرانه تدرس هنا وتسكن في سكن الطالبات. ولم أكن أنا أكثر من ذلك بالنسبة إليه ولا يجب أن يعرف من هو بالنسبة إلي.

لم أرها منذ تخرجا، هي والعواد، من الجامعة إلا بعد اختفاء العواد. تقترب مني ذات صيف حار، ألهث خلفه لأنهي دراستي قبل موعدها، تلقي تحيتها بخجل وتسألني بتذلل كمن يطلب مني معروفا "أريد أن أذهب إلى منطقتكم". تسألني وكأنني أمتلك مفاتيح المنطقة. "هل تريدين موافقة مني على ذلك". كانت تشعر بالطريقة غير المهذبة التي أحدثها بها وأظنها تعرف سببها. "لا. أريد مرافقتك". "حسنا متى شئت". وقبل أن تمضي في طريقها" ألتقيك هنا غدا في نفس الموعد وأخبرك".

في اليوم التالي سألتني "ما اسمك". قلت "شُجاعة". وضحكت. لم يكن يعني لها الاسم أكثر من الصفة التي لا تحتمل التأنيث في رأيها ربما. "هل هذا حقا هو اسمك؟". قلتُ بصلافة "نعم وصِفتي إذا أحببت". ردت بتودد "نعم أحب". اتفقنا أن نلتقي في الجامعة صبيحةَ يوم لا محاضرات لدي فيه أمام باب كافتيريا البنات. كانت الفتاة جميلة يبدو عليها الثراء. ترتدي جينزا وبلوزة رمادية ولكنها هذه المرة تحمل حقيبة يد كبيرة نوعا ما. "إسمعي! انتظري هنا، سأعود بعد قليل". وتذكرت أنني نسيت أن أسألها ما اسمها. مضت أكثر من ربع ساعة وأنا أنتظرها. دخلتْ الكافتيريا. لم أرها تخرج ثانية، أمنحها بعض الوقت أم أمضي لشؤوني؟ قالتْ لي "نمضي الآن!" التفتُّ إلى الصوت الذي يحدثني، كان صوتها؛ لكنها فتاة أخرى. ترتدي عباءة سوداء ونقاب يغطي وجهها كاملا عدا عينيها. بدت أكثر جمالا. "لم كل هذا؟ تستطيعين دخول منطقتنا مثلي تماما دون الحاجة لهذا التنكر. "لا تكترثي". كنت أظنها ستأخذني بسيارتها ولكنها توقفت أمام محطة الباص. "هل سنركب الباص؟" سألتها. "نعم" أجابت. ولم أقتنع "لديك سيارة، هل أنت خائفة منا، نحن بشر مثلكم". "أرجوك لا أستطيع أن أشرح شيئا الآن". "حسنا كما تريدين". ركبنا الباص الجامعي إلى السكن ولم تتحدث كثيرا. "هل كنت تحبين العواد؟ "سألتني" واعتبرت أن تلك

وقاحة لا مبرر لها من فتاة ستكون ضيفة عليّ. فرددت بمثلها "وأنت هل تحبين العواد؟" فهزّت رأسها بنعم دون أن أعرف إن كان على وجهها مظاهر حياء. لم أنكر أنني أحببته ولم أنكر أنه لم يبادلني أي شعور بالمقابل. قلت "لا. هو ابن جيراننا". توقعت أنها ستذهب إلى منطقتنا لتخرجه من مخبأ لا يعرفه أحد سواها. "لماذا تلتفتين كثيرا إلى الخلف، لن تعرفك والدتك بهذا اللباس". "لا يهم". سألتها إن كانت تعرف شيئا عنه". "لا، لم أره منذ اختفى". أمام باب السكن توقفتْ طويلا تنظر إلى كلِّ سيارةٍ مارة أمامنا. "من أين نأخذ الباص". درنا خلف السكن إلى الشارع الرئيسي وعبرناه إلى موقف الباص العمومي. "من هنا!". وقفنا ننتظر دون أن نتبادل حديثا مهما.

كان الجو حارا، وسيبدو مقرفا لها أن تركب الباص العمومي 103 ولكنني لا أستطيع أن أقرأ ملامحها خلف النقاب، هواء السموم يخاتل شبابيك الباص المشرعة ورائحة عرق الأجساد تختلط برائحة السلال التي يحملها الركاب قادمين من سوق المدينة إلى سوق الجهراء، وكنت أفكر بها حين نعود وقد انتصفت الشمس السماء الصافية كزجاج أزرق نظيف. ولم أفهم مالذي ستفعله فتاة أحبَّها وأحبته في مكان لم يعد هو فيه. حين توقف الباص رأيت والده يجلس أمام المقهى "هذا الرجل، هناك، هو والده أو هكذا نعرف!" لم تهتم بتعليقي الأخير، يبدو أنها تعرف أشياء أكثر مما أعرف أنا

عن العوّاد وعائلته. توقفت أمامه قليلا، تكاد تقترب منه أكثر. تفحصتُ وجهه جيدا وأنا أسير أمامها ببطء أمنحها الوقت لتحدثه، لكنها لم تفعل. سارت ورائي متجهة معي إلى منزلنا. "لا تخبري أحدا من أنا، أرجوك!". "أنا لا أعرف من أنت". "إسمي رشا". "أحب أسماء الحَضَر" وكأنها ابتسمت تحت نقابها، ابتسامة رأيتها في عينيها الشاردتين والمذعورتين من كل شيء حولها.

قالت فجأة وكأنها تذكرت التعليق السابق" هذا ليس والده!". التفتُّ إليها "من؟" سألتها. قالت لتؤكد معلومتها "هذا الرجل المسن ليس والده". قلت وكأنني لا أعرف جيدا ما تقول". يبدو أنك تعرفين كل شيء عنه".

"هذا عمه... الحكومة الآن تعرف ذلك وما تعرفه الحكومة ليس سرا". "لماذا كان يصر على أنه والده" سألتها كمن أستعير غباء من سخريتي. "لأنه والده حتى ولو لم ينجبه. والدا العواد توفيا في حادث، كان العواد وأعمامه معهما. هو الوحيد الذي نجا". وأكملت لي القصة التي أعرفها "يقولون كان في حضن أمه حين توفيت وأخرجوه من حضنها فكأنما ولدته مرتين... أعتقد أنه عصي على الموت". "ماذا تقصدين؟". "أقصد أنه حي". وسألتها "وأين هو؟"... لم تُجب.

كنت أريد أن أقول لها أنت الوحيدة التي تعرفين أين هو. ولكنني احترمت ما تكبدته لتأتي إلى هنا وتسأل عنه. "لست هنا لأبحث عنه". "أنت ضيفتي لن أسألك لماذا أنت هنا". "ما زلت بدوية إذن". "وسأموت على ذلك". هذه المرة سمعتها تكركر بصوت خفيض. أحببت ضحكتها. قبل أن ندخل البيت وضعت يدها على كتفي "سأطلب منك طلبا". "طبعا". وأكدت علي للمرة الثانية. "لا تقولي لأحد عن سبب وجودي هنا أو علاقتي به". "لم أكن لأفعل!".

حين رأتها والدتي لم تتوقع أننا جئنا معا. راحت تنظر طويلا إليها لعلها تتعرف إليها. رأتني أقف إلى جانبها مبتسمة قلبت راحتيها بحركة خفيفة تسألني من هي. "إنها صديقة من الحَضَر". "أهلا بها... تفضلي يا ابنتي". قالت ولم تقتنع أن حضرية ترتدي كل هذا السواد الذي اقتربنا هنا من التخلص منه. "سنذهب إلى غرفتي". قلت كي أمنحها فرصة أن تعود إلى طبيعتها. "أعدّ لكما الشاي". قالت أمي ودخلت المطبخ. إلتفت إلى ضيفتي "هل تشربين قهوة بدوية". هزت رأسها بإيجاب دون أن تتحدث. أرسلت أختي الصغرى لأمي في المطبخ لتجهز لنا القهوة. "غرفتي متواضعة". "بالعكس مرتبة وأنيقة". قالت. كنت أعرف أنها تجاملني. كانت رطبة وخانقة. "تخففي من ملابسك". ألقت عنها عباءتها ونقابها. "هل تجلسين على الأرض؟، كرسي المكتب غير مريح". جلسْت

على سجادة سدو محاكة يدويا، وجلستُ إلى جانبها، كانت رائحتها أخاذة كورد لا أعرف اسمه. عادت أختي من المطبخ تحمل طبقا أرسلته أمي معها، وضعته أمامنا. كان طبق راحة حلقوم وتمر. "هذه أختك الصغرى". "هي الشقية التي حدثتك عنها". كنا قد تحدثنا معا عن العوّاد ومروره اليومي أمام شباكنا ومشاكسة أختي له. نظرت أختي إليها طويلاً كمن ترى فتاة من عالم آخر تدخل غرفتنا ولم تتحدث إلا بعد دقائق طويلة. "سأذهب لأشتري شيئا من البقالة" قالت. ثم خرجت. "افتحي الشباك". قالت رشا وهي تنظر إلى الشباك الموصد قبالتها. فتحت الشباك. كنت أعرف أن الغرفة خانقة ورطبة وصوت التكييف القديم الذي يهدر الآن لن يبعث البرودة قبل مرور وقت طويل. لكنها لم تطلب أن أفتح الشباك لهذا السبب. نهضت من مكانها وجلست ملتصقة به تضع كلتا يديها على عتبة الطابوق الرملي القديم وقد تقشّر عنه ملاطه الإسمنتي وبهت لونه. نظرتْ إلى الجادة الضيقة حيث يُطلّ الشباك. "كان يمر من هنا؟". قالت بصيغة سؤال. لم أجبْها، تركتها تنظر إليه كما لوكان يمر الآن من هنا. الطريق التي تنظر منها الآن هي ذات الطريق التي جئنا بها أنا وهي. ربما اكتسب بُعدا مغايرا وهي تنظر إليها من كوة الشباك. ولكنني الآن أعيش اللحظة التي تتخيلها، أقاسمها حبًّالم يُشرك فيه أحداً سواها. أراه يمر أمام الشباك دون أن

يلقي علي نظرة أو يبتسم لي. لم ينتظرني ذات يوم لنركب الباص في رحلتي الأسبوعية، ولم يتظاهر مرة واحدة بأنه التقاني صدفة وأنا عائدة نهاية الأسبوع من السكن الجامعي. ربما أنا لا أحبه الآن ولكنني أحب حبَّه لها، لا حبَّها هي له. كانت عيناها مخلصتين في كل لمعة وهي تنظر إلى ما تعتقد أنها آثار قدميه على الطريق. كنت أود أن أقاطع نظراتها وأسألها كيف شعورها وهي مُحبّة ومحبوبة، وأنا لا أعرف سوى الشعور الأول.

أرسلت أمي شقيقتي لتشتري دجاجة من بقالة السوري القريبة، حين خرجنا من غرفتي كانت أختي تجلس أمام المطبخ وأمي تشير إلى أن أدخل. نادت علي لتهمس بي "لا تذهب قبل أن تتغدى معنا". "حسنا لن تذهب".

خرجنا إلى الطريق وقد ارتدت مرة أخرى كامل لباسها. "لست بحاجة لذلك" "ذلك أفضل، لا أريد لأحد أن يراني". "ومن سيعرفك هنا إذا رآك". لا أتذكر أن زارتنا امرأة من عالمهم قبلاً. لكنها لا تنظر إلى العالم من حولها كعالم غريب، كانت تسير كمن مرّت من هنا مئات المرات وعرفت قدماها الطريق. "من هنا" قلتُ، ونحن نسير باتجاه منزل العوّاد. كان والده قد عاد وجلس يفترش بساطا مزركشا على الدكة أمام منزله. مررت به وألقيت التحية. "هل عمتي هنا؟"

"وأين يمكن أن تكون؟" دخلنا المنزل. "جئتُ أسلم عليك". لم تنهض عن الأرض التي تفترش عليها بساطا محاكا من الصوف الملون وتتكئ على مسند من "السدو" البدوي عليه أشكالا معينة ومربعات بألوان سوداء وبيضاء ومحشو بريش طيور داجنة. "ومن معك؟". "هذه صديقة من الجامعة وضيفة". قلت كمن يقدم غريبة لغريبة. "أهلا بك وبها، إجلسا إلى جواري". جلسنا في الحوش الصغير وكنت أنظر إلى ضيفتي وهي تتابع أبواب الغرف. كنت أعلم أنها تبحث عن غرفته. "هل سمعتم خبرا منه؟" قلت "لا منه ولا عنه" تخيّلت أنني أثرت وجعها وأنها ستبكي. لكنها لم تفعل. يبدو أن عينيها جفَّتا، ولم يعد لديها بقية من دمع. "لماذا لا ترفعين نقابك عن وجهك، لا يدخل هنا رجل" أشارت إلى صاحبتي التي لم تتحدث حتى الآن. وحين رفعت النقاب صرخت بها المرأة "رشا... رشا". ونهضت إليها ولكنها لم تتمكن فاقتربت منها رشا واحتضنتها. بكت العجوز بنشيج عال وكان ظهر رشا ناحيتي فلم أتبين دموعها، ولكني سمعت حشرجة خفيفة في صدرها. هدأت العجوز قليلا حين وقف زوجها بالباب متكئا على عصاه يستطلع ما يحدث ثم عاد خارجا وهو يدرك أن الأمر ليس سوى تبادل أحزان النساء بين النساء. ولكي تنهي المشهد قالت "سأنهض لأعدّ لكما شايا". "لا". قلنا بصوت واحد. لقد شربنا في بيتنا". كانت قد وضعت يديها

على الأرض لتنهض وأعادتهما ثانية. لست متأكدة إن كانت رشا غمزت العجوز ولكنها توجهت إلي بما يشبه الأمر "شجاعة إذهبي إلى المطبخ واصنعي لنا شايا". وكأنني رأيتها تغمزني. أردت أن أقول "لا". لكنها نظرت إلي بحدة. لا أعرف ماذا دار بينهما من حديث ولكنني رأيتها تأخذ رشا من يدها إلى غرفة العوّاد وتدخلها. أعددت الشاي وخرجت ولم أجدهما على البساط. وضعت الإبريق وكؤوس الشاي على الأرض أنتظر خروجهما، لم يكن من اللائق أن أدخل غرفته معهما، ولكن شعورا غبيا ينتابني أنه سيخرج معها. حين خرجت رشا تتبعها العجوز التي أغلقت الباب خلفها وكأنها تكتم سرّا ليس لي الإطلاع عليه. "حياتكم بسيطة وجميلة". كمن تريد أن تتحدث لمجرد قتل الصمت المريب بيننا "بسيطة نعم، جميلة لا" قالت العجوز. "منذ أن غاب لم تعد لنا حياة". "سيعود" قالت رشا. "أريد أن أعيش فقط لأراه". "هناك من حاربه من أجل شيء مشترك بينهما". قلت مشاركة في الحديث ليس إلا. "وماهو؟ سألتني العجوز ولكنها لم تكن تنظر إلي. ركزت نظرها نحو رشا وكأنها هي التي سألت "أنا لا أعرف هذا الشيء... ربما غيري يعرفه". كانت الإجابة موجهة لضيفتنا بالتأكيد. لم تشرب الشاي نهضت رشا بسرعة. ونهضتُ. "إلى أين يا ابنتي" قالت العجوز". يجب أن نعود "أرادت العجوز أن تنهض حاولت منعها لكنها نهضت.

وبسرعة خاطفة احتضنت رشا وقبلتها قبل أن ترتدي كامل سوادها. عند الباب قالت رشا للعجوز" سأفعل كل ما أستطيع لأعرف أين هو، جئت لأقول لك إنه حي وموجود". لا أعرف إذا كانت فعلا تعرف شيئا عنه أو تطمئن العجوز ليس إلا. "أتمنى أن تأتي لزيارتي مرة أخرى وهو هنا". قالت العجوز "سأفعل". والتفتت العجوز إلي "سلمي على أمك".

كان بودي أن أسألها ماذا رأيت في غرفته، وهل جئت هنا لتبحثي عن شيء في الغرفة. لم يكن للأسئلة معنى وليس لإجابتها ما يغريني الآن. أنا فتاة طارئة على كل شي، طارئة على حكايته وحياته ومستقبله ومماته وماضيه. ودعتنا والدتي بعد الغداء وعدنا إلى محطة الباص 103. افترقنا عند مظلة الباص أمام الحرم الجامعي ولم نلتق بعدها أبدا. ولا أعرف إذا كانت قد زارت بيت العوّاد من دوني أم لا.

الكتاب الأول

كاف أولى

الفصل الأول

العوّاد

- 1 -

خرج من المنزل بعد أن رتب كتبه بعناية، بسط فوقها مسطرة الرسم الهندسي. حملها بيد وفي الأخرى أمسك بالعود مستعدا لحفلة الليلة التي ستقام في بيت الفن على ساحل البحر. رأى في الطريق ذات الطفل يتعلق بعباءة أمه – كما تعلق بها بالأمس – فأسقطها عن رأسها ليتناثر شعرها كنهر من سواد بلون عباءتها على كتفيها. لم تهتم الأم الشابة بعباءتها هذه المرة كما التاثتها يوم أمس كأنما العيب إذا تكرر أمام ذات الشخص يتحول إلى عادة مقبولة. نظرت إليه ولم يكن ينظر إليها كما فعل بالأمس، فقَدَ المشهدُ الذي تكرر إغراءه الأول. ولم يعد الشعر الأسود الفاحم الذي خبأته العباءة سوى شعر كأي شعر يراه كل يوم في حياته الأخرى على الجانب الآخر من قريته.

يجتاز البيوت الطينية التي توزعت عشوائيا وتشابهت كشقاء الوجوه التي تسكنها، بيوت لا عناوين لها، لا أرقام تميزها ولا أسماء لشوارعها الترابية، بيوت نكرات تسمى

بأسماء ساكنيها وألقابهم وكناهم التي اكتسبوها لسبب ما، ألقاب متوارثة عن جدّ توفي منذ زمن، ألقاب اكتسبوها من صنعة قديمة أو أحدثتها الضرورة، وألقاب أوحت بها عاهاتهم. ومن لم يكن من أهل القرية لن يستدل على ضالته دون مساعدة أهل الحي وهي مهمة غالبا ما يقوم بها الصبية الذين يعلمون أسرار كل بيت، وساكنيه، في حمّى معرفية لا مبرر لها.

قبل أن يتجاوز بيت أم البنتين، كما اتفقوا على تسميته، أطلت فتاة من كوة مربعة في الجدار، تقوم مقام النافذة، تتكئ على طابوق العتبة الذي تقشر ملاطه، كأن الفتاة تتعمد أن تنتظره في موعد لا يخلفه كل صباح، تسرّح نظرها في تفاصيله، شعره المرتب بعناية وقميصه الذي لم تكترث بأنه لم يستبدله طيلة هذا الأسبوع، بنطال أسود لا تعرف الفتاة إذا كان هو بنطال الأمس أم لا. كتبه ومسطرة الرسم الهندسي وما يثير اهتمامها أكثر هو هذا العود الذي كفنه بثوبه الجلدي البني. كانت تتمنى لو أنها سمعته يعزف، لم يكن يفعل ذلك حتى وهي تمر وشقيقتها الكبرى أمام منزله. ربما كان يفعل ذلك في أوقات أخرى، بالتأكيد كان يفعل ذلك في أوقات أخرى. صرخت الفتاة وكأنها تريد أن تُسمعه هو لا الصوت الذي ناداها من الداخل "هذا العوّاد". ابتسمَ ولم يرد. لم يمنحها فرصة أن ترى ردة فعله. كمن يتحاشى حديثا يعترض طريقه

كل صباح. لا شيء يثير فضوله وهو يخرج من حيز القرية العشوائية التي زرعتها أيادٍ لم تمتلك خبرة سابقة في التنظيم الهندسي.

قبل أن يصل إلى الطريق المعبدة رأى المجانين الأربعة يجتمعون جوارَ حائط البيت المهجور والذي مارسوا عليه عبثهم طوال ليلة البارحة. كتبوا عليه قذاراتهم ومسحوها وكتبوا غيرها، رسموا صورا بأحجامها الطبيعية لفتيات عرايا والتصقوا بها حتى ارتجفوا وتساقطوا؛ كأنهم في حرب مع خيال يصرعهم دائما ويعيدهم ثانية إلى صراعه في متعة متبادلة، لا يسأم الخيال من هزيمتهم ولا ييأسون من محاولاتهم. كان المجانين قد اجتمعوا بمحض صدفة فالأربعة يعملون عتالة في الجمعية التعاونية أحدهم أمام فرع التموين، واثنان أمام سوق الخضار، والرابع أمام فرع الغاز. في نهاية اليوم يجمعون ما يكسبونه ليشتروا زجاجة "كلونيا" وأربع زجاجات ماء، أما أكلهم فهو هبة يومية من بقايا السوق، يعودون في المساء إلى البيت المهجور يأكلون ويمزجون الكلونيا بالماء فيصبح كالحليب ليسكروا حتى صباح اليوم التالي. لاشيء يميزهم سوى أنهم اكتسبوا اسما واحدا اقتسموه بينهم ولا أحد يعرف حتى الآن من أطلقه عليهم مجتمعين. ولم يتبين أحد بم ينادون بعضهم البعض فليس لهم لغة يتحدثون بها. كانوا يرتدون ذات "الدشاديش" السود صيفا ويضعون فوقها معاطف

عسكرية طويلة في الشتاء وينتعلون بساطير عسكرية سوداء ربما تبرع لهم بها العساكر في قرية يعمل أغلب سكانها في الجيش والشرطة وحراسة الأسواق.

سلك الطريق الوحيدة المعبدة نحو موقف الحافلات، افترشت نسوة من القرية الساحة المُعبَّدة بمربعات إسمنتية رُصفت دون عناية. جلسن بانتظام كسطر الكتابة يبعن ملابس نسوية رخيصة، ملابس أطفال، أسمال، مناشف، عطور مصنعة في بيوتهن، بخور مغشوش، عِطارة ومواد نسوية لا يتم عرضها على العامة. المرأة الوحيدة التي تجلس خلف السطر المرسوم كانت تبيع خبز التنور، وكأنها تنأى بنفسها عن التجمع الذي تشكل بحكم الفاقة. اقترب منها كما يفعل ذلك كل يوم؛ اشترى رغيفا من المرأة التي تغطي كامل وجهها تاركة مهمة البيع لفتاة مشعثة الشعر رثة الملابس عنيفة الخلق كأنها تستبق حربا لن تقع خارج حدود خيالها. فتاة تشبه الفتاة التي تركها قبل قليل تطل من كوة الغرفة. كان تشابها يحتفي به دائما هؤلاء الفقراء الذين ألقتهم الحياة عن ظهرها كأشياء زائدة عن حاجتها.

جلس إلى طاولة لم يشغلها أحد. أحضر له غلام المقهى الشاي بالحليب قبل أن يطلب منه أن يشتري له سيجارة من المحل القريب. حين عاد بها الغلام فوضعها

جانبا حتى ينهي إفطاره. كانت تلك هي السيجارة الوحيدة التي يدخنها خلال يومه الطويل. أشعلها وبدأ حوارا مع الغلام "هل ستعزف الليلة؟" "نعم" "هل ستأخذني معك؟" "لا" قال له ذلك الآن كما قال له ذلك من قبل ردا على ذات السؤال. "تعلم أنا ذهبت للمدينة مرة واحدة في حياتي" "قلت لي ذلك من قبل". لكن الغلام كمن يستجديه "أنت تذهب كل يوم" "كل مرة تشبه المرة الأولى التي تعرفها أنت، لا تحزن" "لا! هناك فتيات جميلات، وهنا، أنظر" وهو يشير إلى البائعات المتربعات على الأرض خلف بسطاتهن. "الفقر لا يصنع جمالا ولكنه يصنع إنسانا". قال للغلام الذي راح ينظر طويلا في عينيه دون أن يتبادل العواد معه النظر، استمر ينفث دخانه في الهواء الساكن.

سيارة الباص الزرقاء التي تتوقف، الآن، في موقفها المخصص أمام المحطة وهي عبارة عن مظلة صغيرة زرقاء اللون كتب عليها "محطة الحافلات"، والحافلات هنا ليست سوى سيارتي باص وحيدتين يحملان الرقم 103 تتناوبان على ذرع الطريق الواصلة بين القرية ومركز تجمع الحافلات في المدينة. نهض العواد متجها إلى الباص الذي لم يجد أكثر من ركاب بعدد أصابع اليدين. أغلبهم نسوة يحملن على رؤوسهن سجاجيد السدو الخفيفة لبيعها لمحلات السوق في المدينة حيث يكثر الأجانب ذوو العيون الزرق والرقاب

الحمراء من عمال شركات النفط. رفع يده محييا الغلام الذي يقف أمام باب المقهى ولكن الغلام لم يكترث له وتظاهر بالانشغال. كان حانقا عليه.

يتوقف الباص مرة واحدة في الطريق بين القرية والمدينة لينقل ركاب قرية قريبة ثم ينطلق مرة أخرى في طريق إسفلتية موازية للبحر. يجتاز بسرعة عربات الخضار التي تجرها الأحصنة المهجنة والبغال التي تسير على يمين الإسفلت فوق طريق رملية. فالحكومة تمنع الخيول والبغال من إستخدام طريق الاسفلت وقامت بتمهيد طريق ترابية موازية تجففها الشمس صيفا ويزيدها المطر بؤسا في الشتاء. من تلك القرية يركب صديق عمره والذي تعرف إليه في ثانوية المدينة حيث يدرس أبناء القرى الصغيرة المتناثرة حول المدينة. اعتادا الطريق معا ثم اكتشفا أنهما يكمِّلان بعضهما، الأول عازفا وملحنا والآخر شاعرا شعبيا.

حين جلس إلى جانبه في المقعد الخالي كان العواد شارد الذهن، حتى وهو ينظر حوله منذ ركب الباص إلى أن جلس إلى جانبه. "بماذا كنت تفكر؟" "هل قلت صباح الخير؟". "لا. مللت وأنا أقولها كل يوم". "طيب". لم يتبادلا حديثا جديدا رغم أن العواد يتردد في توجيه اللوم لصاحبه الشاعر والذي كان ينتظر رده على نص شعري تركه معه

بالأمس قبل أن يفترقا. "لم يعجبك إذن" قال فهد غانم وهو يهز كتف صاحبه" كيف عرفت؟" "لو أعجبك ما صَمَتَّ" كان فهد غانم يحث العواد على تلحين وغناء أغانٍ شعبية تجد مثيلاتها نجاحا هائلا، ويصيب أصحابها شهرة إعلامية وشيئا من الثروة. وفي المرة الأخيرة التي ترك فيها قصيدته بيد العواد، لم يطل العواد النظر إليها. كان يعرف أنه لن يلحن أغنية تافهة. أما أن يغني فكان ذلك صعبا جدا في الظرف الذي يمر به الآن. "إسمعني جيدا! أنا لن أغني، هذا قرار نهائي لا رجعة فيه ولن ألحن أغنية تافهة". لم يتضايق فهد غانم، كان يعلم أنه لم يكتب شعرا ولكنها أغنية بمقاس محدد ولا يتردد كثيرا في إطلاق صفة "تافهة" عليها ولكنه سيدافع عنها. لا يجد الشاعر سبيلا لإقناع هذا الذي أيبس الفقر خديه وأنحل أطرافه في الإثراء من موهبة يمتلكها ويجيدها وهو يعلم أن قصيدته وحدها لن تجد طريقها دون أوتاره التي أدمنت التخت الشرقي وتتبع طرق الكبار الذين تبنَّوا مبدأ "تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها".

لكن الذي لم يتوقعه فهد غانم أن الالتزام الفني والامتناع عن الغناء هو ليس مبدأ اتخذه العواد لوحده. وهو ليس الإرث القبلي الذي تخلص منه كثيرون من قبل وارتضوا الدخول في مغامرة الفن. هو ليس طاعة لأب أو أم لا يتذكر العواد ملامحهما، ولا الكلمات الأولى التي يوجهها والدان لابنهما

الوحيد المُتبنى. مالم يخبره به العواد من قبل صارحه به الآن وكأنه يزيح عناء ثقيلا عن صدر علاقتهما التي لا تحتمل كتمان سر كهذا.

"أنا أعيش علاقة حب كبيرة" ولكن فهد غانم كمن لم يستوعب الكلمة الأخيرة "وكيف عرفت الفرق بين علاقة حب كبيرة وأخرى صغيرة؟" ثم أكمل وهو يسحب دخان سيجارته التي أشعلها للتو" أنت لم تحب ولم تُحَب من قبل". لكن العواد أحس الآن بارتياح وكأنه ألقى عن ضجيج صدره أصعب جملة في الحوار الذي لم يعرف كيف يبدأه." كبير بمعنى حب لا نهاية له". وكمن يصحح له فهد غانم خيبة لغوية "تقصد أنك لا تعرف نهايته... يا صديقي، ليس هناك حب نعرف نهايته" "لا! هذا الحب يا فهد أعرف نهايته". "حيرتني معك، وما تلك النهاية؟" أطرق العواد طويلا أعاد ظهره منتصبا إلى المقعد الخشبي المصقول، نظر من الشباك الزجاجي إلى الفراغ الممتد بين البحر وطريق الجهراء الطويل ودون أن ينظر إلى صاحبه قال، كمن يعرف يقين نهايته: "إنها نهايتي".

لم يجد فهد غانم بؤسا أكثر يمكن أن يحدّث به العواد وليصمت الآن. سارا صامتين حتى مقر الجمعية الطلابية. ترك العواد عوده في الخزانة وتواعدا أن يلتقيا في المساء

للذهاب مع الفرقة إلى بيت الفن على ساحل البحر لإحياء الأمسية الشهرية والتي اختارت الفرقة أول يوم خميس من كل شهر موعدا لإقامتها.

تواقد جمهور يتكرر حضوره غالبا كل شهر، ويكاد العواد أن يعرف ملامحهم والتغير الطفيف الذي يطرأ عليهم، كان يجلس إلى جوار فهد غانم الذي يدخن سيجارته الأخيرة قبل بداية الحفل على حافة سور صغير من الإسمنت لحوض نباتات لم يحن وقتها بعد. توقفت سيارة سوداء كسيارات مراسم الحكومة أمام الباب الرئيسي لبيت الفن وكأن الموقف قد خصص لها دون غيرها، لم يأبه السائق الآسيوي بعلامة ممنوع الوقوف المنتصبة أمام الموقف ولا بلون الرصيف الأصفر والأسود، السيارة التي يعرفها العواد وينتظر موعد قدومها، وتسبب وصولها بارتباك لاحظه فهد غانم واضحا على وجهه وليس بحاجة لفطنة ليعرف أنه ينتظرها. ترجل السائق بخفة فتح الباب الخلفي للسيارة لتنزل فتاة وتمد يدها لسيدة مسنة تتكئ على عصا سوداء قصيرة ومذهبة، تصطحب الفتاة المرأة إلى الداخل وكمن ابتسمت له وهو يتابعها بنظراته حتى توارت خلف الباب الأسود العريض للبيت. بقي السائق متكئا على السيارة وهو يضع خاصرته بين مرآة الباب الجانبية والباب الأمامي. "هل ندخل؟" "لم أُنهِ سيجارتي بعد". "لن تنهي سيجارتك حتى تنهيك". "أدخل أنت

واتركني. يبدو أن حبك الكبير قد وصل". "إخرس!". "طيب". داس فهد على بقية سيجارته بطرف حذائه ودخل معه إلى الكواليس. مالم ينتبها إليه معا هو سيارة "التويوتا" اليابانية السوداء التي تقف بعيدا عنهما تراقب المشهد عبر رجلين ضخمين تكاد أكتافهما أن تتلامس داخل المقصورة الأمامية للسيارة الصغيرة.

كان فهد غانم عادة يتابع الحفل من الكواليس تقديرا للأشعار المجانية التي يهبها للفرقة وللعواد تحديدا، وحين يمازحه العواد أحيانا يخبره بأن هروبه من الجمهور هو تحاشيا لكمية السباب التي يمكن أن يستمع إليها مباشرة وهو بينهم. لكن تلك ليست الحقيقة كان فهد غانم شاعرا موهوبا وربما كانت كلماته سبب هذا الحضور المتكرر لأمسيات بيت الفن. إلا أنه هذه المرة قرر أن يجد مكانا قريبا من هذه الفتاة التي أشعلت بداية النهاية في حياة صاحبه. لم يطل النظر طويلا إليها، ما يقرؤه الآن من مظهرها منذ حضورها حتى جلوسها في الصف الأول وحركة القائمين على الحفل المرتبكة لتدليلها كانت كافية لتؤكد له أن حكاية صاحبه ورطة لن يحتملها وسيكون محظوظا لو اقتصر الأمر على نهايته هو.

تلك المرة الأولى التي تخرج فيها رشا مساء بعد

محاولات إقناع طويلة لوالدتها كي ترافقها إلى الحفل، وكانت الأم ترغب أكثر منها في الخروج ولكن صعوبة حركتها والعجز الذي أصاب ساقيها بسبب مرض السكر والروماتيزم يمنعها من ممارسة نشاطات اجتماعية خارج البيت واكتفت باستقبال زوارها في البيت، أما خروج رشا ليلا دون مرافقة العجوز فهو ضرب من الجنون لن يقبل به الأخ الأكبر الذي يفرض سلطته على البيت كما يفرضها خارج البيت.

لم يجد فهد غانم المتربص بالأعين الأربع المتقابلة ما يثير اهتمامه، لم يُبدِ العواد ما يثير ريبة أحد لا يعلم بما بينه وبين الفتاة التي تجلس في المنتصف تقريبا على المقاعد الوثيرة التي خصصت لكبار الشخصيات، ولم يثر ريبة فهد غانم الذي يعلم أن صاحب مشواره يعزف الآن على آلتين قلبه وعوده. حتى أنه شك بأن ما قاله العواد وهما في الطريق إلى الحفل عن علاقته برشا لم يكن سوى حلم يقظة عاشه العواد بصوت هادئ خفيض ودافئ وهو يبوح لصاحبه بسره. كانت نهاية الجزء الأول من العرض وبداية الاستراحة الأولى كفيلة بأن تؤكد لفهد غانم أن الفتاة أيضا تعيش قصة حبها. حين نهض من مكانه متجها إلى الكواليس نهضت الفتاة أيضا ودخلت الباب الوحيد المؤدي من الصالة إلى الكواليس لتلتقي العواد.

ابتعد فهد غانم قليلا وتركهما يتهامسان دون أن يعرف ما الذي يمكن أن يقولاه وسط هذه الضوضاء التي يثيرها أعضاء الفرقة من راقصين وعازفين ومرددين. الجملة الوحيدة التي كانت واضحة له في حديثهما كانت "قولي لها حاضر، سنلعبها بعد قليل". اقترب فهد غانم حين عادت رشا إلى مكانها. "هل كانت ترغب بطلب خاص؟" "ليست هي. الأم تريد سامرية لفهد بورسلي وليس لفهد غانم" ضحك فهد" الأم من جيل بورسلي لو كانت هي التي طلبت لطلبت من قصائدي" ويمازحه العواد "تعلم أنك فجوة بين جيلين، ما أتعس أن تكون فجوة بين جيلين".

اتفقت الفرقة أن تلبـي طلب الأم وتغني السامرية التي طلبتها، بدت نشوة الارتياح على الأم وكأنها تغني تفاصيل ماضيها كاملا في أغنية واحدة، حين انتهت الفرقة من الغناء، نهضت الأم مغادرة، ونهض الصف الأول معها فتوقفت الفرقة قليلا. اصطحبت رشا أمها التي تركت مبلغا من المال في يد رئيس الفرقة دسه في جيبه ورافقها حتى باب السيارة التي فتح بابها الخلفي السائق المصلوب بين مرآة الباب الجانبية والباب. تحركت السيارة ورئيس الفرقة يحرك يده ملوحا لها ليعود إلى فرقته بذات الابتسامة التي رسمها على شفتيه، ولم يكترث أيضا للسيارة اليابانية السوداء وهي تنطلق مسرعة في إثر سيارتهما كظل تفصله مسافة فرضتها خبرات

متراكمة يجيدها الرجلان ذوي الملامح المرعبة.

انتهت الحفلة وأودع رئيس الفرقة المبلغ الذي استلمه من الأم لدى أمين صندوقها ووعد الجميع بأن يوزع ريع الحفل عليهم في اليوم التالي. أوصلت العواد وصاحبه سيارة الفرقة والتي يقودها أمين الصندوق إلى الكلية وفي الطريق من الكلية إلى قريتهما اضطر الشابان أن يستأجرا سيارة نقل بمقصورة واحدة استوقفاها من الشارع. "لماذا لم تطلب منه بعض النقود؟" "لا عليك معي نقود تكفي". قال العواد. "كان يجب أن تطلب. أنا جائع، لم آكل منذ الصباح". "لا يمكن أن تكون شاعرا، لهفك على بطنك أكبر من لهفك على قلبك". "أنا شاعر ولست عاشقا ولا أكتب شعرا إلا إذا شبعت". "سنأكل حين نصل موقف الباص في قريتك". "لا. أكمل طريقك ونلتقي صباحا". "كما تريد". وصمتا. كانت الطريق خالية من السيارات تقريبا ولم يتحدثا كثيرا ولكن الرجل صاحب سيارة النقل كان يتحدث في صمتهما عن أشياء لا تهمهما ويسأل أسئلة لا يجيبان عليها. في موقف الباص وقبل أن يترك فهد السيارة التفت مودعا العواد "على فكرة كانت جميلة عن قرب" وأغلق العواد الباب دونه وأشار للسائق أن يتحرك. "من هي الجميلة؟" سأل السائق متطفلا "حمامة اشتراها بالأمس" "حمامة! أنتم شباب..." وانهمر بحديث لم يدر له العواد بالا، كان يفكر بالصورة الأخيرة التي ارتسمت

في خياله وعطرها الذي مازال عالقا في أنفه رغم الروائح البغيضة التي تنطلق من سيارة النقل والتي لا يمكن تحديد مصدرها.

حين دخل البيت كان والداه نائمين وتذكر أنه فعلا جائع ولم يأكل منذ الصباح. كان بحاجة إلى النوم أكثر من حاجته للأكل. طوى جسده في فراشه وسقط من الإعياء.

- 2 -

المكان الوحيد الذي تقبل أن تلتقيه فيه هو الجمعية الطلابية. "أنا أعلم أنني لا أحقق لك كل ما تريد ولكن أي مغامرة أخرى قد تنهي كل شيء". "لا عليك، هذا أفضل، المهم أن نلتقي ونتحدث".

في المرة الأولى التي التقت به كانت موسيقاه سبب عشقها له. كان ذلك في حفل الجاليات العربية الذي تقيمه الجمعيات الطلابية في ساحة كلية الآداب والحقوق، لم يكن مشاركا يومها في فعالية من فعاليات الجاليات، كان متفرجا دفعه الجمهور دفعا إلى العزف، تردد كثيرا، لم يعزف من قبل خارج إطار الفرقة التي تأسست على يد مجموعة من الطلبة الموهوبين على آلات بسيطة يستخدمها الصوت الكويتي وصوت مطرب شاب يجيد أغاني البحر والصحراء، قدم له شاب عراقي عودا عراقيا أصيلا تأمله جيدا، كان يتمنى أن يمتلك مثيلا له وعزف لحنا لرياض السنباطي وقطعة لسامري كويتي وتوقف الجمهور في الخيمة المخصصة لإتحاد طلبة

العراق عن التنفس. حين انتهت المعزوفة اقترب منه الشاب والعواد يحاول أن يعيد العود فيرده الشاب العراقي "صدقني خسارة بـي هذا العود، منذ سنين وأنا أحاول ولم أتعلم، هذا هدية لك" "لا" قال مترددا وهو يمسك بالعود "لا شكرا" "أرجوك" وقرر أن يعيده لصاحبه "لا يمكن أن أقبله، هذا غال جدا" "أرجوك" "لا "وسلم العود لصاحبه وغادر الخيمة إلى الخيمة المجاورة حيث يلعب الشباب الفلسطيني دبكة حماسية. اقتربت رشا من صاحب العود "كم ثمن هذا العود؟" "بالكويتي لا أعرف" "هل تبيعه؟" "لا أبيعه" "أرجوك" "من غير أرجوك تفضلي" "لا بثمنه" وأخرجت رزمة من الدنانير فئة العشرة دنانير وسلمتها له" "هذا كثير" "لا يهم شكرا لك". لحقت بالعواد الذي يقف أمام حلقة الدبكة الفلسطينية حيث تتشابك أيادي الفتيات بأثوابهن الشعبية الزاهية بأيدي الشباب وتمنى لو كان يجيد الدبكة. "تفضل" قال الصوت النسائي الذي يقف بجواره وهي تحمل العود الذي أعاده صاحبه إلى جرابه البني وسلمه لها. "ما هذا؟" "هدية لك"

"لا لقد قلت لا لصاحبه" "ولن تقول لا لي" "سأقول" "لن تفعل" "أرجوك أنت تحرجينني أمام الطلبة" قال همسا "حسنا فلتأتي بعيدا" سار خلفها حتى انزويا في مكان يبعدهما عن الآخرين. "أنا اشتريته من صاحبه وأمام هذا العود حلان لا ثالث لهما إما أن تأخذه أو أضربه بهذا العمود. لن أعود إلى

البيت به" كان ينظر بعيدا في عينيها السوداوين، بشرتها البيضاء كأول الصبح، وشعرها المرسل بنعومة على كتفيها. "سآخذه إذا قلت لي لم" "لأنني أحببت عزفك وأحسست أنك تستحقه فعلا".

"وأحسست أنني لا أقدر على ثمنه" "لا ستدفع ثمنه، سيأتي يوم وتدفع ثمنه". وضحك "سيأتي يوم... بالتأكيد سيأتي يوم ولكنك لن تكوني هنا" "إذا أحببت ستجدني" وغادرته "لم تقولي ما اسمك" ولم ترد. انصرفت وبقي حاملا عوده ينظر إليها وهي تغيب في زحام المهرجان.

لم يتوقع فعلا أن يراها ثانية كانت فتاة غنية تمتلك مالا تستطيع أن تستغني بسهولة عن بعضه لأي سبب وإن كان تافها. أن تقدم له فتاة لن يراها ثانية عودا من صناعة العبقري "محمد فاضل" هو سبب تافه بالنسبة لها لكنه سبب يسعده حياته القادمة أو ما تبقى منها. قرر أن يغادر المهرجان بغنيمته التي عشقها قبل قليل وهو يعزف عليها وحظيَ بها بسرعة مذهلة لم يتوقعها. في حالة مباغتة كهذه يتجاوز الفقير حدود الحلم وتنمو بداخله عوالم لا يتمكن من رسم أطرها ولكن تلك لم تكن حالة العواد، كاد أن ينسى ملامحها في اللحظة التي غادرته فيها، ربما كان يود النظر طويلا إليها كوجه جميل لن يتمكن من رؤيته مرة أخرى، وبقي قلبه معلقا

في هذا الكائن الخشبي الأملس الذي يحمله ويتخيل الوحدة التي ستلفهما وهما يتبادلان الحضن والحزن. كان العواد ينتظر فهد غانم في المهرجان ولكنه فضل العودة إلى البيت.

لم يستعد العواد صورة الفتاة إلا وهو يدندن بلحن تراثي قديم لشاعر مغمور من اليمن، حاول أن يتذكر إن كان قد رآها من قبل في مكان ما ولكنه لم يتذكر. تأخر في السهر كعادته، قرأ القصائد التي تركها فهد لديه حاول أن يهتدي إلى لحن لأحدها، ولم يكن بإمكانه. عليه الآن أن يتوقف عن العزف، سينهض والده لصلاة الفجر وهو لا يحب صوت العود ليس تدينا ولكنه لا يقبله اجتماعيا. قال له مرة "عودك هذا نكبتك" "لا يختلف عن ربابتكم التي تعزفونها في مجلسكم" "هذه يقبلها الناس وهذا لا يقبله أحد" ولكي ينهي حواره معه والذي ربما أخذه إلى مساواة غير مقبولة بين آلتين "لا أريد أن أسمعك تعزف عليه أمامي". ولكي لا يغضبه كان يبدأ العزف بعد أن يتأكد أنه نام وأغلق باب غرفته على همومه التي لم تتناقص منذ أن فقد أخيه وعائلته في ذلك الحادث الذي ليس بإمكان ذاكرة بشرية مهما بلغت من قسوة النسيان أن تنسى تفاصيله.

في صباحه التالي والذي يتكرر عادة دون جديد نهض في موعده دون أن ينال ما يكفي من النوم لشاب في عمره.

حمل أوراقه وخرج، لم ير والده في الخارج يجلس أمام الباب كعادته توقع أنه مازال نائما أو غادر إلى مجلس جيرانه في غير موعده. كان أطفال المدارس الإبتدائية والمتوسطة ينتظرون باصات الحكومة في الموقف المخصص وأدرك أنه استيقظ باكرا عن موعده لكنه لم يعزُ ذلك لسبب ما. قرر أن يستغل هذا الوقت في القراءة بالمقهى حتى موعده اليومي مع فهد غانم. التقى في الطريق بالمجانين الأربعة "مرهش" يخرجون من البيت المهجور إلى أعمالهم يتشاتمون أو يمزحون بطريقتهم التي لن يستوعبها سواهم. كانوا يتشابهون في كل شيء خارجيا وداخليا وكأنهم فعلا استحقوا اسما عبقريا واحدا. وحين حياهم باسمهم الوحيد ردوا الأربعة بإشارة منهم وتمتمات لم يفهم منها شيئا. في المقهى رأى طلبة الثانوية يجتمعون حول غلام المقهى ويزعجونه بطلبات لن يدفعوا أثمانها كاملة. لم تكن في القرية مدرسة ثانوية وعلى الطلبة الأربعة الوحيدين أن يستغلوا باص النقل العام إلى مدرسة في المدينة. حين رأوه تمثلوا رزانة مفتعلة وجلسوا حول طاولتهم يتحدثون عنه بصوت لا يسمعه. تقدم منه غلام المقهى "هل تريد شيئا؟" "أنت غاضب مني" "لست غاضبا منك" "بلى، أنت غاضب مني" "لست غاضبا منك" "سأذهب لأشتري إفطارا من المطعم الهندي" "هذا المطعم قذر" "لا عليك لدينا مناعة، أحضر لي شايا بالحليب وسيجارتي حتى

أعود". اشترى خبزا هنديا وبيضة مسلوقة، كان الباص قد بدأ يتحرك والغلام يصرخ به "تحرك الباص". غادر الباص بالطلبة وبعض العمال ونساء يحملن بضاعتهن إلى سوق المدينة أكوارا على رؤوسهن. "سأنتظر الباص التالي". تناول إفطاره ودخن سيجارته دون أن يزعجه الغلام بالأسئلة، ربما لأنه لم يصطحب العود معه هذا اليوم.

لا شيء يغريه من حوله، كل ما يراه نشأ عليه ففقد متعة الاكتشاف، أحس بالملل وهو يقرأ في كتابه ويدون عليه بعض الملاحظات ولكنه بين لحظة وأخرى يتذكر ملمحا من ملامحها، عينيها، شعرها، البياض المتناسق مع لون فستانها، وهي إلى جانبه... وهي تغادره، ساقيها النحيلتين، لكنه رغم هذه التفاصيل المبعثرة لم يستطع أن يشكل لها صورة كاملة.

غابت عنه رشا حتى الخميس موعد الحفلة الشهرية. كانت سيارة الفرقة تستعد للانطلاق من موقف السيارات حيث يجتمع من يملك سيارة منهم ومن لا يملك. كانت تقف على مبعدة وحين رآها لم يكن له أن يخطئها، كان يعتقد أنه لن يعرفها لو رآها ثانية، ترك زملاءه يكتملون واقترب منها. "هذه صدفة أخرى جميلة". "هذه ليست صدفة ولكنها جميلة" "تقصدين أنك تعمدت" "لا يهم أراك السبت. تمام العاشرة. في الجمعية الطلابية لا تتأخر" وانصرفت بسرعة. كانت سيارة

البيت وسائقها الآسيوي تدخل الموقف تلحق بها سيارة تويوتا سوداء لا يكترث بمرورها أحد.

توقع أنها جاءت لتخبره أنها ستحضر الأمسية ولكن ربما كان موعد السبت أجمل من حضورها هذا المساء. ليس في ذهنه ما يشير إلى أبعد من علاقة ثرية معجبة بفنان بسيط الحال. كان ذلك يرفع ثقته بأدائه وفنه، أن تعجب بك فتاة هو غير إطراء الشباب لك، المرأة تستطيع أن ترسم حدود كيانك، تضعك في الإطار الذي سيراك الآخرون من خلاله، الإطار الذي تحب أن يراك الآخرون من خلاله. في تلك الليلة أبدع العواد كما لم يبدع من قبل. كان يراها تجلس أمامه، يرسمها لسبب ما على المقعد الشاغر أمامه كما رآها أول مرة، المعجبة الأولى به حتى الآن، المعجبة الوحيدة والتي تكفيه سيلا من الأيدي تصفق له. لكنه لم يتجاوز ذلك إلى أول الحب أما هي فتجاوزت ذلك منذ اللقاء الأول. كانت تعرف أنها تسير به إلى قصة حب وتعرف أنها قادرة على أن تجعله يسير معها، رغم أن تلك هي تجربتها الأولى.

"كنت رائعا الليلة" قال له رئيس الفرقة. "إنه العود يا صديقي. هذا الصانع عبقري، لو كان هذا العود من خشب السيسم لجعلت الأرض تترنح" "وهل تعرف خشبه؟" "إنه من خشب القيقب" ورسم رئيس الفرقة بلاهة غير مقصودة على

شفتيه "خشب ماذا؟" "القيقب. هذه أخشاب كندية الأصل" "آه كندية الأصل!". وتركه وهو يهز يديه.

في ذلك اليوم تجرأ للمرة الأولى وطلب من رئيس الفرقة مالا، لم يتردد الرجل بدفع أجرته عن الليلة" هل يكفي هذا؟" "كاف جدا، شكرا لك" ولم يعد مع الفرقة إلى الكلية، سار الطريق إلى السوق القديمة في الشارع الخلفي لبيت الفن اشترى ملابس داخلية وحذاء رياضة "أديداس" مقلَّدًا، قميصًا بلون أزرق خفيفًا، بنطال جينز وعطرًا فرنسيًّا رخيصًا غيرَ أصلي. ركب سيارة أجرة من هناك عائدا إلى مجمع الباصات في المدينة وكان باص 103 متوقفا لم يتحرك بعد.

كان الوقت متأخرا بالنسبة لوالديه فلم ينتبها لحضوره، دخل البيت دون ضجة وجلس على سريره في غرفته بعد أن أضاء مصباحا واحدا من مصباحي السقف، الهواء يدخل غرفته ناعما بشيء من البرودة التي يبعثها أكتوبر عادة وتوقع أنها ستمطر الليلة ولكنها لم تمطر. حين استلقى على سريره كانت صورتها الأقرب والتي رآها عليها بالأمس تحط على سقف الغرفة الأبيض وتطير بالسرعة ذاتها. حين استيقظ في السابعة صباحا توهم أنه حلم بها مرتين وهو مالم يحدث في منامه وإنما في دقائق اليقظة البكر قبل أن يصحو تماما. غادر دون أن يرد على صوت أمه تدعوه لأن

يشاركهما الإفطار، لم يكن فهد غانم ينتظره في المحطة التالية، كان الوقت مبكرا جدا، في الثامنة كان يجلس في الجمعية وهو يتوقع أن تأتي مبكرة إلى موعدها الذي ضربته. ولكنها لم تأت حتى في تمام موعدها، تأخرت نصف ساعة، حين دخلت كانت الجمعية خالية تماما سوى من فتاتين كانتا تتحدثان إليه عن الموسيقى والهندسة. ألقت التحية وجلست إليهم، تظاهرت بأنها تستريح من عناء ما، أخرجت كتابا من حقيبتها وشرعت تقرأه وهي تنظر إلى شفتيه تتحدثان عن تجربة الفرقة وسبب وجودها في هذا المد الرجعي الذي تعيشه البلد. قبل الحادية عشرة بعشر دقائق استأذنت الفتاتان لمحاضرة وبقيت وحدها معه، دخل شاب وخرج وكانت مجموعة تقف في غرفة التصوير المنزوية بعيدا عن المكان الذي يجلسان فيه. "تأخرت" "لم تكن لوحدك، معك من يسليك" "كنت على موعد معك" "يبدو أنك كنت محتاطا لغيابي" "أنا لا أحب هذا الكلام" وهم أن ينهض "إجلس أمزح معك. آسفة" "على ماذا" "على تأخري" "لا. تأسفي على ما قلت" "وعلى ما قلت". يبدو في حوار كهذا أن الأمور لم تكن تسير بشكل مريح ولكنها على العكس تماما كانت تسير كما يشتهيان. إن افتعال أزمة لا وجود لها هي وسيلة ذكية لتأكيد حالة لم يعلن عن وجودها صراحة.

دعاها للخروج ولكنها رفضت "لا يمكن". "لماذا؟".

"ستفهم فيما بعد". "حسنا". أخذا يتحدثان عما هو عام وغير ضروري أحيانا. في الواحدة تقريبا انتبها أن الوقت مر سريعا "سأراك السبت القادم في نفس الموعد".

"أين" "دائما هنا. لا تطمح لأكثر" "ومتى أفهم" "يعتمد ذلك على ذكائك" "إذن لا أمل لي" ضحكت وهي تغادره وبحركة لا يعلم إن كانت تقصد من ورائها شيئا أم لا حركت أصابعها على كتفه وهي تتجه إلى الخارج.

- 3 -

يشعر فهد غانم الآن أن صاحبه يسير الطريق التي كان يبحث عنها، يحب امرأة واحدة فقط يتزوجها ويعيش لها ومعها. وربما وجود فتاة غنية في حياته ومن مكان يبعد حضاريا سنة ضوئية عن قريته سيتيح له فرصة التخلص من العبء القبلي الذي يحمله الفنان في بيئة قبلية لن تتقبله، وهي تجاريه حاليا كونه شابا موهوبا هاويا وأن ما يتأبطه من عار تقابله مسطرة المهنة الشريفة التي سيتخصص بها ويُعرف بها ويبقى صوت أوتاره رهين محبسه الذاتي بين أربعة جدران وليل بلا آذان أو عيون. وتلك حياة لا تليق به ولا يطمح إليها، لم يتخيل نفسه يسير بهذا الاتجاه المثالي، الحياة ليست بهذا المثال كما يراها ولن تكون، هي ليست منصفة أو مثالية حتى نتعامل معها بهذه المثالية العاهرة.

"تحتاج إلى سهرة حمراء قانية الليلة". قال فهد غانم وهو يحاول أن يغري صاحبه. كان العواد يعرف أن فهد غانم يلقي حبائله مستخدما حيلة لسانه الناعم وسواد عينيه الجميل في

إغواء فتيات يصطحبنه إلى حفلاتهن أحيانا أو يدعونه إلى مطعم في فندق يأكل فيه ما لا يستطيع أن يدفع ثمنه. "الليلة سنحتفل بعيد ميلاد صديقة" "ولماذا تقول لي ذلك؟" "ربما حركت فيك صاحبتك رغبة لسهرة". يعرف فهد غانم إجابة العواد المحتملة ويعرف أنه لن يتغير بسهولة. "طلبت مني فتاة جميلة أن تراك". "لا تحاول معي، إسهر معها أنت". "تحتاج إلى صدمة" "صدمة تأخذ عمرك وتريحني منك". ولكن ذلك فعلا ما يرى فهد غانم أن صاحبه بحاجة إليه، الصدمة بهذه المثاليات التي يعيشها وحدها كفيلة بأن يفكر جديا بما هو عبث حقيقي، عبث تستحقه الحياة ويستحقها، عبث يتوهج كما يليق بعازف لا يعرف كيف يعيش.

لم يكن فهد غانم يكتم سرا عن العواد، ورغم التناقض الجلي بينهما يقتربان أكثر كصديقين. ربما كان يرى فيه قرينه الطيب الذي يسكنه ولم يتعرف عليه في دخيلته فتعرف إليه خارجها، وربما العواد رأى في صاحبه نقيضه الذي يتمنى أن يتعرف عليه عن بعد دون أن يلامسه أو يتماسَّ معه. ورغم الإغراءات المتكررة لعازف بإمكانه أن يشعل حفلات صديقه الصاخبة، كان العواد يرفض أن تتحول أوتاره إلى خيالات مريضة تشبع رغبة شاعر ماجن.

فاجأه ذات يوم وهما في الطريق إلى البيت "لن نركب

103 مرة أخرى".

"وماذا سنركب؟" "سأشتري سيارة" "أنت!" "نعم أنا" "هل استغفلت امرأة خرفة بحيلك التافهة" "لا لم أجدها بعد. اللواتي أعرفهن أستغفلهن بعشاء راق أو زجاجة خمر غير مغشوش أما سيارة فلا" "ومن أين ستشتري السيارة؟" "قبلوني في وظيفة" "كيف؟ ودراستك" "هذه آخر سنة لي وقبلني مدير الشركة للعمل في المختبر" "هذه قصة وراءها فتاة" "لا بل عجوز مسنة، أم صاحب الشركة". "مجنون أنت ولا نهاية لك إلا القتل". لا يعرف العواد إلى أين يسير القدر بصاحبه الأرعن، فهو لا يفرق بين جسد وجسد، كان يعتقد أن الشراب يعمي بصره ويفقده حاسة التفريق بين طعم الأجساد ورائحتها فتتشابه الأجساد الشابة الحية والخلايا التي تحتضر. ولكن الحقيقة أن صديقه يعرف التمييز جيدا بين رائحة وأخرى ويدرك أن لكل جسد نكهته الخاصة وطريقة تعامل مختلفة ويمتعه الجسد الأكثر خبرة من جسده وهي خبرة قد لا تتحقق لأجساد ينقصها الكثير لتصل لمتعتها القصوى. أجساد بريئة لم تحتكم بعد إلى الفعل الكامل لجسد الآخر ولم يتخلل خلاياها الآخر كاملا باقتداره وسطوته لإشعالها بماء الفتنة.

"أعذرك لأنك أعذر يا صديقي، أنت جسد وهمي غير حقيقي وينقصك الكثير لتختلط بك خلايا أنثوية أو تختلط

بخلايا أنثوية" "ما ينقصني هو أن تصبح آدميا لا حيوانا". "نحن أكثر حيوانية من الحيوان في هذا، هل تعلم أن الحيوان لا يمارس الجنس إلا في مواسم معينة" "ولماذا لا تتعلم من أخوتك" "يكفي أن تنتمي إليهم أنت".

في اللحظات التي يحتاج فيها العواد أن يبوح لفهد غانم بتفاصيل دقيقة عن حبه يتردد كثيرا في أنه لن يتفهم هذا الشعور وما يعرفه فهد غانم عن علاقته هو ما يعرفه عن صاحبه، شاب مخلص لكل شيء، لفكرته لصداقته، لفنه، وبالتأكيد لحبيبته.

كان ذلك هو عامهم الأخير في الكلية وسيغادران كل شيء في نهاية هذا الصيف، في نهاية هذا الصيف ستبدأ حياة جديدة للشابين للخروج من جحيم صغير إلى مستقبل تتبئ المعطيات الحسابية الطبيعية أنه أفضل كثيرا.

- 4 -

في ذلك اللقاء الأول الذي جمعهما ذكرت اسمها الأخير عن قصد ولكنه لم يترك شيئا في ذهنه ولم يفكر حتى بمعنى الاسم الذي قالته "رشا اليزاز".

الفصل الثاني

اليزّاز

- 1 -

لو كانت تعلم أنها ستنجب رجلا مثله لابتلعت أمواس حلاقة زوجها وقطعته في أحشائها. ولكنه ولد رجلا قويا صلبا أوقف العبث الطويل الذي تغاضى عنه والده.

كان والده في السابعة عشرة من عمره، حين التحق بقافلة من الأسر التي نزحت إلى الكويت من جنوب العراق هاربا من المهن العديدة التي فرضتها عليه وحشة الفقر ومن مهنة الجزاز التي ورثها وأتقنها كما فعل ذلك أسلافه من قبل وكرهها وقد أصبحت محل تندر أقرانه وهم يلقبونه ب. "حلاَّق الخرفان".

كانت القافلة تقل تموراً وسمناً حيوانياً طلبوا منه أن يرصها ويحكم رباطها ولم يكتف بذلك بل بقي مستقرا فوقها لتغرب عليه الشمس في مكان آخر بعيدا عن هنا. استقر به الحال في بيت عمال من جماعته يصحو معهم منذ الفجر ويتجه إلى سوق الخضرة على ساحل البحر يعمل بما يكفيه

من روبيات هندية لاستمرار حياته وهو يفكر كل يوم بغد أجمل من أمسه.

في أحد الأيام طلب تاجر من المدينة شابا قويا يساعده في عمله واقترح عليه كبير بيت العمال أن يختار اليزاز كما يلفظونها في الكويت ووافق الشاب صالح اليزاز وهو يود لو أنهم نسوا هذا اللقب الذي يحمله. "هل تجيد القراءة والكتابة؟" سأله الرجل وبسرعة قال "نعم". "حسنا تعال معي". في الطريق إلى محل التاجر قال له "إسمع يا بني ليس لي أولاد ستكون إبني إن كنت تستحق ذلك" "سترى مني كل خير يا عم". قال الشاب. "سنرى". وسار أمامه إلى محله في السوق.

أبدى الشاب إخلاصا غير مصطنع في خدمة سيده وكان ينهي عمله دون راحة منذ الصباح حتى مغيب الشمس يعود بعدها إلى بيت العمال. لم يكن يعرف صالح شيئا عن بيت التاجر سوى ما يسمعه من زبائن المكتب ولكنه يعرف أن الرجل ثري وكريم متدين خفيض الصوت لا ينهره ولا يزجره إذا أخطأ. "أريدك أن تذهب معي إلى البيت اليوم" قال له ذات مساء. "حاضر يا عم". كانت تلك هي المرة الأولى التي يرى فيها بيت الرجل. كان بيتا جميلا وأنيقا ملحقا به ديوان ضخم يجتمع فيه الرجال كل ليلة تقريبا إذا تواجد

التاجر فيه أو غاب عنه. "أعرف أن هذا ليس عملك ولكنني أحتاجك. لقد تركني صبي القهوة اليوم عائدا إلى أهله في البادية". لم يفكر التاجر أن تلك كانت غلطة كبيرة، لم يكن أحد في ذكائه أو أكثر منه ذكاء أو حتى أقل أن يعرف بأن تلك ستكون غلطة ولها تبعاتها التي لم يحسب حسابها. كانت بالنسبة له فعل طبيعي وتلقائي. لو كان المرء يدرك ما ستؤدي إليه أفعاله من مصائر كارثية لما ارتكبها أساسا.

أنهى اليزاز عمله كصبي قهوة محترف ولكنه لم يكن يقنع نفسه بأن ذلك هو طموحه الذي غادر بلدته من أجله. كان لا حل أمامه سوى أن تسير الأمور هكذا، لا وقت للتراجع. فليبق على الفرصة التي حققها حتى الآن، وأن يتعلم التجارة من رجل يعرف جيدا كيف يدير أسرارها ويعلمه، دون أن يقوم بدور المعلم، كيف يدير هذه الأسرار.

عاد اليزاز بعد أن انفض المجلس إلى سكن العمال، ولكن التاجر في الليلة التالية أشفق عليه من مشوار طويل، وقرر أن يمنحه الغرفة الملحقة في الديوان حيث يسكن الفتى البدوي. جمع اليزاز أغراض الفتى التي تركها في صندوق خشبي في الغرفة ونفض الفراش الذي اعتاد أن ينام عليه وتركه يتعرض للشمس في فناء الديوان ربما ليتخلص من أوهامه التي علقت به.

كان العمل يبدو ثقيلا على اليزاز بعد أن أضيفت إلى مهمته كمساعد في المكتب التجاري مهمة صبي القهوة، وهو ليس ثقلا جسديا فحسب وإنما ثقلا نفسيا. فهناك لا يتلقى الأمر إلا من سيده ويأمر كل من هم دونه ولكنه هنا يتلقى الأمر من كل الحاضرين. ينتهي يومه بعد صلاة العشاء مباشرة فيخر كالصريع في فراشه لا يوقظه إلا صوت المؤذن الأجش من منارة المسجد المطلة على فناء الديوان والمواجهة غرفته مباشرة. ينهض ليتوضأ وينتظر خروج التاجر ثم يعود بعد صلاة الفجر إلى فراشه كمن كان يمشي في منامه. يسقط ثانية حتى تشرق الشمس ليجد طعامه أمام باب الديوان تركته إحدى البنات كما يتوقع أو السيدة الكبيرة. لم يدقق كثيرا في ذلك فهو حتى هذه اللحظة لا علاقة تربطه بأهل الدار التي خلف الديوان. لا يعرف أشكال البنات ولا عمر السيدة الكبيرة ولا عدد الغرف في المنزل الكبير. يتناول إفطاره ثم يمضي إلى المكتب التجاري في وسط المدينة ولا يعود إلى البيت حتى صلاة المغرب. في فترة الظهيرة والتي يغادر فيها التاجر إلى البيت ينام في المكتب بعد أن يتناول الغداء مع العمال الذين يعملون في مخزن الوكالة التجارية.

في صبيحة يوم من أيام الصيف قال له التاجر "سأذهب إلى البصرة هذا الأسبوع، كان بودي أن أصطحبك معي لترى أهلك ولكنني أعتمد عليك في كل شيء كما ترى". "وأنا لا

أريد الذهاب، ليس قبل أن يأتي الوقت الذي أريد". "لم أفهم" قال التاجر مستغربا. "عودتي الآن تعني بأنني لم أحقق شيئا سوى هذا الثوب الجديد الذي ألبسه". فهم التاجر أن الفتى يعاني ماديا وأن المبلغ الذي يستلمه شهريا لا يفي بحاجته. لم يفكر بذلك من قبل وهو كأي صاحب مال لا يهتم بما يعانيه الذين لا يمتلكونه قدر اهتمامه بمن يمتلكونه أكثر منه. "لا عليك ستكون ظروفك أفضل". "لم أقل طمعا في شيء". قال كمن فهمه التاجر خطأ. "لا يهم سيأتي يوم تذهب لأهلك بما تريد أن تكون عليه لا تقلق... الحياة طويلة أمامك". كان ذلك هو كل ما يستطيع أن يقوله. لم يفكر حتى بزيادة مرتبه الشهري عن عمله كصبي قهوة في الديوان أو حتى إضافة راتب الفتى البدوي لراتبه. ربما كان يرى أنه أنجز معه صفقة صغيرة دون أن يتفقا عليها. "عليك أن تهتم بالمكتب كأنني موجود وأن يبقى الديوان مفتوحا ككل ليلة". "لا عليك سأكون عند حسن ظنك".

لم يكن يتوقع البزاز أن يرى إبنة التاجر الكبرى، رغم أنه ينام كل ليلة في غرفة قريبة من غرفتها ويفصله عنها جدار من اللبن المطلي بالملاط الإسمنتي والمصبوغ باللون الأبيض الباهت، إلا أنه في أحد المساءات لم ينم كعادته بعد انفضاض المجلس وخرج يتريض قليلا ليرى كتلة من السواد تخرج من البيت متجهة إلى البيوت المجاورة وتغيب في ظلمة

الأزقة. لم يكن يعلم أن المشهد يتكرر كل ليلة خميس ولم يحدد الجهة التي تريدها الفتاة، حدث نفسه أنها ربما فتاة زائرة خرجت من البيت. بين شكه الأكبر ويقينه المتهاوي قرر أن ينتظرها حتى تعود.

توسد فراشا على الدكة التي يفترشها التاجر أمام الديوان عادة عصرا وجلس ينتظر يتخطفه الإعياء ويوقظه الترقب، حين رآها تقترب. صرخ بها متظاهرا بأن شخصا ما يريد الاقتراب من البيت. "من؟" صرخ بكتلة السواد التي تقترب من الباب الكبير لبيت العائلة. "صالح" قالت بصوت خشن نوعا ما أثقله السهر كما أبعد في تخمينه. "هذه أنا. عواطف". ولم يتحدث معها أكثر. عاد إلى غرفته دون أن يدرك سبب خروجها حتى منتصف الليل. أكمل يومه التالي بشكل طبيعي وليس في نيته أن ينقل الموضوع لسيده. ولكنها في الليلة التالية لم تسمح لأختها الصغرى والتي تنقل عشاءه كل ليلة إلى باب الديوان. "سآخذه أنا". وتناولت طبق الخزف وأوانيه الصغيرة منها واتجهت إلى داخل الديوان حيث غرفته. "صالح". نادت بصوت أقل خشونه من ليلة البارحة. خرج إليها. كانت تقف أمامه. "عواطف". كان ينوي أن يتناول الطبق منها ويدخل غرفته. "أريد أن أتعشى معك". "لا. لا يصح هذا". "لا شيء في هذا" ودخلت غرفته وراءه دون أن تنتظر موافقته. جلست إلى جواره. يأكل على استحياء. "ما

بك؟" "لاشيء أنا قلق أن يأتي أحد إلى هنا" "لن يأتي أحد إلى هنا". ألقت عباءتها عن كتفيها. ونثرت شعرها على جسدها. "أين كنت ليلة أمس؟" وضحكت. "جئت لأخبرك. كنت في حفل سامري" ولم يقتنع. "هل تحب السامري؟" قالت وهي تبتسم بغنج. هز رأسه موافقا وهو لا يدري إن كان يحب السامري أم لا. ولكن الذي فاجأه أكثر جرأتها "سأرقص لك لو طلبت مني ذلك". وضحك "لا أجيد الغناء". سهرت معه حتى نال منه النوم. يود لو جلست أكثر. "سأذهب الآن. أراك في الليلة القادمة". وخرجت. تكررت زياراتها لغرفة الشاب الذي بات يرتب وقته بطريقة جديدة. ينام عميقا في فترة الظهيرة في المكتب التجاري ويعود إلى البيت بسرعة يهتم بأمور الديوان الذي لم يعد حضوره كما كان أثناء تواجد التاجر فيه. ينسحب الضيوف بسرعة قبل صلاة العشاء التي لم يعد يذهب إليها اليزاز. يستحم في حمام الديوان ويتعطر بدهن العود الذي جلبه من محل العود الملاصق لوكالته. يشعل البخور الذي يستعمله عادة لتطييب الديوان في غرفته أولا قبل أن ينقل المجمرة إلى الديوان. في تلك الليلة كانت ترتدي ثياب رقصة السامري. غنت له ورقصت ثم تدثرت بفراشه ونامت حتى آذان الفجر لتنسل إلى غرفتها ويذهب هو إلى الصلاة.

توقع اليزاز أن كل شيء سيتوقف حين يعود التاجر إلى البيت قادما من رحلة البصرة، ولكنه لم يدرك كما يبدو جرأة

هذه الفتاة التي كررت زياراتها أكثر من مرة دون أن ينتبه إليها أحد من الأسرة التي تغط في نوم بريء.

- 2 -

حين اقترب التاجر من الغرفة التي ينام فيها اليزاز ليوقظه للصلاة التي لم يؤذن لها المؤذن لسبب ما، سمع صوت ابنته تتحدث إليه وهي تتغنج وتضحك. لم يكن يحتاج إلى أن يراها في حضنه حتى يتأكد أنها في حضنه الآن. حاول أن يقتحم الغرفة عليهما لكنه تردد. جلس قليلا يضغط على أسنانه كمن يبدد غضبه ويستدعي حكمة طاشت كضحكتها الطائشة. نهض مرة أخرى وقد احمر وجهه وارتفع صوت الدماء الحانقة في شرايينه. عاد إلى غرفته وأخرج مسدسا كان قد اشتراه من رجل من الهنود عمل في الكتيبة العسكرية الإنجليزية التي خدم بها في الكويت دون رغبة حقيقية في اقتناء سلاح لم يفكر في استخدامه قط. يحمله معه في رحلاته التجارية لجنوب العراق درءًا لقطاع الطرق. وربما كان ذلك مهيئًا للحظة كهذه تم ترتيبها في زاوية ما من الغيب. عاد مرة أخرى وقبل أن يصل إلى الغرفة "ما الذي سأجنيه سوى فضيحتي، بإمكاني أن أقتلها دون أن ألوث سمعتي". اقترب من الباب وكمن يمنحها فرصة لتطمئن ولا

تخرج مذعورة بوجهه. نادى بصوت عالٍ "صالح إلحق بـي إلى الصلاة". كان يتوقع صالح الذي جحظت عيناه أنها سترتبك ولكنها بقيت ممدة على السرير. "إذهب أنت وسأخرج أنا بعد قليل". بسرعة المصدوم يتدرع دشداشته ويلتاث غترته البيضاء كيفما اتفق. "ألست خائفة؟" "بلى خائفة. ألا ترى أنـي خائفة". وضحكت بما يشبه الاستهزاء من رعب يباغته. "إذهب الآن". وعادت تتمدد وهي تتأوه على السرير القطني.

كان صوت الإمام يعلن صلاة الفجر بدلا من المؤذن وقبل أن ينتهي عادت إلى غرفتها وكأنها كانت نائمة هنا منذ مغيب الشمس. رأى التاجر اليزاز الذي لم يبد عليه أي إرتباك، توقع التاجر أن ما حدث الليلة يحدث كل ليلة وأن ارتباكا سابقا قد بدا على وجه اليزاز في المرة الأولى لم ينتبه إليه التاجر ولا يستطيع تحديد زمنه بدقة. "هل كنت مغفلا؟ بالتأكيد كنت مغفلا ولا يهم منذ متى وهو يستغفلني". كان التاجر يقف أمام مدخل المسجد. طلب من اليزاز أن يسبقه إلى الصلاة وتأخر حتى اكتمل الصف الأول في حين تشكل الصف الثاني ابتداء منه مبتعدا عن اليزاز.

منحته الصلاة التي انتهت هدنة كبيرة إختار فيها ما أملاه عليه عقله. بقي جاثيا على ركبتيه وحيدا في المسجد. ما زالت كل الخيوط بين يديه. حين نهض أحس بثقل

المسدس في جيبه وكأن أحدهم قد دسّه في جيبه للتو. "كان يمكن أن أنهي كل شيء في لحظة جنون". الرصاصة التي سيكتمها في مشط المسدس كفيلة بضجيج فضيحة ستبقى طوال عمره لو انطلقت في ثانية مجنونة. اتَّجه إلى الإمام الذي مازال يصلي ركعات إضافية كعادته كل فجر. وعاد ليجلس إلى جواره. حين أنهى صلاته التفت الإمام إليه. "كل خير يا شيخ" رادا على سؤال الإمام. "أريدك اليوم في المجلس". "الآن" "إذا لم تكن مرتبطا". ونهض يسبقه إلى الديوان ليجد اليزاز يقعي ككلب أليف خلف دلة القهوة وإبريق الشاي بالحليب الذي يحبه التاجر في الصباح. جلس دون أن يحادثه. لم ير اليزاز في عينيه حنقا استطاع أن يخفيه ببراعة الرجل الذي قرر أن ينهي الأمر بحيلة لا بد منها.

دخل الإمام وطلب التاجر من اليزاز أن يطرق باب العائلة ليعدوا الإفطار. لم يكن ليطلب ذلك منه من قبل. ولكنه نهض مسرعا ليتابع هذا الحوار بين الإمام والتاجر. "صلاة المغرب أو صلاة الفجر لا فرق. المهم أن يتم الأمر قبل سفري الطويل". لا يعرف اليزاز إن كان التاجر ينوي سفرا آخر. "من هو صاحب الحظ لا أرى أحدا هنا غيرنا". نظر التاجر للمرة الأولى في عيني اليزاز الذي توقع أن هناك أمرا يعنيه لا يعرفه حتى الآن "سنرتب كل شيء".

بدا كل شيء طبيعيا. اقتنع الحضور القليل ممن اختارهم التاجر ليشهدوا على تزويجه ابنته الكبرى لغلامه صالح اليزاز. "إنه يحتاج أن يدخل بيتي في غيابي وأنا ليس لي ولد من الذكور، وكما تعرفونه وأعرفه رجلا أمينا طيبا". قال ذلك بعينين لا تقعان على جهة محددة. لم يتدخل أحد ولم يقتنع أي من الحاضرين بما يقول. ولكن المال حين يتحدث يكون مقنعا ويطفئ أصوات الشك.

الوحيد الذي لم يتدخل في الحوار رفضا أو قبولا هو اليزاز نفسه. لم يكن في ذهنه تخطيطا بهذه المتعة. ولم يفكر مجرد التفكير بأن تصل الأمور إلى هذه الفتنة المباغتة. أما أن يتخيل أن ما يفعله التاجر هو جزاء لفعلته الوقحة في غرفته، فذلك أمر لم يدركه إلا ليلة زفافه. ما أشغل تفكيره إلى جانب سعادته هو أن يكون رجل البيت الثاني في حضور التاجر وسيد البيت في غيابه. وأبعد من ذلك أن يكون الوريث الوحيد لرجل بلا وريث حقيقي.

ما يقلقه الآن هو سلوك زوجته. فقبل أن توافق على الزواج منه كان الخيار الثاني أمامها هو أن تدفع حياتها ثمنا لما فعلته. "أخبريها أني أعرف تماما أين كانت تمضي ليلها" كان يحدث أمها. وليس أمامها إلا أن تبقى في حضنه. خرجت إليه بكامل وقاحتها "أتزوجه. ليس هناك من هو

أفضل منه زوجا لي". أنهى الرجل حديثه دون أن يبدأه معها وعاد يوثق زواجها نيابة عنها. في ليلة زفافها أخبرت زوجها بأن عليه أن يتقبل سهرها كل ليلة خميس ويمكنه أن يأتي معها إذا أراد. لم يحبذ تلك الفكرة ولم يجرؤ على منعها.

أقام اليزاز في جانب من البيت الكبير ضم غرفة نوم وحمام وتم فصله بحائط يبدو مؤقتا عن بقية البيت الكبير، واشترك مع أهل البيت في المطبخ الكبير وغرفة المؤونة، كان مقيما مطمئنا يأكل ويشرب وينام تحت خيمة التاجر كمواطني الدول الديكتاتورية لا تنقصه سوى الكرامة.

حاول أن يصارح والدها بتصرفاتها ورعونتها وخروجها دون إذنه ولكنه لم يجرؤ على تجاوز الخطوط الواضحة التي رسمها له التاجر منذ كان عاملا لديه حتى أصبح زوجا لابنته، وكأن الأمر لا يتعدى ترقية صغيرة في مهنته التي أجادها، وهي على أية حال تبدو ترقية صغيرة لا تسمح له بحديث كهذا عن سلوك ابنته.

"أنت الآن زوجتي، لا يمكن أن تخرجي إلى هذه الحفلات التي لا أعرف عنها شيئا". "لو كان لي أن أخطئ لأخطأت معك". وينتهي الحديث بسرعة. واعتاد الأمر بسرعة أيضا. يمضي يومه في المكتب يعمل طوال النهار ولا يعود

في فترة الغداء. لم يعد صبيا للقهوة لكنه لا يحضر المجلس غالبا. يعود إلى بيته الصغير تعبا فينام قبل أن تنهي مشاويرها وتعود دون أن تحس بالحاجة إلى إيقاظه. وفي اللحظات التي تتحرك بها رغبتها لا تخرج من البيت. ترتدي لباسها الحريري وترقص لنفسها، تعطر فراشها بالبخور الكمبودي ودهن العود وتنتظره وقد طلبت منه ألا يرهق نفسه في العمل اليوم.

في تلك الليلة اشتعل ماء الحياة في جسدها وعرفت أنها ستصبح أما لمولود يتكور في رحمها. ويثقل حركتها ويحد من عشقها لتفاصيل جسدها. وكأن الأمور تسير دائما في صالح اليزاز طلب منه التاجر أن ينتقل بزوجته إلى بيت مجاور من بيوته انتهى من إعداده لهما. "سيكون هذا من حصتك في الإرث". قال لها ولاحظت أنه لم يبتسم في وجهها منذ يوم زواجها. لم ترد. كان يتعامل معها كشيء مؤلم أو وصمة عار أقنع نفسه بأن غيره حملها عنه ولم تقتنع. لم يتغير إحساسه هذا حتى ولدت حفيده الأول، أسماه على اسمه، دو أن يستشير أيا من والديه. التصق به كلهفة الذكر للنسل الذكر ونقله في السنة الأولى إلى بيته ولم يجد من يمانعه.

كانت الأم تمضي معظم وقتها في بيت والدها وتسهر كل نهاية أسبوع مع صديقاتها في حفلات سامري تحييها فرق

شعبية صغيرة في بيوت مختلفة في الحي. ولم ير اليزاز أملا في أن تتغير زوجته، يعود أحيانا ويسمع صخب النسوة في منزله ولا يجرؤ على الدخول "إذهب إلى الديوان". ويغادر بصمت مستسلما لأمرها دون أن يعرف متى عليه أن يعود. "يبدو أن الأمور التي لم تستقم في بداياتها لا تسقيم أبدا". يحدث نفسه وهو يجر قدميه نحو الديوان.

المرة الأولى التي ضحك والدها بوجهها وكأنه راض تماما عن أدائها حين أنجبت الابن الثاني، وربما هو أيضا معجب بأداء اليزاز مقارنة به. في ذلك العام أنهى بناء فيلا جديدة على البحر واشترى سيارة خاصة للحفيدين يقودها شخص من اليمن واستقدم مربية خاصة من مصر تهتم بشؤونهما وتدريسهما وكان الابنان يحملان اسم أب في أوراقهما ويعيشان في كنف جد هو الأب الحقيقي لهما. ولم يتغير في حياة اليزاز سوى مكتب جديد في السوق الجديدة ومعاملة أفضل من التاجر يناديه أمام الناس بكنية محببة إليه "أبو عبدالرحمن"، وثبات في علاقته وزوجته التي شهدت تطور المدينة وثورتها النفطية ليحل السفر إلى دول العالم العربي والأجنبي بديلا لسهراتها المحلية.

"أريد ابنة" قالت له ذات ليلة اجتمعا بها تحت فراش واحد. "السماء تهب ما تريد" ثم يكمل "الولد أفضل من البنت"

كانت تدرك ما يقصد ولكنها تعرف أنها لم تكن سيئة كما يظن. هي امرأة تحب البهجة وتعرف كيف تعيش الحياة بالمال الذي يفنون حياتهم في جمعه. لا تنكر أنها لا تعشقه ولا تتفاعل روحيا أو فكريا معه ولكنه زوجها، زوجها فحسب. ولم يشعر هو بأبوة سرقت منه وهو يرى ابنيه يشبّان بعيدا عنه ويزورانه مرة في الأسبوع كأحد الأقرباء.

كانت في حفل نسوي لفرقة من المطربات البصريات والتي تنتقل من حفل زواج إلى آخر ومن ختان طفل إلى حفلة عابرة لا مناسبة لها، حين قالت لها امرأة كبيرة "هذه بنت" وهي تشير إلى حملها الثالث. "كيف عرفت؟" "البنت خفيفة في حملها لا ترفع بطنك إلى ذقنك". ثم ضحكت المرأة وهي تقول "أنجبت ما يكفي منهن". وكانت فعلا بنت أسمتها صديقتها التي تلتصق بها منذ صباها "رشا".

"لا لن يوافق والدي".

"سيوافق والدها"

ولم يكن أيٌّ منهما يهتم باسمها.

- 3 -

في السنة التي شهدت ميلاد رشا، وقبل أن يبلغ عبدالرحمن صالح اليزاز الثامنة عشرة، طلب جده من والده أن يتقدم إلى لجنة الجنسية والتي شُكّلت لحصر المواطنين وتصنيفهم حسب تاريخ تواجدهم في البلاد، ليحمل كل منهم صفة يفاخر بها الآخرين، صفة تفرق بينهم كمؤسسين ومهاجرين. حمل اليزاز ورقة لرئيس اللجنة ممهورة بختم من والد زوجته ولم يتردد الرئيس في منحه الجنسية وفقا للمادة الأولى في قانون الجنسية معتبرا إياه أحد مؤسسي الدولة ولم يعترض أعضاء اللجنة الذين ابتسموا في وجهه وحمّلوه تحياتهم إلى صهره. خرج اليزاز الذي لم يكن مكترثا لكل هذا فلم يشعر في لحظة ما أن حياته تطورت كما ينبغي. وربما كان محقا فلم يفعل حموه ذلك حبا له وإنما حبا بابنيه، فأحفاد عبدالرحمن يستحقون أن يعيشوا كأبناء التجار الأقرب لرجال السلطة والسياسة. "أنتم أبنائي أنا". ويقتنعون بذلك ليعوضوا تاريخ والدهم وحكاية زواجه بأمهم، الحكاية التي لا يرغبون بذكر تفاصيلها. يعاملهم الجد كبدلاء لأبناء ذكور لم تمنحهم

له السماء وأبعدهم بسلطة تفوق سلطة والدهم عن ارتباطهم بوالدهم البيولوجي.

حاول الجد أن يقنع حفيده عبدالرحمن ليعدل عن رأيه في دخول كلية الشرطة ولكنه في قرارة نفسه كان يرى في ذلك سطوة أخرى إلى جانب سطوة المال. وأعجبه أن يرى فيه رجلا صلبا في بداية شبابه، رجلا يشبهه بحسب ادعائه. "كنت أريدك أن تملأ مكانا سأتركه للا أحد". قال له في اجتماع العائلة الكبيرة كل يوم خميس في ديوانه على الغداء. نظر اليزاز الأب إلى ابنه الذي لم يعرفه منذ ولادته. "استمع لكلام جدك". "سأترك ذلك لعبدالله". قال عبدالرحمن. ولم ير الشقيق بأسا في ذلك رغم أن الوقت مبكرٌ للتفكير في ما سيكون عليه مستقبله. "عليكما أن تفهما أن المال هو سلطتكما الوحيدة، منصبك الذي تطمح إليه لن يدوم طويلا، سيأتي يوم ما تعود فيه إلى مالك، إلى سلطتك الوحيدة".

حين عاد عبدالرحمن اليزاز بعد سنتين من كليته يحمل نجمته الفضية على كتفه كانت أمه قادمة من سفرها للاحتفال به، نثرت وردا وزغردت واحتضنته طويلا لكنها لم تشعر بأنه ابنها. كان يابسا كجذع شجرة ميتة. احتضن جده وشقيقه وحمل شقيقته إلى صدره، قبّل خالاته اللواتي حضرن دون أزواجهن. وكان جافا دون سبب وهو يرى والده يقترب منه

ويحتضنه بمبادرة من الأخير.

"سأذهب مع والديّ" قال لجده. "حسنا، سنلتقي غدا. أريدك وعبدالله في أمر هام". ركب الجد سيارته مع سائقه وغادر.

في البيت ألقى الضابط الشاب محاضرته الأولى على والديه، "لا يمكن أن أسمح بهذا العبث مرة أخرى" وتوجه إلى أمه تحديدا "لن تسافري دون إذني وبمرافقة رجل معك" وتوجه إلى والده "لقد تنازلت كثيرا ولم يعد لديك ما تتنازل عنه، لن أسمح بهذا العبث مرة أخرى، لا حفلات في بيتي دون مناسبة عامة وعليك أن تفتش غرفتك جيدا". لم يدرك الأب ما يقصده الإبن ولا ما وصل إليه في غيبة السنتين. "هل ستفتح مخفرا في بيتي؟" حين لم يرد الأب ردت والدته. "سأفعل". وقبل أن يخرج إلى بيت جده "قبل أن أخرج جهزي غرفتي سأنتقل غدا إليها". ما تركه في خروجه نظرات صامتة تبادلتها العائلة فيما بينها كانت كافية بأن يفهم الجميع أن الحياة القادمة معه ستختلف عما كانت عليه حياتهم السابقة في غيابه. لكن الأب لم يكن مكترثا بما ستؤول إليه الأمور، لن يكون الأمر أسوأ مما كان عليه بأية حال.

"لقد عدت سريعا" قال له الجد وهو يجلس في ديوانه

يفكر بوحدته. "هل أنت حزين يا جدي؟" "لا أعلم يا بني منذ فقدت جدتك وأنا وحيد أنتظر عودتك نهاية كل أسبوع من الكلية" "لا عليك، هل تريد أن تتزوج؟" "لو كان لي من العمر أن أنجب ابنا مثلك لتزوجت، يكفيني أنت". قبّل رأس جده وجلس إلى جانبه. "ستأكل معي". "حسنا".

- 4 -

"بماذا كنت تريدنا؟"

سأل الشابان جدهما الذي كان ساهما كمن يعد أيامه المتبقية فتنقص حينا وتزيد حينا. جلس الابنان على يمينه وشماله. "كتبت لكما وصية بأن ترثا كأبناء لي" لم يعلقا على شيء. وأكمل "لا يحق لأحد أن يبيع أي مؤسسة أو نصيب في شركة مهما كانت الظروف وسيبقى اسمي هو عنوان كل أملاكي". اكتفيا بهز رأسيهما ولكن عبدالرحمن سأله أن يجد له منصبا في الوزارة. ابتسم الجد، أدرك أن الرجل الذي أمامه لا يفكر إلا في مستقبل يبنيه بنفسه، أن يساعده نعم أما أن يصنعه له فلا. "إبحث عن مكان مناسب واعتبره لك".

الفصل الثالث

رائحة

- 1 -

"لمن كل هذه الهدايا؟" سألت رشا أمها وهي تخرج من أحد متاجر لندن برفقة صديقتها التي ترافقها عادة في سفرها وإقامتها. ولم ترد. كانت ترى قهقهة صديقتها وهي تغمزها أن تصمت. عدن إلى الشقة على شارع بيكر كانت الفتاة تسير إلى جوار صديقة والدتها تتخلف عنها قليلا أحيانا وتتبعها حين تتخلف أكثر مما ينبغي "مالذي يؤخرك؟ وسعي خطوتك" تقول أمها وهي تلتفت نحوها، لكن الفتاة أيضا لا ترد. تسرع أكثر وتلحق بهما أقرب إلى صديقة والدتها والتي تتضاحك مع والدتها دون سبب تفهمه الفتاة. دخلت الأم أولا وكان زوجها يجلس وحيدا يدخن وقد أعد قهوة عربية. جلست الفتاة إلى جواره بينما دخلت أمها وصديقتها غرفة جانبية يضعان أكياسهما التي لم تدرك الابنة ما بهما ولم يكترث الأب. وسمعتهما تضحكان بصوت عال وكأنها سمعت والدها يتأفف. "اشترت أمي هدايا كثيرة" قالت له الفتاة دون أن تقصد أن تشي بسوء. كان الأمر يبدو عاديا بالنسبة له ولم يعلق بشيء. صب فنجانا صغيرا شربه دفعة واحدة ثم قلبه على

وجهه فوق الصينية النحاس التي أمامه. أطفأ سيجارته في المنفضة قبل أن ينتهي منها ونهض إلى غرفته. جلست الفتاة قليلا في الصالة لا شيء يخاتل هذا الصمت المقلق سوى ضحكات الأم وصديقتها في الغرفة الجانبية. لحقت بوالدها إلى غرفته. وقفت بالباب. كان ممدداً على وجهه "بابا. أريد أن أعود إلى الكويت". قالت. لم يسمعها. ربما سمعها ولم يهتم بما قالت. اقتربت منه مسّدت يده بيدها وقبّلت رأسه. "أريد أن أعود". رفع رأسه ثم استلقى على ظهره. "قلت لأمك؟" "قلت" "وماذا قالت؟" "رفضت. تقول حين يأذن أخي". "إذن حين يأذن أخوك". "لماذا؟ هل نحن سجناء عنده؟ يستطيع أن يبقى وحده مع زوجته وابنته" "رفع والدها رأسه إليها ولم تعرف إن كانت عيناه تلمعان بريقا أم دمعا؟ "ألم تقولي أن أمك اشترت هدايا كثيرة؟" نهض منتصبا. تناول يدها ثم أخذها من يدها إلى الصالة. "إجلسي" دخل المطبخ وأحضر لها علبة عصير و"آيسكريم". "سنذهب غدا إلى الهايدبارك". لم ترد. لم يعد شيء يغريها هناك. نفس الوجوه المتناحرة، نفس الأشكال السائحة، نفس زرقة الماء وخضرة الأشجار ونفس البط الأبيض البطيء رتيب الحركة والبليد.

خرجت أمها إلى الصالة تاركة صديقتها في الغرفة، انحنت عليها وقبلتها وكانت رائحتها نفاذة فأشاحت الفتاة برأسها مبتعدة عن أنفاسها. "خذها إلى بيت عبدالرحمن" ولم

يرد الأب. "سيأتي عبدالرحمن إلى هنا" قالت الفتاة. "من قال لك؟". سألت أمها وهي تضع يديها على حافة طاولة أمامها. "هو قال لي". عادت أمها إلى صديقتها وهي تتمايل قليلا في مشيها دون أن تثير الأب الذي لا يتابع اهتزاز جسدها. مرّ اليوم ولم يأت عبدالرحمن كما وعد شقيقته. غفت على الكنبة في الصالة وحملها والدها إلى غرفتها. وقبل أن يغطيها قالت بصوت خفيض "أريد أن أعود إلى الكويت". ابتسم وخرج.

في الصباح رأت أمها وحيدة تجلس إلى طاولة الطعام في المطبخ. "تعالي" اقتربت الفتاة وقبلتها الأم. وكانت رائحتها كرائحة النعناع. "إذهبي واغتسلي ونظفي أسنانك" حين عادت كانت أعدت لها كورن فليكس وحليب وسلطة فواكه. خرج الأب من غرفة نومه مرتديا منامة مقلمة ويلف رأسه بشماغ أحمر كمن أصيب بحمى ليلة البارحة. "أنت مريض بابا" نظر إلى أمها بما يشبه العتب ثم اتجه إلى الثلاجة. تناول علبة حليب كارنيشن. مزج الحليب بالشاي. جلس قبالة الأم إلى جانب الفتاة التي عادت لتجلس في مكانها المعتاد إلى الطاولة. لم يتحدثا أمامها في شيء. أعادت السؤال الذي لم يجب عليه "بابا هل أنت مريض؟". هز رأسه نافيا. ونهضت قبل أن تنهي طعامها. "أكملي أكلك" قالت أمها "شبعت. سأتابع التلفزيون". خرجت إلى الصالة تاركة الصمت كما هو بينهما لم تخترقه كلمة واحدة. جلست تقرأ رواية

أجنبية وتتابع برنامج مسابقات حين طُرق الباب وذهب الأب ليفتحه. ثم سمعته يقول للرجل الذي يقف إلى الباب "حسنا انتظرنا قليلا". عاد إلى المطبخ ليبلغ الأم والفتاة أن ابنه أرسل السائق لنذهب إلى بيته. وأسرعت الفتاة لتبديل ملابسها. كانت تحب شقيقها رغم قسوته أحيانا وتجهمه دائما في وجه أمها وتجاهله لوجود أبيها لكنه كان يحبها. يقول إنها تربيته هو منذ كانت طفلة. يختار لها كتبها وأفلامها التي تشاهدها وأحيانا يشتري لها ملابسها. أصبحت الآن تعرف كيف يريد أن يراها. لبست جينزا أزرق وقميصا فضفاضا طويلا وحذاء رياضيا وربطت حول عنقها شالا بني اللون لكن أمها ترفض أن تضع على رأسها ما يخفي شعرها. حاول أكثر من مرة أن يتدخل في ملابسها ولكنها تصرخ في وجهه "أنا أنجبتك ولم تنجبني أنت" ورغم أنه يفشل كثيرا معها إلا أنه استطاع أن يحد من حركتها ولم يستطع أن يوقفها.

ركبت الأسرة السيارة. الأب إلى جوار السائق والأم والفتاة في الخلف. كانت الأم طوال الطريق تتأمل تفاصيل وجهها في مرآة مثبتة في حقيبة يدها، والفتاة تنقّل عينيها من روايتها إلى وجه أمها في مرآة الحقيبة ومن وجه أمها في الطبيعة إلى روايتها ثانية. كان السائق يتكلم كأهل بيروت. لم يكن هو السائق الذي اعتادت الأسرة أن تراه في بيت ابنها. "نعم هو في إجازة حاليا" قال السائق مخاطبا الأب وهو ينظر

في المرآة ليلتقي عيني الفتاة. "ما اسمك أمورة" قال يخاطبها "رشا" "حلو اسمك" وصمتوا جميعا حتى وصلت السيارة بيت عبدالرحمن. دخلت الأم أولا ثم تبعها الأب وتلته الابنة. كان عبدالرحمن في الصالة الكبيرة ومعه رجل بريطاني كبير في السن. تركتهما أمه متجهة إلى الداخل وبقي والده يجلس في طرف الصالة دون أن ينتبه إليه عبدالرحمن أو ضيفه الأجنبي. حاولت الفتاة أن تقطع الصالة متجهة إلى حيث دلفت أمها، لكن عبدالرحمن نادى عليها "تعالي" اقتربت منه وقبلته. "هذه أختي الحبيبة" قال للرجل البريطاني. "ما اسمك" سألها الرجل قالت "رشا". كان الرجل يضع رجلا على رجل وقد ارتفع صدره إلى الأعلى كرئيس دولة "جميل" وأكمل "راشيل، يبدو اسما أجنبيا" وضحك عبدالرحمن "لا" وأنهى ضحكته التي لم يشاركه فيها أحد "رشا وليس راشيل". ابتسم البريطاني بخجل الجاهل. ثم أكمل بأسف "أعذرني يا صديقي إن كنت أسأت" ورد الأخ بثقة "أبدا. لم تخطئ أبدا يا صديقي". كان حديثا ثقيلا لم تحبه الفتاة وتضايقت حين سألها البريطاني ثانية "كم عمرك؟" "ستذهب للصف التاسع هذا العام" قال عبدالرحمن نيابة عنها. "وتتحدثين الانجليزية بطلاقة" قال البريطاني. "تدرس في مدرسة إنجليزية في الكويت وتطور لغتها كل صيف هنا". قال الأخ قبل أن يمنحها الفرصة لتتكلم.

أحست رشا أن أخاها يستطيع أن يدير الحوار في غيابها وتركتهما إلى حيث تجلس أمها وهناء زوجة أخيها. وحين قبلت هناء وأرادت أن تجلس قالت لها هناء بعد أن رحبت بها "إذهبي إلى غرفة ميّ. أريد خالتي بموضوع خاص". وخرجت إلى غرفة ميّ التي كانت تتابع فيلم رسوم متحركة. أخرجت الرواية من حقيبتها وجلست تقرأ. ثم خرجت ثانية لتجد والدها يجلس وحيدا في الشرفة المطلة على الحديقة العامة.

خرج الرجل البريطاني وودعه أخوها حتى الباب. "رشا" جاء صوته صارما كعادته. ركضت إليه. "هل سنخرج؟" "طبعا" قولي لهم أن يجهزوا. ودخل غرفة مكتبه. رفض الأب أن يذهب معهم" سأذهب لأتريض في الحديقة" لا تدري لماذا كان يتحاشى دائما عيون عبدالرحمن كما يتحاشى عيون والدتها.

- 2 -

في نهاية صيف آخر عادت الأسرة إلى الكويت، أنهى عبدالرحمن سنوات الكلية وأضاف نجمة إلى التاج الذي على كتفه. تم تعيينه في منصب مهم. ولم تتغير معاملته لأفراد أسرته، لم تتغير معاملته لرشا الحبيبة التي يحاول جهده كله الحفاظ عليها كرمز الأسرة وشرفها وسمعتها إلا حين بلغت السادسة عشرة. في ذلك العام بدأت حياتها تتغير، تحولت من إنسانة إلى شيء قابل للكسر في أي لحظة مجنونة، شيء ثمين بريء يجب ألا يخدش براءته أحد، تذهب إلى المدرسة بسيارة شرطة مدنية يرافقها عسكري بلباس مدنية وينتظرها في نهاية اليوم المدرسي أمام الباب ليعيدها إلى البيت.

وفي البيت ينتظرها طقس مشابه، يدير عبدالرحمن حركتها من بيته الملاصق لبيت والديه، لا يسمح لها باستقبال زميلة أو زيارة زميلة ولا يجد من يقف في وجهه ولكنه لم يتوقف عن حبها ربما بما يفوق حبه لابنته. حاولت أكثر من مرة أن تحدث والدها أو أخاها عبدالله لكن الجميع يتهربون

من مواجهة هذه البزة العسكرية التي يعيش بداخلها عبدالرحمن يومه وليله.

في نهاية الأسبوع الذي سبق اليوم الأول لها في الجامعة طرق عبدالرحمن باب غرفتها، كان شخصا آخر لم تره من قبل. يتمشى بثقل وقد وضع يده اليمنى على جراب المسدس وركز نظره عميقا في عينيها كطائر يخاتل فريسته ويسمّرها مكانها قبل أن ينقض عليها. وقفت رشا مذهولة من حركته الوئيدة ونظرة الموت من عينيه إلى عينيها. حاولت أن تقرأ ملامحه جيدا ولكن الرجل القادم نحوها ليس سوى شبح الموت يلبس بزة شقيقها العسكرية هذا الصباح. حين اقترب منها حاولت أن تستر وجهها عن غضب سيداهمها، كان ذلك الفعل الوحيد الممكن للعاجز، أنزل يديها إلى جنبيها وأبقى وجهه العريض يسد مدى رؤيتها الممكنة للأشياء. فتح جراب المسدس ولم يرفع بصره عنها. وضع يده اليمنى على السلاح وما زالت عيناه في عينيها. "خير عبدالرحمن" ارتجف صوتها وكادت أن تتبول على نفسها من الرعب. "عبدالرحمن..." وأجهشت بالبكاء وكادت تسقط معلنة عجزها الكامل. كانت تفكر بصراخها لكنها لم تجد ما يكفي من الهواء ليحمله أبعد من باب غرفتها. هي بالكاد تجد ما يكفي من الهواء لتتنفس. لم يتكلم. سحب المسدس ووضع فوهته في منتصف جبهتها، تجمد دمها، توقعت للحظة الأخيرة أنه سيضربها على أبعد

تقدير، رغم أنها لا تعرف سببا يحمله على ذلك. لكن عينيه تحملان موتا ليس لأحد أن يخطئه. "عبدالرحمن" قالت بصوت محشرج. جمع شعرها في يده الأخرى "إسمعي جيدا في هذا المسدس تسع طلقات، واحدة فقط كفيلة بقتلك" "ماذا فعلت عبدالرحمن؟" "حتى الآن لم تفعلي شيئا وحتى الآن لم أفعل شيئا ولكن إذا فعلت شيئا سأفعل". "وماذا سأفعل؟" "إذا أراد شخص أن يقترب منك فليأت مباشرة إلي، لن أمانع إذا كان مناسبا" "أنا لا أهتم بأحد" "أعرف. هذا مجرد تحذير. لا تجربي أن تعبثي بشرفي "رفع المسدس وأعاده إلى جرابه" انتبهي جيدا. ولا أريد لأحد أن يعرف ما حدث بيننا الآن. أي أحد" "طيب، كما تريد" خرج وسقطت على سريرها. "هل كان هذا أخي حقا؟". قالت وهي تستعيد تنفسها الطبيعي كمن يستعيد حياته.

بدت أيامها مرسومة بدقة متناهية كأيام شقيقها. تخرج صباحا مصحوبة بسيارة مدنية وسائقها الشرطي بلباسه المدني وروحه العسكرية الجافة. لا تتذكر أنه قال لها "صباح الخير". ولولا أنه كان يرد على الجهاز اللاسلكي المثبت في السيارة لظننت أن شقيقها اختار لها عسكريا لا يتحدث. ثم ضحكت بداخلها "هل يقبلون بهم في المؤسسة؟". كانت تلقي إليه اسم المكان الذي تريد أن تقصده ويحرك رأسه فقط. وتستغل هذا الصمت المتبادل بينهما بترتيب بعض أوراقها وتفكر جديا بأن

ينتهي هذا السجن بشكل ما. "وفاة أخي!" تقول ثم تتراجع "سفره بعيدا" ولكن حتى سفره سيبقى عناصر الرقابة من حولها. أن تنتهي سلطته العسكرية كان ذلك هو الحل الذي يمكن أن تتقبله دون أن تفكر بقسوة تجاه حالة حب مازالت تتذكرها وربما أبوة بديلة لأبوة لم تعشها مع صالح اليزاز والدها الحاضر الغائب.

كانت تتمنى أن تمتلك بعض القوة التي تتمتع بها أمها وجبروتها ووقوفها في وجه عبدالرحمن. لكن مقومات الأم هنا تختلف كليا عن الابنة، فأمها ليست ابنة صالح اليزاز وإنما ابنة الرجل الذي صنع صالح اليزاز وهي ليست أخت عبدالرحمن رغم أنها أيضا رمز شرفه الذي يحاول جاهدا أن يحميه.

لثلاث سنوات متواصلة لم يبدر من الفتاة ما يريب، كان الجميع يتفق على حسن سيرتها وسلوكها والتقارير السرية التي تصل مكتبه مباشرة من رجليه الثقات تؤكد أنها لم تكن تستحق الريبة التي أحاطها بها. ولكن الجميع أيضا لم ينكروا عليه خوفه الشديد على فتيات أسرته في مجتمع يعيش أزمة أخلاقية وصحوة دينية في تزامن عبثي لا يمكن تفسيره بمنطق معقول.

تقودنا الصدف أحيانا إلى حتوفنا أو حياتنا، يحدث هكذا فجأة أن تتحرك حياتنا إلى جهة ما، لا نحسب نهاية حركتها في حينه. لثلاث سنوات خلت لم تفكر رشا بأكثر من حياتها البسيطة والتي اختصرتها في محاضراتها وغرفتها وشاليه العائلة نهاية كل أسبوع. ذلك عدا الصيف والرحلة القسرية إلى شقة "بيكر ستريت" في لندن. لكنها فجأة توقفت أمامه في حفل الجاليات المقام في الساحة المؤدية إلى موقف السيارات والباصات الجامعية حيث تستقل سيارتها عائدة إلى منزلها. اعتذر المحاضر عن المحاضرة الأخيرة لها وتبقى لديها ساعة ونصف حتى موعد قدوم السائق كانت تتجول بين الخيام التي نصبتها الجاليات لتقدم فيها عروضها الفنية ومأكولاتها. كان يجلس في دائرة من المستمعين إلى عزفه. يبدو أنهم تعرفوا إليه من قبل. لكنها سمعته للمرة الأولى وهو يعزف. كانت تلك الوصلة التي رأت أمها وصديقاتها يرقصن عليها حين يجتمعن في منزلها وكانت مفتونة برقص أمها على المعزوفة حين تكون بمزاج رائق. توقفت أمامه طويلا. كان شابا وسيما بشكل مقبول خجولا ومنكسرا أو حزينا لسبب ما. لم يدر بخلدها أنه حين يرفع رأسه باتجاهها سينتفض قلبها.

حين عادت إلى البيت رأت أمها تجلس وحيدة في الصالة. "أين أبي؟" "أين سيكون أبوك... تتبعي صمته" "متى آخر مرة تكلمت معه؟" "في آخر مرة نمت معه". عرفت

أن أمها في غير وعيها. ربما عادت لمشروبها الذي أقسمت لها أن تتركه بالأمس كما أقسمت بذلك قبل الأمس والذي قبله.

لم تكن أمها في مزاج يتقبل منها مصارحة بهذا الحجم ربما يحدث العكس وتقلب كل شيء إلى نهاية مبكرة لموضوع لم يبدأ بعد. صعدت إلى غرفتها في الجناح الذي يضم أيضا غرفة أخرى لوالدتها حين لا تحتاج أن تنام إلى جانب زوجها وهي غالبا لا تحتاج بعد أن تقدم بها السن وانحسرت متعتها في الأغاني التي تستعيد بها ذاكرة متواصلة ومشروبها الذي فشل الجميع في انتزاعه منها أو انتزاعها منه. في أغلب الأحيان تشاطرها صديقة عمرها سهرتها يتحدثن ببجاحة شديدة ويشتمن أحيانا كما يحلو لهن دون أن يستمع لشتائمهن أحد.

يوم الخميس الذي طلبت فيه من سائق العائلة أن يأخذها إلى موعد غير مرتب مع العواد كانت والدتها نائمة وعبدالرحمن في رحلة عمل خارج البلاد ولكنها لم تنتبه إلى سيارة تويوتا سوداء تتبع خط سيرها حتى الساحة. توقف السيارة التويوتا على مبعدة من لقائها به، لم تطل الحديث معه، كانت فقط تريد رفع حاجز الخوف بأنها تستطيع أن تراه على الأقل في غياب الأخ المتربص بها.

مر الأسبوع الأول هادئا ومرت ثلاثة أسابيع أخرى التقيا فيها في مقر الجمعية الطلابية في كلية الهندسة، كانت تركب باص الطالبات والذي ينقلهن من كلية إلى أخرى بعد أن يغادرها السائق ثم تعود مرة أخرى إلى كلية الآداب وكانت تلك الفترة الوحيدة التي لا يراقبها فيها أحد أو هكذا كانت تظن. وحين طلبت من أمها أن ترافقها للحفلة الشهرية رأت الأم أن طلبها مناسب لتستمع لفن أصيل عاشت حياتها مغرمة به.

في نهاية تلك الأسابيع الأربعة عاد عبدالرحمن إلى مكتبه ليجد أمامه ملفا كاملا عن تحركات شقيقته وتقريرا عن الشاب الذي التقته وتلتقيه كل يوم سبت.

فتح الملف الصفحة الأول

- الاسم الحقيقي: جاسم محمد سلامة الأسود

- الاسم الحالي: محمد سالم سلامة الأسود وشهرته العواد

- الجنسية: كويتي

- توفي والده محمد سلامة الأسود وهو في السنة

الأولى من عمره في حادث مروري على طريق حفر الباطن – الكويت قادما من العمرة مع والدته. ذهب في الحادث أيضا ثلاثة من أعمام المذكور الأصغر سنا. البعض يؤكد أنه كان في حضن أمه والناجي الوحيد من رحلة الموت، بينما يؤكد البعض أن أمه تركته في حضانة زوجة عمه.

– رعاه عمه سالم سلامة الأسود وألحقه باسمه بعد أن غير اسمه من جاسم إلى محمد تيمنا باسم شقيقه والد المذكور.

– عمه شخصية محترمة ومقدرة من أهالي الجهراء الذين أفادوا بأنه رجل كريم له مكانة خاصة في مجتمه.

– عمه كان يعمل بوظيفة مستخدم في الحكومة ومتقاعد حاليا ويعاني من مشاكل مالية ومصدر دخله الوحيد راتبه التقاعدي.

– حمل المذكور الجنسية الكويتية تبعا لوالده – عمه الذي يحملها وفقا للمادة الثانية.

– يدرس في كلية الهندسة في السنة النهائية ويعزف العود مع فرقة من الجامعة كل يوم خميس في بيت الفن.

– التقى بالمذكورة مرة واحدة في الساحة العامة لمواقف السيارات أمام الجامعة وبرفقتها سائق العائلة ولمدة خمس دقائق تحدثوا خلالها وانصرف كل في طريقه.

– تخرج المذكورة كل يوم سبت من كليتها إلى كلية المذكور من العاشرة حتى الواحدة ظهرا.

– لم يشاهد المذكورين معا خارج الحرم الجامعي سوى المرة التي تم ذكرها آنفا.

أغلق الملف بيد من جمر، اشتعل فجأة، لكنه يحاول أن يهدأ مستعيدا الأسطر التي قرأها. "لاشيء في تقريرهم يثبت انحرافها". "ربما هذان الغبيان أرعبهم أن يكتبا كل شيء". وينهض يستدير من مكتبه نحو المقعدين اللذين أمام المكتب". لكنهما منذ ثلاثة أعوام لم يكتبا شيئا" يعود إلى الجهاز يحاول التحدث إليهما ويتراجع. "ربما كان هناك ما هو أكثر ممالم ينتبها إليه". يغلي بالأسئلة، يجلس، ينهض، يجلس، ينهض. يدخل أحد ضباطه يشير إليه أن يغادر فيخرج. "لا لا لاشيء في هذا التقرير تستحق أن تعاقب عليه، لا يكفي هذا الهراء" يفتح الملف. يقرأ الاسم عند كلمة "العواد" يضحك. "العواد" ربما كان فنانا وهي معجبة به كفنان فقط. يحدث ذلك عادة للرجال أيضا. فكر بصوت هامس. "لا. يجب أن أتأكد مرة

أخرى" قال بصوت عال." كانت تستغفلني كل هذه السنين". تحسس مسدسه "سأنهي كل شيء الليلة إذا اعترفت لي" ولكنه يتراجع تحت وطأة الشك الإيجابي. يعود إلى مقعده من النافذة، يضع يديه على قمة رأسه. "يا إلهي". ما يدور في ذهنه الآن كم البراءة الذي استطاعت أن تخبئ خلفه كل هذا ال... "لا" ينهض من مقعده كمن يرد على أحدهم أمامه. "لو كان ذلك صحيحا لماذا حدث فقط في الشهر الذي غبت فيه". لم يستطع أن يحتمل صراعه وحيدا. رفع سماعة الهاتف وطلب رجلا أسرع إلى مكتبه. قبل أن يحييه الرجل "إسمع! هل أنت متأكد من التقرير؟" "من كل كلمة" "هل رأيتهما معا في كليته". "لا لم ألحق بها إلى هناك". "لم لا؟". "أنت تعلم هؤلاء الطلبة صغار في السن ووجودي خلفها يثيرها ويثير غيرها". بدا العقيد كمن يبتسم في وجهه. لم يستطع الرجل الذي يقف أمامه أن يحدد حقيقه تعابير هذا الوجه الذي يعرفه منذ كان ضابطا شابا. نظر العقيد بعيدا في عيني الرجل ليعرف أنه صادق. "حسنا" وصرفه بظاهر يده. كانت الحيلة الوحيدة التي قرر أن يعتمد عليها هو استدراجها بحنان مصطنع. خمن أنها لم تعد للبيت بعد ولكنه اتصل يسأل السائق عن موعد عودتها وكأنه سيحضرها للمرة الأولى من الجامعة. بعد أن انتبه للاستغراب الذي تخلل رد السائق أدرك أنه متوتر أكثر مما ينبغي. "علي أن أهدأ" يحدث نفسه ربما

كل ما في هذا التقرير السخيف سخيف حقا. فكر أن يبعدها عن ذهنه. تأمل السيرة القصيرة للشاب وأعجب بعمل رجاله ودقتهم. ابتعد شيئا فشيئا وهو يتابع تقارير أخرى لا علاقة لها بأسرته.

دخل منزله في نهاية عمله في الثانية والنصف ظهرا. اتصل هاتفيا بمنزل أسرته. ردت إحدى العاملات في المنزل لتخبره بأن والدته في غرفته وأخته لم تعد بعد. كان يعرف أنها لم تعد بعد. لم يهتم ليسأل عن والده الذي كان يسمع الهاتف يرن ولم ينهض إليه. "ماذا يريد؟" سأل الأب العاملة" ماما ورشا". وكرر ما قالته في صوت خفيض.

تناول العقيد غداءه وهو صامت لا يتحدث إلى أحد من أسرته الصغيرة التي تجلس معه إلى الطاولة. ينهض دون أن يكمل طعامه. "ما بك؟" "لاشيء" رد على زوجته التي حاولت أن تتجاهل قلقه الواضح على جبينه المحمر. خرج إلى منزل والده ليجد السائق أمام الباب ورشا تترجل إلى الداخل. "كنت أريد أحدثك بأمر" "خير" "طبعا خير". ودخلا معا فيما تحرك السائق إلى شأنه.

جلست إلى جواره في الصالة التي غادرها الأب وهو يرى ابنه يدخل البيت وابنته. كان يشعر أنه غير معني

بالحوار الذي يجمعهما الآن كما لم يكن معنيا به من قبل.

نظر العقيد إلى شقيقته وهو يحاول أن يرتب الجملة الأكثر تأثيرا عليها. لكن صمته ران طويلا. "خير عبدالرحمن" "بالطبع خير أنت لا تستحقين إلا الخير". "في عينيك كلام آخر" قالت دون أن تنظر إلى عينيه. "في عيني فرحي بك" رفعت عينيها إليه "بـي أنا" "طبعا من سيفرح لزواجك أكثر مني أنت ابنتي وأختي" "ولمن ستزوجني" "لن أزوجك أنا، هذا قرارك" نهضت واقفة "سأذهب لأبدل ملابسي وأنام". أمسك بيدها "وماذا أقول للرجل الذي طلبك" "قل له حين تريد رشا أن تتزوج ستخبر شقيقها بالرجل الذي اختارته" وكمن يصل إلى ما يريد "حسنا اجلسي"

"لا أريدك أن تتأخر في الرد عليه". "دعيه. له الشرف أن أقبل منه مشروع خطبتك". جلست ثانية. تغيرت ملامحه تماما، ذهبت حمرة الغضب عن صدغيه العريضين واختفت التجاعيد التي رسمها القلق على جبهته.

"من الرجل الذي سيأخذك منا؟" "سيأتي في وقته، أنا لست مستعدة الآن". وبسرعة كمن يباغتها بتحقيق. "ولكنه موجود" "أنت ضابط ذكي عبدالرحمن". "أنت لست مهتمة بأحد إذن" قال وهو يبتسم عنوة. "أعرف نفسي جيدا، أنت لا

تعرفني". وقبل أن ينهض هو هذه المرة نظر إليها. "قولي له إنني أنتظره في الوقت الذي يختاره". افترقا هو خارجا إلى بيته وهي إلى جناحها.

الفصل الرابع

نقاب... وأمن دولة

أحست رشا بأن شقيقها يشك بشيء ما، ولكنها أوعزت ذلك إلى الطبع الذي ينشأ عليه رجال الشرطة. لم يخطر ببالها أنها محاصرة بأبعد من سائقها الذي استبدل ملابسه وأبقى على ذهنه العسكري. ولكنها بالرغم من ذلك قررت ألا تغامر أكثر، ستفترض جدلا أنه يراقبها، هي تعلم أن رجاله يعملون في الحرم الجامعي، يتابعون الأنشطة الطلابية وبعضهم يشارك بها وأكثرهم طلبة مثلها، وليس بمقدورها ولا مقدرة غيرها أن يعرف الفرق بين ألوان أعينهم وأشكال نظراتهم وألوان وأشكال غيرها من الأعين التي تدور حولها على مدار اليوم.

في عصر ذلك اليوم طلبت من سائق العائلة أن يرافقها إلى أحد الأسواق الشعبية في منطقة المباركية القديمة. "انتظرني هنا" عادت بعد أقل من ربع ساعة إليه تحمل كيس ملابس، لم يستطع الفتى الآسيوي أن يفسر سبب سرعة هذا التسوق الذي لم يعتد عليه.

لفت الأقمشة السوداء الخفيفة في شنطة يدها التي تضع

فيها كتبها وكراريسها وفي الصباح غادرت بهيئتها التي تغادر عليها كل يوم. بلوزة سماوية طويلة حتى الركبتين وبنطال جينز أزرق داكن وبعض الاكسسوارات الإيطالية وساعة "ايجنر" وحذاء عملي أسود لا يميزه شيء عن أي حذاء آخر.

"إن رجاله يموهون أنفسهم لملاحقتي فليطاردون شبحي منذ اليوم".

لم يكن اليوم هو السبت، ولم تكن على موعد مع العواد ولكنها قررت أن تذهب إلى كليته في حيلتها التي ابتكرتها البارحة، وكونها بلا موعد معه سيجعلها أقل ارتباكا مما لو كانت على موعد معه. حين أنهت محاضرتها الصباحية دخلت حمام السيدات. وضعت نقابها ثم توشحت بغطاء رأسها وأسدلت عباءتها من قمة رأسها حتى أسفل قدميها. نظرت إلى نفسها في المرآة الطويلة أمامها. وابتسمت دون أن ترى ابتسامتها.

"لن يعرفني رجال العقيد المموهون، ولن يعرفني العقيد نفسه".

توقفت أمام موقف الباصات، لم ينتبه أحد إن كانت هذه هي المرة الأولى التي تتوقف فيها أمام المحطة أم تكرر ذلك

من قبل. لم تتحدث هي إلى أحد ولم يحدثها أحد. تظاهرت بانشغالها برواية أجنبية ركزت عليها عينيها هروبا من الأعين التي تحاصرها. توقف الباص الأبيض والممهور بشعار جامعة الكويت. ركبت واتجهت مباشرة للمقاعد الخلفية في الباص تستطلع ببصرها الجميع ولا ينظر إليها أحد.

توقف الباص ورغم هواء التكييف البارد أحست بخيط من العرق ينزلق على سلسلة ظهرها وتصورت أن وجهها الآن أكثر احمرارا. وتنفسها أقل من معدله. وطوال سيرها متجهة إلى الكافتيريا أولا وهي ترواغ هذا السواد الذي يحيط بها لترفعه عن وجهها. خرجت من الكافتيريا ثانية إلى الجمعية الطلابية محاولة التأكيد بأنها غير مطاردة من أحد. لم يكن العواد هناك. جلست ساعة تقريبا وهي تقرأ روايتها بهدوء داخلي رغم الضجيج حولها. ونهضت وهي تحس بارتياح جميل. طوال جلستها كان الجميع يتحاشى أن يقترب منها، لو كان العواد يجالسها ما تجرأ أن يحادثها. ارتياح حين لا تعرفك إلا ذاتك.

"خلف هذا السواد لا يراك هذا العالم ولكنه ينكشف لك"

وغادرت كما أتت.

في السبت التالي قررت أن تذهب إليه بنقابها، قررت أن تلغي هويتها، تلغي وجودها كإنسان له ملامح يعرفه الآخر من خلالها، أن تذهب إليه كشيء مجرد من قيمته. كان ذلك يزعجها ولكنه أمر لا بد منه. مالم تفكر به هو الخطر الذي يتربص بحبيبها لو تعقدت الأمور. دخلت الجمعية الطلابية، كان يجلس إلى المكتب الوحيد في الغرفة الداخلية وهو يتطلع إلى الباب الرئيسي بين لحظة وأخرى. حين دخلت لم يكن ليهتم بها، فتاة بنقاب تشبه أي فتاة بنقاب كمشهد طبيعي لم يعد يثير استغراب أحد.

جلست على الكنبة الجلدية في الغرفة المجاورة له وكمن تجهزه لمفاجأة ما. أخرجت كتابها وتلفتت حولها ولم يكن سواه في غرفة المكتب. بدأت تنزع عنها نقابها وتدسه في حقيبتها، بدأ يتابع المشهد من باب غرفة المكتب ولا يرى سوى ظهر الفتاة التي تتخلص من السواد الذي يحيط بها. حين نهضت إليه نظرا طويلا إلى بعضهما "لم أعرفك". ابتسمت وهي تقترب من طاولة المكتب "هذا هو المطلوب". "لماذا فعلت كل هذا؟" نهض عن المكتب وجلس إلى الكنبة المجاورة وأجلسها إلى جانبه. أعاد السؤال مرة أخرى "اكتشفت أنني لا أمتلك نفسي". "ماذا حدث؟" نظرت إليه وكأنها تقدم نفسها إليه من جديد. "هل تعرف من أنا؟". وسكت. لم يجد إجابة ممكنة وصادقة. وربما هو يفكر الآن فعلا "هل يعرفها أكثر من كونه

يحبها". نظرت إليه وللمرة الأولى تمد يدها وتضغط على أطراف أصابعه ثم تسحب أصابعها النحيلة برفق من يده. نظر طويلا في رقرقة ما يشبه الدمع في عينيها الصافيتين الواسعتين كمجهول. "أنا أخت عبدالرحمن اليزاز" قالت. لم يكن يعني له الإسم شيئا. "وماذا يعني أن تكوني أخت عبدالرحمن اليزاز؟" كانت تدرك أنها تضعه أمام خيار صعب. "أخي العقيد عبدالرحمن اليزاز". وحين لم يكترث. "أخاف منه كثيرا". "هل يطاردك؟" "أعتقد".

مسح بيده على خصلة شعرها وهو يرمق الباب المواجه له أن يدخل أحد. "هل كل أخوات الضباط مثلك؟". "ماذا تقصد؟" "أقصد هل وراء كل نقاب عقيد تخاف منه شقيقته وتختفي عنه؟". ابتسمت "لا. أخي عقيد في أمن الدولة".

لم تر تغيرا في ملامحه. استطاع بشجاعة داخلية أن يفتعل أن الأمر لا يعني له شيئا. "لا يهم" وأكمل" حين أحببتك لم أكن أعلم أنت ابنة من أو أخت من..." وقاطعته دمعتان لم تمتلك كبح سيلهما "تحبني". تناولت منديلا ومسحت بطرفه دمعها. "ألم أقل لك من قبل؟" وضحكت بوجه باك. "لا لم تقل". "شكرا للعقيد إذن ولأمن الدولة". نهض إلى مبردة ماء صغيرة بجانب المكتب وأحضر لها ماء "إشربي. سألتقي عقيدك هذا قريبا".

خرجت إلى حمام النساء القريب من الجمعية الطلابية رشا اليزاز وعادت منه لا أحد. حين تأملت نفسها في المرآة قالت "ما أقسى أن تنظر إلى نفسك في المرآة ولا تعرف أنك أنت!"

كان يقف في الممر ينتظرها. هذه المرة لم يخطئ عينيها. خطرت فكرة بباله. "كنت أفكر بطريقة تزورين فيها أهلي" "ووجدتها؟" "نقابك الجميل هذا هو الطريقة".

في يوم سبت استعار سيارة فهد غانم. كانت تنتظر أمام موقف باصات كلية البنات حين توقف لتصعد إلى جانبه بنقابها. "السيارة رائحتها كريهة" وضحك وهو يتجه بها إلى الجهراء مستقلا طريق الجهراء ومتتبعا طريق باص 103 "هل تشمين جيدا من وراء النقاب؟". "هذه رائحة دخان وخمر، يبدو أن شاعرك مدمن أكثر مما ينبغي". "الدخان ممكن. كيف عرفت رائحة الخمر؟" وشعرت بخجل. ليس له أن يعرف. يجب ألا يعرف. لا أحد يجب أن يعرف. "أنا لست طفلة". "أنا لم أكن أعرف أيضا". وصمتا وهو يدير أغنية في مسجلة الكاسيت. "هل زرت الجهراء من قبل؟" لا أتذكر الآن ولكنني ذهبت في رحلة مدرسية إلى القصر الأحمر" أنتم لا تعرفون عن الجهراء سوى القصر الأحمر ومعركة القصر الأحمر" ووضعت يدها في يده وسحبتها قريبا منها" وأعرف حبيبي

من الجهراء". "اوه هذا كثير عليك".

كانت رائحة الهواء التي يبعثها جهاز التكييف ثقيلة ولكنهما اعتادا عليها بعد نصف المسافة. دخلت السيارة المنازل الطينية المبعثرة هنا وهناك بعد أن اجتازت مزارع الجهراء وأصوات مضخات المياه. "جميلة هذه المدينة" قالت. "هل تستطيعين السكن فيها؟" أرادت أن تجامله لكنها كانت صادقة. "لا أعتقد ولكنني سأزورها كثيرا".

توقفت السيارة أمام أحد المنازل. يعرف أن والده في هذا الوقت من الصباح يخرج إلى مجلس الرجال في الحي المجاور لحيهم ويبقى هناك حتى صلاة الظهر يعود بعدها إلى قيلولته حتى صلاة العصر. أمه وحيدة في البيت، ورتب معها لقاء الفتاة التي قرر خطبتها. حين ترجلا من السيارة لم يكن المنظر ملفتا. فتاة بنقاب لا تعني بالنسبة للأعين التي تراقب المنظر أكثر من فتاة من أقاربهم. دخل يسبق رشا إلى الداخل وتبعته وهو ينادي أمه التي استقبلتها دون أن تدرك ماذا عليها أن تفعل. هل تصافحها فقط؟ تحضنها؟ أم تبقى على مسافة منها وهو ما فعلته فعلا، لكن رشا رأت في عينيها رغبة بأن تحتضنها فاحتضنتها والأخرى تشدها إليها أكثر.

تركهما العواد ودخل غرفته مانحا الوقت الذي تتآلف فيه

روحان وربما يحدث العكس. سيعرف ذلك فيما بعد.

كانت الأم تتعامل معها كفتاة غريبة ولكن فتاة من بيئتها وهي بملابسها الداكنة والتي أخفت هويتها الحقيقية. وحين طلبت أن ترفع عنها السواد الذي يحيطها تبدلت نظرتها لها، جحظت عيناها وكأنها تنظر لمخلوقة من فضاء آخر. "ما اسمك؟" قالت. "رشا" مر الإسم سريعا ولكنه لا يحتاج لمجهود لتتذكره. فأعادته الأم كأنها تؤكد حفظه وتؤكد نطقه كما يجب. "رشا" ولم تتأكد الفتاة ان كانت الأم نطقت الإسم كما يجب أو لا. خرج مصحوبا بلهجة بدوية لم تعتدها من قبل.

كانت الأم أعدت مأدبة صغيرة للضيفة المرتقبة. عصائر معلبة، قهوة صفراء وقليلا من التمر وراحة الحلقوم الحلوى الوحيدة التي يبيعها صاحب البقالة السوري، لكن الفتاة اكتفت بعلبة عصير المانجو المعدنية التي صبتها بكأس زجاجي وبدأت ترشفها على مهل والعجوز تتابع حركة شفتيها، وهي تزمهما بعد كل رشفة وينفرجان عن أسنان بيضاء متساوية، ترفع عينيها إلى هاتين العينين المرسومتين بدقة، سوادهما الجميل والذي تناسق مع بياض بشرتها وشعرها الأسود ولكنها انتبهت إلى أن الفتاة تتابع نظراتها. لم تكن تعرف في محيطها فتاة أو امرأة لم ينل منها التعب ويضاعف عمرها المعاش فتتهدم ملامحها قبل الأوان.

"لوحصل وكانت هذه زوجة له سيكون هذا الشقي أسعد من أنجبته امرأة". قالت في سرها. ولكن امرأة خبرت الحياة توقعت أن ذلك لن يكون وإن كان لن يدوم.

رشا في المقابل تتابع وجه المرأة الممتلئ ورغم تقدم سنها تبدو إمرأة نشيطة متناسقة الجسم رغم تجاعيد السن الواضحة على طرفي عينيها ونحرها. ولم يتجاوز حديثهما سوى العادي من الأمور التي تتطرق له غريبتان في محطة باص أو أمام دكان عطارة. لم تجرؤ المرأة أن تقتحم حياة الفتاة الخاصة حتى لا يبدو الأمر كمن يقبلها أو يرفضها بناء على إجابتها. ولكنها سألتها إن كانت ستتناول الغداء وهي تعرف إجابتها وتعرف إنها لن تنتظر حتى يأتي والد العواد. وردت الفتاة بالنفي. خرج العواد إليهما وسألها أن يعودا إلى الكلية. قبلتها الأم بحرارة ونظرت إلى الشاب الذي يبتسم "مبروك يا ولدي".

لم يأت العواد بفتاته إلى أمه لتبارك له قراره، وإنما لترى حياته أو حياتها في هذه البقعة النائية عن مدينتها. سألته وهو يتجه إلى الطريق الوحيدة التي تربط القرية بالمدينة "إلى أين يؤدي هذا الطريق؟" مشيرة إلى الجهة المعاكسة "إلى العراق". "هل يمر بالجنوب؟" "بالتأكيد، لماذا؟" "كنت أتمنى أن أذهب مع أبي إلى هناك لأرى حياته الأولى". "ومايمنعه من ذلك؟"

صمتت ولم ترد. "ربما يكره حياته هناك ولا يريد أن يتذكرها". قال نيابة عنها. "أبي؟ لا. يتحدث دائما معي عنها ولكن أخوتي لا يريدون أن يتذكروا أنه كان هناك". كانت تلك حقيقة تنطبق على أخوتها وتنطبق عليه أيضا. "جميعنا هنا لا نريد أن نتذكر أين كان آباؤنا".

الفصل الخامس

بدايات غير محكمة كما يجب

- 1 -

في يوم من أيام فبراير التي تسبق الاحتفال بالعيد الوطني أقله فهد غانم إلى مسرح الجامعة، في الخالدية، ليحتفل معه بتخرجه؛ وهو احتفال للمتوقع تخرجهم هذا العام أيضا، كان طوال الطريق يتابع ظل السيارة الذي يسير إلى جانبها ويستمع لصوت فهد غانم وهو يغني بنشاز لحن أغنية خافتة في مسجل الكاسيت لفنان شعبي من البحرين ويعزف بأصابعه على المقود ثم يحرك رأسه يمينا ويسارا كأنما طرب لصوته فعلا. حين التفت فهد غانم إليه وجده سارحا وهو يمد يده خارج نافذة السيارة تاركا الهواء البارد والمنعش في هذا الوقت من السنة يتخلل فروج أصابعه. "بماذا يفكر العاشق؟" لم يرد العواد. مع أنه كان يسمعه ولكنه لا يريده أن يدخل الآن إلى الحوار القصير الذي يدور بينه وبين رشا في ذهنه المشحون. "ستأتي هذا الأسبوع؟". "وعدتك أن آتي، أنت لا تثقين بي" تبتسم في وجهه "لا أريد أن أعرضك لموقف لا تحبه، أنا لا أثق به". ويضع يده على خدها يحس به دافئا رغم برودة الهواء. "لا عليك أظن أن والدي سيجيد التصرف

معه، المهم أن يكون والدك في صفنا". "والدي" وتصمت وتكمل بصوت لا يسمعه "ربما كانت هذه فرصة ليكون له موقف ما". "سأبقى أحبك وأؤمن بك قدري فليكن ما يكون". "لن أخذلك".

لم يتخل عن حواره الوهمي "وأنا لن..." لم يكمل جملته. هزّه فهد غانم بقوة بيده اليمنى التي تركت العزف على المقود.". "هيه! ما بك؟ أين ذهبت؟" نظر العواد بعيدا في عينيه، تطلب الأمر برهة من الزمن لتختفي صورتها وتتشكل صورة صاحبه وكأنه جلس الآن خلف المقود. وأكمل فهد غانم "أنت عاشق حقيقي يا صاح". "وأنت مزعج حقيقي" عاد فهد يغني "تعلم لو أنني أعرف أن صوتك بشع لهذه الدرجة ما صادقتك". ولكن فهد غانم يحول الحوار إلى جدية أكثر. "هل تعتقد أنك تختار بحرية أم تحت سطوة معينة، سطوة لا تعرفها أو بالضبط لا تعترف بها؟". كان العواد ينظر إلى الخارج وهو يستمع إليه جيدا. "بالتأكيد هذا خياري أنا وكنت حرا في اتخاذه". قال دون أن ينظر إليه. "إذا كنت تعتقد أن أفعالك هي خيار وعيك فأنت مخطئ". لم يعرف فهد غانم كيف ستصل الفكرة التي يريدها إلى صديقه المصاب بعمى الحب. ولكن فهد غانم لا يفكر بشقيق الفتاة وغرور سلطته ومكانته المالية التي ورثها عن جده لأمه ليعادل بها ما ورثه عن والده، كان يفكر بالنقيض تماما، الفتاة وأسرتها نقيض العواد

وأسرته. يفكر بالعواد وحاجة أسرته للالتصاق به أكثر، العقم الذي يعانيه عمه الشيخ والقدر الذي منحه طفلا يرعى كبره، القدر الذي مهد له ابنا ليس من صلبه، القدر الذي يريد العواد أن يعبث به الآن ويحركه عنوة باتجاه آخر.

"أنا أؤمن أن اختياري حر ولا يستطيع أحد أن يفرض عليّ عكسه". قال العواد. "وأنا أؤكد لك أن خيارك الحر هذا وهم يا صاحبي". ابتسم العواد والتفت إليه للمرة الأولى "في نهاية هذا الأسبوع سترى". "في نهاية هذا الأسبوع سترى أنت أيضا". أغلق فهد غانم الحوار وهو يعيد الجملة ذاتها التي أراد العواد أن ينهي بها الحوار.

لم يكن خيار العواد في الحقيقة حرا كما يتوهم، ليس لأن القيود التي تتحكم به لا حصر لها، وليس لأنه خيار لا يملك تحقيقه، وإنما ببساطة ليس هناك خيار حر فعلا.

أو كما قال فهد غانم وربما دون أن يدرك ما وراء ذلك فلسفيا "الخيار الحر وهم".

وصلت بهما السيارة إلى مواقف المسرح الجامعي في الخالدية، تركاها على الساحة الترابية أمام المنازل وأشعل فهد غانم سيجارة أخيرة قبل أن يدخلا المسرح. حمل العواد ملابس

التخرج والبطاقات وعبرا الشارع الفاصل بين المنازل ومدخل المسرح.

"هل قالت لك ستحضر؟" "لم تقل ولكني لا أعتقد أنها ستحضر". كانت قد أخبرته بأنها لا تريد أن تمنح الأخ فرصة لتدمير كل شيء. ولكنها وجدت نفسها تتجه إلى المسرح غير البعيد عن سكنها تاركة العذر الممكن لدى والدتها "سأحضر حفل تخرج صديقتي في كلية الهندسة" ولم تهتم الأم كثيرا بالأمر وربما لو سأل أحد عنها بعد عشر دقائق لقالت ذهبت للعشاء في بيت صديقتها.

كانت تقف في الكواليس مع الخريجين حين دخل الباب الخلفي للمسرح تاركا فهد غانم في المسرح. "هذه المرة الأولى التي نلتقي فيها علنا" "هل هذا علنا؟" "لا يهم المهم أنك معي الآن". "فكرت أرتدي النقاب" لم يكن أحد يهتم بغير نفسه والجلبة التي يحاول أن يتجنبها من حوله. تلك اللحظة التي تمنت فعلاً أن تحتضنه فيها وربما تقبله أو يحتضنها هو ويقبلها. حاولت ذلك حين خلت الغرفة من الجميع والذين اتجهوا لاستلام بطاقات الأسماء ولكنها تراجعت فجأة، كانت تعلم جيدا أنه لن يبادر. "سأذهب الآن" "طيب" مدت يدها له وتناولها تسرب دفؤها إلى يديه. "كنت أود الآن فقط أن أكون فهد غانم" لم تتحرك شفتاه بالجملة. سحبت يدها تاركة هدية

صغيرة في يده دسها في جيبه دون أن يفتحها. "سأكون في بيتكم نهاية الأسبوع" قال. طأطأت رأسها "سيقتلني الخوف حتى ننتهي من هذا كله". وضع يده على كتفها ضاغطا على خصلات شعرها بين إصبعين.

"سينتهي كل شيء كما نريد". غادرت مسرح الجامعة من الباب الخلفي وتابعها بنظره حتى خرجت إلى الساحة الداخلية حيث تتوقف سيارات كبار الزوار لتغيب في الخارج.

انتهت مراسيم حفل التخرج. في الخارج طلب من المصور أن يلتقط له صورة مع فهد غانم. "مبروك يا صاح" كانت الابتسامة على وجه صاحبه عاجزة عن إخفاء دموعه. "فهد أنت تبكي" أخفى فهد رأسه في كتفه وسمع صوت نشيجه حادا. "أنت شاعر حقيقي في داخلك".

عاد إلى البيت مساء. بعد دعوة فهد غانم له على العشاء في شقته التي غادرها حين بدأ صاحبه يشرب وهو ينتظر إحدى صديقاته للسهر معه. كان والده يجلس على الدكة أمام البيت وحيدا وقد أشعل موقده بخشب السمر ووضع على كتفه فراء الخروف. انحنى عليه وقبل رأسه لتختلط في أنفه رائحة الدخان وفراء الخروف. "هل تخرجت؟" "نعم مبروك يا ولدي". يعرف أن والده غاضب ولن يتظاهر بفرح

يحمله الشاب على محمل الموافقة من مصاهرة أغراب لا يعرف عنهم شيئا ولا يعرفون عنه شيئا. جلس إلى جواره وهو يحاول أن يسترضيه. "سأفعل ما تريد دون أن أكون راضيا". لم ير سببا يجعله يعيد الجمل التي تحدث بها من قبل إليه، هو يعرف أن والده لن يقتنع. "سأذهب لأنام". نهض إلى غرفته ولأول مرة يدندن على العود ووالده لم ينم بعد. أيقن أن الفتى يمهد لرحيله. بللت دمعتان لحيته البيضاء وألقى برأسه إلى المسند الذي إلى جواره. خبت النار في الموقد واشتعلت في صدره.

أخبرته أن شقيقها أجل موعده معه حتى بداية نيسان ليجد الوقت الكافي للسؤال عنه. وتلك لم تكن الحقيقة. كان العقيد يفكر بما هو أبعد من ذلك. أن يدرك العواد بأنه ليس متلهفا للقائه. في صباح يوم من أيام نيسان أبلغها شقيقها أن تتصل به ليقابله في نهاية الأسبوع، بدا والده مستلما للسير رغما عنه تحت وطأة رغبة ابن يتيم تعهد روح شقيقه أن يرعاه كما لو كان ابنه. أحضر الأب صندوق زينته وحلق لحيته تاركا الجزء الذي تحت ذقنه مباشرة يشبه هرما صغيرا مقلوبا وحدد شاربيه. دعك وجهه بصابون "لوكس" ثم جلس أمام مرآة مستديرة لها قاعدة حديدية وبدأ يصبغ لحيته وشاربيه. حين خرج العواد من غرفته جلس قبالته "ماذا تفعل؟" "كما ترى". وضع يده على جبهته. توقع أن والده دبر مكيدة جيدة لكي

ينهار هذا اليوم من أوله. "لماذا؟" "لا تخف، هذا صبغ ألماني أصلي أحضره المختار بنفسه من ألمانيا وصبغ منه ولم يحدث شيء".

كان والده في كل مرة يصبغ بها لحيته وشاربيه يصاب بنوبة ربو تضطر العواد للجري في الطرقات بحثا عن سيارة تُقله إلى المركز الصحي. وفي كل مرة يمضي اليوم كاملا هناك واضعا كمام الأوكسجين حتى يعود لوضعه الطبيعي. تركه عائدا إلى غرفته مستلقيا على سريره. فكر في النوبة التي ستجتاح صدر والده. حينها سيتصل برشا ويلغي الموعد. وهو يدرك أن شقيقها لن يمنحه فرصة أخرى للقائه. مر النهار طويلا ووالده سليم لا يعاني من شيء. كانت النوبة في العادة تأتي مباشرة قبل أن يجف الصبغ على لحيته. دخل غرفة والده "هل أنت بخير؟". "قلت لك هذا صبغ ألماني أحضره المختار وصبغ منه ولم يصبه شيء". لم يكن يعلم العواد أن المختار كان يعاني ذات الحالة التي يعاني منها والده وأنهما يستخدمان منتج متشابه. ابتسم في وجه والده وخرج ثانية ينتظر فهد غانم الذي قرر أن يأخذهما بسيارته.

طلب والد العواد أن يجلس في المقعد الخلفي وأن يجلس الشابان في المقعد الأمامي. "لا عليكما هذا مكان علية القوم". همس فهد غانم "تبدو شابا اليوم كأننا سنخطب لك

يا عم". لكن الرجل الذي كان يكره فهد غانم لأسباب عديدة لم يشأ أن يحرجه أمام ابنه وفي يوم فرحه. "أنا أكثر شبابا منك". وكذلك لم يعلق على رائحة السيارة التي أزعجته قبل أن تتحرك. "هل كان يستخدمها مبولة؟" قال في سره. ثم أكمل لنفسه "هذا شاب ماجن لا يتردد في فعل كل الموبقات في سيارته".

كان فهد غانم والعواد في حديث آخر بعيدا عن الحوار الداخلي للرجل خلفهما. "هل تعتقد سيوافق؟" سأله العواد. "طبعا لا أعتقد" رد فهد غانم مؤكدا ما قاله لصاحبه من قبل. "لماذا دعانا لنقابله إذن؟". "حتى يرفضك رسميا". قال فهد غانم دون أن يراعي شعور صديقه، كان عليه أن يكون صادقا فعلا. لكن العواد تظاهر كأنه لم يفهم "ماذا تقصد رسميا؟". كان الرجل في المقعد الخلفي قد أنهى سيل شتائمه لصديق ابنه وبدأ ينتبه لحوارهما. "إنه شاب عاقل ويعرف الحياة أكثر من هذا الجحش الذي ربيته". قال بهمهمة غير واضحة. "ماذا قلت يا عم؟" سأله فهد غانم قاطعا حواره وصاحبه." نعم. لا شيء. لاشيء. كنت أهذي مع نفسي". "أكمل" سأله العواد. "أقصد أن يكون الرفض نهائيا، نقيضا حقيقيا للقبول الرسمي". "كان يمكن أن يفعل ذلك ويرفض لقاءنا". صمت فهد غانم. ووضع الرجل في المقعد الخلفي كلتا يديه على المقعد الأمامي." يقصد أن تترك هذا الأمر

نهائيا وأن تتركه صاحبتك أيضا. هل فهمت؟". ضحك العواد الذي لم يسمع الكلمة التي ختم بها والده حديثه قبل أن يعيد ظهره إلى مسند المقعد."...!" "كأنكما تريدان مني أن أعود الآن". قال العواد مخاطبا والده وصديقه "لا أبدا. نريدك أن تتهيأ لردة الفعل وأن تتقبل حالة الرفض كما تتقبل حالة القبول". قال فهد غانم. ولكن العواد لم يكن في باله أن يتقبل فكرة الرفض." لن أتهيأ لغير موافقته. سأتزوجها رغما عنه". أعاد الرجل الذي خلفه جذعه للأمام واقترب من أذنه اليسرى "هل عرفت لماذا قلت عنك جحش؟" ضحك العواد "لم تقل لي ذلك" وعاد الرجل إلى جلسته السابقة. قلت. أنت لم تسمعني". "يبدو أن والدك كان يشتمنا طوال الطريق في سره". "لم يكن كذلك. لا بد أنه الصبغ الألماني". قال العواد. "أي صبغ" سأله صديقه وأشار له العواد بيده أنه سيخبره ذلك فيما بعد.

توقفت السيارة أمام بيت أبيض يكسوه الرخام الطبيعي وقد أسدلت جميع ستائره وأحاط به سياج من الياسمين خلف سور من الحديد المذهب منخفض العلو. ونخلتان باسقتان وشجيرات قصيرة للزينة. لا تصدر من البيت في هذا الوقت من النهار أي نأمة تدل على حياة أهله أو حياة جيرانه. لا أحد في الخارج سوى بعض عمالة المنزل من الآسيويين والذين يهتمون بغسيل السيارات الفارهة وري المساحة الخضراء أمام فناء المنزل. لم يلحظ الضيوف الغرباء الذين

ترجلوا من سيارتهم الآن سيارة تويوتا سوداء تقف في البعيد ولم يكترث بهم سائقها وصاحبه الذي يجلس إلى جواره. نظر العواد من وراء الباب الخارجي فجاءه رجل من القارة الهندية عبر الحديقة الجانبية والتي لا يراها الثلاثة الواقفون أمام الباب وهم ينظرون لوجوه بعضهم البعض. فتح الهندي باب السياج القصير وهو يمد يده من الداخل إلى مزلاج صغير ثم قاد الثلاثة بإشارة منه "أن اتبعوني" إلى داخل المنزل، حين دخلوا تحركت السيارة السوداء وقبل أن تجتاز سيارتهم التي أتوا بها سجّل الرجل المجاور للسائق رقمها ومضوا في طريقهم. انتبه العواد أنه يتقدم والده وفهد غانم فتراجع إلى الخلف تاركا والده يدخل المجلس الطويل الذي يتخذ من طرف المنزل الجنوبـي مساحة تجعله يبدو مستقلا تقريبا عن سكن العائلة. أشار لهم الشاب الهندي أن يجلسوا، فجلسوا إلى جوار بعضهم في المجلس الفسيح تاركين صدر المجلس للوالد الذي أعدل "بشت" الوبر الأصلي ومسح بيده على تطريزه النجفي. يبدو على وجهه الضيق أن لا يستقبلهم المضيف الذي سيكون صهرهم. وهو ما يشعر به فهد غانم أيضا. لا حاجة لهما بتبادل نظرات مع العواد الآن، وهو لم يكن بحاجة لأن يبرر لهم شيئا. "لكل ناس طبعهم" قال والده في سره مقنعا نفسه. ومتمنيا أن يساق الحوار إلى حالة اللاعودة وأن ينفض هذا الأمر نهائيا وبلا رجعة وهو على استعداد أن يكون وقحا

للمرة الأولى في حياته ليدفن هذا المشروع الخديج. "كان من الواجب أن يستقبلنا، جئنا في الوقت الذي حدده هو" حدّث العواد نفسه وهو يفكر في نهاية الحوار الذي سيجري بين والده والعقيد، أما فهد غانم فكان يطمح بصالة ضخمة كهذه بجهاز تلفزيون عملاق كهذا، بتحف أصلية من الكريستال والنحاس، ولم يحلم بالطبع بأن يكون له جد ثري كهذا الرجل الذي علقت له صورة ضخمة بدا فيها صارما بملابس وطنية كاملة، حليق الشنب والذقن، عريض الوجه، حاد النظر بجبهة عريضة وبشرة صافية رغم تقدم السن به كثيرا. "هذا جدها؟" سأل فهد غانم العواد الذي هز يده "لا أعلم". ثم مجيبا بهمس "أعتقد". "تأخر العقيد". قال فهد غانم "ننتظره – لا شيء في ذلك". قال العواد "طبعا لا شيء في ذلك". رد فهد غانم ساخرا.

الوحيد الذي لم يتكلم هو والد العواد الذي بدا يرى في الأمر إهانة متعمدة، وهي إهانة تمهد للنهاية التي يطمح إليها. مرت الدقائق تجر الزمن ثقيلا خلفها وبعد أقل من ربع ساعة همّ الرجل بالنهوض. لكنه نظر إلى العواد وفي عينيه ما يشبه الرجاء أن يجلس قليلا فجلس. في تلك اللحظة دخل شاب آسيوي غير الذي استقبلهم يحمل صينية من المشروبات الغازية والعصائر وزجاجات مياه معدنية.

كان الآسيوي يعرف أصول الضيافة فوضع الصينية أمام الرجل الأكبر سنا الذي فتح زجاجة الماء وكرعها في جوفه كمن يطفئ غضبا لا عطشا. مد فهد غانم يده لعصير كيوي واستغرب الرجل أن يشرب فهد غانم مشروبا لا يعرفه. "ما هذا؟" "كيوي" رد الشاب. "ماذا؟". فتبرع العواد "فاكهة تشبه... تشبه" ولم يجد لها شبها. "تشبه ماذا؟" وانقطع الحوار دون أن يعرف الرجل تشبه ماذا ودون أن يستطيع تذكر اسمها الذي قاله فهد غانم قبل قليل.

حين دخل العقيد المجلس يتبعه رجل عريض الأكتاف بشاربين كثين وبشرة أقرب إلى السمراء من وهج الشمس وضع فهد غانم كأس العصير ونهض مع الآخرين. العقيد كمن يدخل إلى اجتماع بضباطه الصغار يحمل ملفا صغيرا في يده، طلب منهم أن يجلسوا بعد أن رحّب بهم برسمية مفرطة في الجفاف. راح العقيد يقلب صفحات الملف الذي بين يديه دون أن يرفع عينيه تجاه الضيوف الذين ينظرون جميعهم إليه ويتفاعل في داخلهم الإحساس نفسه بالازدراء غير المبرر. لم يحتمل الأب أن يصل الصمت بينهما هذا المدى الذي لا يحتمل. "لقد جئنا..." ولم يتركه العقيد يكمل جملته. "أعرف لماذا جئتم..." فسكت الرجل وهو ينظر إلى عيني ابنه الصامت كمن يتفرس شكل الدهشة.

فكر العواد لو أن والده نهض الآن لنهض معه. ولكنه أقنع نفسه بأن يترك الأمر لخبرة الرجل الذي يعرف كيف يدير أمرا كهذا بحكمة البدوي.

أمر العقيد مرافقه بأن يستدعي والده من الداخل. وأكمل النظر في الملف الذي معه متحاشيا أن ينظر طويلا في عيون الضيوف الذين بدت ملامحهم أقرب إلى متهمين لا طالبي قرب. مرت دقائق ليدخل والد العقيد. كان رجلا في سن والد العواد تقريبا حين نهض الضيوف الثلاثة في وجهه صافحهم ثم جلس إلى جوار العقيد الذي أشار لمرافقه أن يخرج.

بدأ العقيد موجها كلامه لوالده "الأخ يريد أن يخطب ابنتك، وطبعا كان لا بد أن نعرف من هو، وحتى الآن نعرف أنه ليس ابن هذا الرجل" قاطعه والد العواد "هو ابني" "صحيح لأنك عمه تقول هو ابنك". "ما رأيك؟" سأل العقيد والده. "أنت أخوها الأكبر والكلمة لك". التفت العقيد إلى والد العواد وبشكل صارم قال "وأنا أرفض هذا الزواج وأتمنى لابنك أو ابن أخيك زوجة من مستواه ومن أهله، هذا أفضل له وأفضل لك أيضا". لم يجد والد العواد كلاما حين أغلق العقيد الملف ونهض" هل يمكن أكلمك على انفراد" وجه كلامه للعواد. "طبعا". أدخله في غرفه منزوية من المجلس تحتوي على مكتب صغير

وكرسيين من الخشب أنيقين ومصقولين عليهما كساء من المخمل الأحمر. "إجلس". جلس العواد على كرسي وجلس العقيد أمامه واضعا يده على كتفه ومركزا بعيدا في عينيه. "اسمع، أعرف أنك على علاقة بأختي وأعرف حدودها وقد انتهت هذه العلاقة اليوم بعد رفض خطبتك لها". أبعد العواد يد العقيد عن كتفه واستمر ممسكا بها. نظر ذات نظرته بعيدا في عينيه "ولكنني سأتزوجها". نفض العقيد يده من قبضة الشاب. "أنت لا تدرك عاقبة أمرك". ولم يرد الشاب. غادر المكتب إلى حيث يجلس والده يحدث والد العقيد. أشار له ولفهد غانم "سنذهب الآن". ونهض الجميع لكن النظرة التي تركها والد العقيد في عينيه كانت توحي بأشياء مليئة بتعاطف ليس إلا.

في الطريق قال العواد لوالده "أعذرني لقد وضعتك في موقف لا يليق بك" ولم يرد الأب. كان صمته أفضل من لوم ابنه. يكفي أن الأمر بالنسبة لهم قد انتهى هكذا وكان يجب أن ينتهي بأي شكل محتمل.

لكن فهد غانم كان يدرك أن صديقه يفكر في أن الأمور ما زالت في بداياتها غير المحكمة كما يجب، وأن النهايات لم تقترب بعد والعمل لتحقيقها يحتاج لأكثر من الكلام الذي من المفترض أن ينهي كل شيء.

حين وصلا إلى البيت ترجل والده بينما بقي الشابان في السيارة. "هل هددك في الغرفة؟". "طبعا. وكنت متوقع ذلك". "وماذا ستفعل الآن؟". "سأحتاجك معي". "قدري البائس أنت يا صاحبي". ترجل العواد من السيارة تاركا فهد غانم يمضي إلى شأنه.

- 2 -

كانت رشا في جناحها حين نظرت إلى الخارج لترى سيارة خطيبها التي أتى بها تقف أمام سور البيت. غادرت جناحها إلى أمها التي تجلس في الصالة فيما يجلس والدها في زاوية بعيدة يقرأ جريدة قديمة. كان العقيد في منزله المجاور وحين أرسل إلى أبيه ليحضر المجلس. قالت أمها "لا تظلموا ابنتي أنت وعقيدك هذا، سهلوا أمرها". وخرج والدها دون أن يرد. سألت أمها ماذا تتوقعين "لا أتوقع خيرا منه، لو بيده لأنكرني وتبرأ من والده". حين عاد والدها إلى البيت هز رأسه بامتعاض شديد. ولكن أمها قالت "فلنذهب إليه". "إلى من أم عبدالرحمن" قال عبدالرحمن وهو يدخل الصالة على أسرة والده. "إليك! من تظن نفسك حتى تحدد لنا ما نريد". جلس وهو يسحبها من يدها إلى جواره. "أظن نفسي رجلا في كامل وعيي دائما". "ونحن مجانينك الذين كلفتك الدولة بحراستنا". ونفضت يدها منه "دعني". ثم نظرت إلى زوجها "وأنت سلمت نفسك له" ولم يرد. "ستتزوج رشا الرجل الذي اختارته ولن تقف في طريقها". تقبل العقيد كلمات والدته بثقة

الرجل الذي سيطر على الأفعال الممكن ارتكابها ولم يعد يهتم بالأقوال المجانية التي يمكن أن تطلقها أم دون أن تتوقع ردة فعل غاضبة من رجل قوي ولكنه ابنها. لم تختف الابتسامة المصطنعة عن شفتيه. اقترب أكثر من أمه "لو تركت الأمور كلها لك أين تعتقدين كنا سنصل". كانت الأم تدرك أين يريد العقيد أن يصل معها في الحوار. وكان عليها أن تبدو مقنعة في جدالها الأول مع الابن الذي فرض عليها شبه رقابة اقتصرت بوضعها في ما يشبه الإقامة الجبرية. تمارس حياتها الخاصة في غرفتها المغلقة. "حين تزوجت والدك هل تعرف ماذا كان يعمل؟" اختفت الابتسامة المصطنعة عن شفتيه. "لا أريد أن أعرف". يجب أن تعرف. يجب أن تعرف أنّ ما أنت فيه الآن جاء من والدي وليس من والدك هذا الذي أخفيته حيا وأسكتَّ صوته حتى تحول لرجل ميت يمشي على قدمين". كان على العقيد أن ينهي الحوار "جئت لأقول أمرًا لابنتك هذه، لا أريد أن أعرف أنها رأت هذا البدوي". وخرج دون أن يسمح لأحد بإكمال الحوار معه.

كانت تلك بداية حرب الورود التي خاضتها رشا ووالدتها مع العقيد. تخلت رشا عن السائق العسكري الذي يصحبها بعد أن طردته والدتها واقتنت سيارتها الخاصة. رفضت الفرصة التي منحها لها شقيقها الآخر للعمل في المؤسسات المالية التي يديرها، والتحقت في وظيفة صغيرة في أحد

البنوك الأهلية. تتصل بالعواد من هاتف مكتبها ويتصل بها في أوقات حدداها معا، ولكنه يمتنع عن زيارتها في محل عملها كي لا يثير ريبة حولها، واكتفيا بزيارتها له في مقر بيت الفن كل أسبوع حيث يحضر بروفة الفرقة. ولم يكترثا كثيرا لمراقبة العقيد الذي تصله التقارير تباعا عن لقاءاتهما. أما العقيد فلم يفلح في منع الأم من تغيير برنامجها والارتباط به كما كانت في السابق. رفضت أن تخطط هذا الصيف للذهاب إلى لندن معه كما كانت تذهب في كل صيف. وألغى هو فكرة الذهاب خوفا مما سيحدث في غيابه. كانت الأم تقضي أغلب أيام الأسبوع في الشاليه مع صديقتها وتغادره حين يأتي ابنها وأسرته نهاية الأسبوع. وحين أدرك العقيد أن شقيقته ووالدته ليستا هدفين متاحين قرر أن يكون العواد هدفه الذي يمكن أن ينال منه بسهولة. يشعر أن الأمور قد تفلت منه فجأة وربما لا يستطيع معالجتها ومن الأفضل أن ينفذ ما يدور برأسه الآن؛ فالوقت الذي يمر ليس لصالحه.

عاد العواد إلى البيت، في نهاية مساء أمضاه في شقة فهد غانم، قال له والده بصوت سيطر الرعب على نبرته بأن رجلين كانا هنا في الصباح يسألان عنه، وأنه يعرف بأن الموضوع يتعلق بصاحبته وشقيقها. "تعلم أنه وريد في ذراع قوي، ذراع بإمكانه أن ينهيك وينهيني معك".

لم يعلق كثيرا على الرعب الذي أصاب والده، لا بد أن العقيد يدبر شيئا. وكان على الأب أيضا أن يبحث عن حل لتجنيب ابنه سطوة غريمة وسلطته. خرج إلى مجلس المختار وهو لا يعرف بماذا يفكر العواد الآن. حين انفض المجلس اقترب والد العواد من المختار الذي مازحه "ألن تذهب لتنام، لم تعتد أن تبقى كل هذا الوقت". "ربما لن أنام الليلة". وفي سرد بسيط أعاد المختار سيرة اليزاز الأب والأم والعقيد. وكانت تلك الحكاية هي كل ماعاد به إلى منزله ليجد العواد يجلس وحيدا على الدكة. "ماذا تفعل؟". "لا أفعل شيئا، أدخل أنت لتنام". "ربما عادوا". كان الرجل يعلم أن ابنه ينتظرهم في الخارج كي لا يزعجوا أهله. "لا تسلمهم نفسك حتى نتدبر الأمر". "لن نتدبر شيئا. هم يدبرون كل شيء".

كان العواد ينتظرهم بالفعل ونام على الدكة في الخارج حتى الصباح. كانت اليد التي تهزه ثقيلة. "انهض" رفع عينيه ليرى رجلين بملابس مدنية. لم يحتج كثيرا للتفكير في أنهما رجلا يوم أمس. نهض ليرافقهما." أين عمك؟" كانت تلك المرة الوحيدة التي يسمع أحد يسمي والده عمه. "عمي!". "عمك، أبوك، أيا كان نريده معك". دخل وهو لا يعرف كيف يخبر والده بأنه أيضا مطلوب معه. خرج الاثنان رفقةَ الرجلين بسيارة جيب سوداء عليها شعار وزارة الداخلية، متحركةً تحركت بسرعة غامضة قبل أن يجتمع الناس من حولها.

حاول العواد جاهدا ألا ينظر في عيني والده، لم يعد هناك ما يمكن من الكلام. يبدو أن الطريق الذي ظنه العواد طويلا ينتهي حين تتوقف هذه السيارة في المكان المحدد لها. عليه من الآن أن ينفصل عن عالمه الصغير وأن يعيش صراعه مع هذه الآفة المدعومة بنياشين الحكومة وعنفوانها وحده.

أمام مبنى ضخم توقفت سيارة الجيب وطلب الرجل المجاور للسائق أن يترجلا منها ويسيرا خلفه "إتبعاني!". أجلسهما أمام عسكري يجلس خلف طاولة على شكل نصف دائرة، بدا مشغولا بالتحدث على الهاتف، بينما دخل هو إلى أحد المكاتب في الممر الطويل خلف مكتب العسكري الذي كان ينظر إليهما وهو يتحدث. وكعادة جميع رجال الشرطة وعلى الطريقة التي تعلموها من جهة لا أحد يعلمها عليك أن تنتظر ساعات دون أن تعرف لماذا أنت تنتظر كل هذه الساعات الطوال. ولكن العواد يعرف من هو غريمه ووالده يعرف أيضا، ولكن ما لا يعرفانه هو ما يدبره لهما. "نحن لم نفعل شيئا" كان يخفف الضغط الذي يحسه بالزفير الذي يخرجه والده.

"هو ليس كل شيء، في البلد قضاء ومحاكم" كان الوالد يود أن يلطمه على فمه الذي يرغي بسذاجة مستفزة. "صه!" قال له ولم يكمل كلمة أخرى. عاد الرجل الذي رافقه بعد قرابة

ساعتين من القلق الذي تراكم كبركان صغير في صدر والد العواد، كان يود أن يصرخ بأي أحد "لماذا؟" لكن في مكان كهذا لا تعرف أن تصرخ بوجه من، ولماذا هو دون غيره. إن قوة السلطة تكمن في اختفاء صاحب القوة من المشهد. هو ليس العسكري خلف نصف الدائرة، وهو ليس السائق الذي قاد سيارة الحكومة إلى هنا، هو ليس الرجل الذي دخل وعاد، هو ليس العقيد ورجال العقيد، هو كل هؤلاء وأكثر.

طلب الرجل منهما أن ينتظرا في مكتب آخر حيث يجلس ضابط صغير بنجمة واحدة يقلب ملفاته ولم يهتم كثيرا بوجودهما أمامه. أخذ العقيد يتعامل معهما كمن ينقلهما من رماد النار إلى النار. كان العواد يتابع الضابط الصغير منتظرا منه كلمة حول ما يجري، ووالده يفرك غضبا بيديه فينمو وهجا في صدغيه.

دخل أشخاص للمكتب المقابل لمكتب الضابط الصغير، وخرجوا، وبقي الباب مغلقا لمدة طويلة دون أن يستدعيهما أحد. ولكن الرجل الذي نهض بوجهه الضابط الصغير وحياه باحترام مبالغ فيه؛ كان شخصا يعرفانه ولذا تبادلا نظرات سريعة تحمل علامة استفهام وحيدة "هذا ليس مبنى أمن الدولة". لم يعرهما الرجل اهتماما ووجه تحيته للضابط الصغير فقط الذي قال "نعم ينتظرك سيدي". شكره ودخل

العقيد اليزاز المكتب وجلس الضابط إلى مكتبه ثانية. المكالمة السريعة التي تلقاها الضابط الصغير جعلته ينهض من مكانه يرتدي كابه العسكري ويطلب منهما أن يدخلا معه. تركهما في المكتب الواسع بعد أن ألقى التحية وغادر.

"اقعد" قال الرجل المدني الذي يجلس إلى المكتب موجها كلامه لوالد العواد تحديدا، وهي كلمة تستخدم نقيضا لكلمة "تفضل" المرتقبة. نظر إليه العواد بحنق ولكنه تظاهر بأن العواد لا ينظر إليه. "والدي ليس له علاقة بأي شيء". وكمن سيقوده للاعتراف بجريمة لم يرتكبها أي منهما. قال الرجل المدني. "ومن الذي له علاقة؟" "أنا والعقيد الذي إلى جانبك". لكن العقيد تدخل ليوقف الحوار عند هذا الحد. وعدم دخوله في التفاصيل التي لا يعرفها الرجل المدني. "والدي تقول احتراما لعمك. هذه طاعة جميلة منك" ولم يمنحه الرجل المدني فرصة للرد. "هل هو عمك أم والدك". "والدي" ورد والده "العم والد" "وليس أبا شرعيا" قال الرجل المدني. "ولكنه لا يعرف أباه ولم يره". "اسمع! القانون لا يعرف هذا. هل هو ابنك أم ابن أخيك". "هو ابن أخي". "إذن أنت زورت وكذبت وتحايلت وسجلت ابنا ليس ابنك في السجلات الرسمية للدولة". "فعلت كل هذا لأن والده مات وهو صغير". "أنت فعلت كل هذا ليحصل على الجنسية الكويتية". "فعلت كل هذا لكي لا يضيع". "والده لا يحمل الجنسية إذن" ولم يرد.

بدت الأمور واضحة الآن. لقد وجد العقيد مدخلا ينهي به قصة الرجلين التي صمت عنها غيره لكثرة الحالات التي تشبه حالته والأكثر سوءا ودرامية من حالته. وقف العقيد ليبدي شهامة مفتعلة. "سنتجاوز عن فعل الرجل، أنت تعرف الظروف حينها" موجها كلامه للرجل المدني. المهم أن يصحح الخطأ. كانت الأوراق معدة سلفا. طلب الرجل المدني من والد العواد، أو عمه الآن، أن يوقعها. كانت الأوراق كفيلة بإسقاط جنسية الابن وانضمامه لقوافل البدون وكأنه خطأ كتب بقلم رصاص وأعيد تصحيحه.

ولكن صدر عم العواد بقي حانقا وهو ينظر إلى الرجل المدني تارة والعقيد تارة أخرى. "لماذا لا تطبق قانونك على هذا الرجل؟" ورفع الرجل المدني نظره إلى العقيد "من تقصد؟" "ومن غيره، أليس هو ابن حلاّق الخرفان في جنوب العراق؟" وبسرعة خاطفة انهالت يد العقيد على وجه الشيخ فأطاحت بشماغه وعقاله ونهض العواد الذي كان يتابع المشهد منذ دخوله دون أن يجد جملة واحدة يمكن أن يقولها في هذا الضجيج القاسي. وقف بين والده والعقيد الذي طلب منه الرجل المدني أن يجلس وأن يحترم مكتبه كما قال. رفع عم العواد رأسه ولم يجد بأسا يحتمي به أو يدافع به عن نفسه. "تفضل" قال له الرجل المدني تستطيع أن تذهب الآن. أخذه العواد من يده بعد أن عدل هندامه وقبل أن يخرجا. "قل له

سأتزوج أخته ولو في آخر يوم من عمري وليفعل ما يشاء" موجها كلامه للرجل المدني وملقيا نظرة غضب إلى العقيد. هي كل ما يستطيع فعله الآن.

- 3 -

عصرَ يوم خميس، كان يحضر بروفة للفرقة تمهيدا لحفلتها الشهرية، حضرتها رشا هذه المرة دون أن تكترث بمراقبة شقيقها وسيارة التويوتا السوداء، كانت تجلس على مقاعد الزوار في بيت الفن وسط مجموعة من الأصدقاء المقربين لأعضاء الفرقة وفي لحظات توقف الفرقة لاستراحتها بين الفقرات، تقترب منه بحميمية غير مبتذلة وكأنها تشير للجميع بأنها حبيبته. حاول إخفاء خوفه مما سيحدث لاحقا ولكنه قرر أن يسير الطريق وليكن ما يكون. "لم أعد أمتلك ما أخسره". كان يقول في سره.

حين انتهت الفرقة من بروفاتها، قبل مغيب الشمس، بقيا جالسين في بيت الفن يتحدثان عما يمكن أن يحدث مستقبلا حتى طلب منه الحارس أن يغلق الباب. "سأخرج قبلك... اخرج بعدي". قالت وهي تودعه وتغادر. نادى العواد على الحارس "تعال نعد الشاي". ودخل هو والحارس المطبخ الصغير "جميلة جدا صديقتك". "ضع الإبريق على النار

واسكت". "هل هي غنية جدا؟". "لا أعرف، أين الشاي". "أنت خائف". "كيف عرفت؟". "يدك ترتجف". "أين السكر؟". "لا تخف كن مثلها". "مثل من؟". "صديقتك". "كيف أكون مثلها؟". "آه يا بني أنت لا تعرف قلوب النساء". "وأنت تعرف. اغسل هذه". "طبعا أعرف، لا شيء أقوى من قلب المرأة، لا شيء أقسى منه ولا شيء أرق منه". حين صب له الشاي، لاحظ العواد أن الوقت قد تأخر. "هل ستنام هنا أم تخرج معي". قال للحارس. "لا يهم. الرجل الذي لا امرأة له كل زاوية هي غرفة نومه". خرج العواد تاركا الحارس يتمدد على كنبة عريضة في المكتب الصغير المجاور للمطبخ.

حين خرج من بيت الفن استوقفه رجل بملابس مدنية قبل أن يكمل طريقه نحو الجهة التي يريدها. اقترب منه حتى أصبح إلى جواره تماما ليلاحظ العواد أن شخصا آخر يوقف سيارة التويوتا السوداء بالقرب منهما.

"إذا سمحت". قال الرجل الذي إلى جانبه. "نعم" وأخرج هويته ثم أعادها بسرعة إلى جيب دشداشته العلوي. "من أنت". "تفضل معنا". ترجل الثاني من السيارة وحاصره مع زميله. "إلى أين؟" فأكمل الرجل الذي يخاطبه "ستعرف فيما بعد". ورغم أن تلك هي الإجابة التي توقع العواد الحصول عليها. إلا أنه يفكر منذ متى والرجل يتابعه، منذ خرج من

منزله أو يراقبها هي بدءا من يومها حتى نهايته. لم يجد سببا يحيل الموضوع إلى مقاومة هي ليست من صالحه. فتح الرجل الثاني باب السيارة وأدخله بدفعة خفيفة على كتفيه رغم أنه كان يهم بركوب السيارة. اتجهت السيارة قاطعة الطريق الدائري إلى شارع الخليج العربي المحاذي للبحر. لم يتحدث إليهم الشاب في مقعده الخلفي. كان يعرف أن الأمور تسير نحو الأسوأ كعادتها معه. وهو يعلم أن القرار ليس بيد هذين الرجلين اللذين ينفذان مهمة الأخ الأكبر والصهر الذي لن يحقق له شرف مصاهرته طوعا ولن يسمح له اغتصابها عنوة. السيارة في اتجاهها لا تأخذ طريقا يؤدي إلى جهاز من أجهزة الأمن، إلاّ إذا كان هناك في جنوب البلاد ما لا يعرفه.

كان العقيد بلباس رياضي أزرق وحذاء رياضي وكاب بيسبول أبيض، غزا بعض الشيب فوديه وبدا مبتسما وحانقا في آن. وجهه العريض كورقة صفراء داكنة دائرية بحبتي بندق صغيرتين تحيطان بأنف ضخم أسفله شارب رمادي مدبب الشعيرات. يجلس في منتصف الصالة يعبث بجهاز التحكم ويدير محطات التلفزيون حين اصطحبه الرجلان إليه. هاهو مرة أخرى في مواجهته، الأخ الأكبر، الضابط القاسي، الرجل الذي يكرهه لأسباب لا يراها تستحق كل ذلك.

لم يبدُ على الرجل أي ملامح قسوة. أشار بيده للرجلين

أن يخرجا. ثم طلب منه أن يقترب أكثر. حين اقترب نهض الرجل بأدب "تفضل اجلس". جلس على كرسي من الجلد. "ماذا تشرب؟". "لاشيء... شكرا، من الأفضل أن ننهي هذا اللقاء".

"بالطبع أنا أيضا أريد إنهاءه... ابتعد عن شقيقتي!". "تستطيع أن توجه هذا الكلام لها". "لا أريدك أن تراها أو تلتقي بها". "لن تستطيع منعنا من ذلك، أدخلها السجن إذا أحببت". "أنت وقح وسأسجنك أنت لا هي". ثم نهض واقفا "كنت ظننت أنني أنهيتك في المرة الأولى ولكنك لم تستوعب الدرس جيدا". لم يكن ثمة فائدة ترجى من مجادلة الرجل المتمترس خلف موضعه العسكري ومكانته الاجتماعية التي يظن أنه يدير البلد من خلالها، لم يجد الشاب حديثا يثير به حنقه أكثر، ومن الأفضل أن يحتفظ العقيد الآن بحنقه الذي يداريه بابتسامة مكشوفة، وألا يتمادى الشاب في حديث قد يجرحه. سار في صالة الشاليه ولم يتحدث معه للحظات، ربما منحه فرصة لأن يهابه، أن يعده بأن يبتعد عن شقيقته ولكن العواد قطع الصمت. "هل لك حاجة بـي؟". "هل أفهم أنك ستستمر في طيشك؟". "سأسير إلى حيث قدري".

"سأكون بانتظارك هناك".

استدعى العقيد الرجلين من الخارج وطلب من أحدهما أن يقوده إلى الخارج وأمر الآخر. "توليا أمره ثم اتركاه في قريته". "كما تريد سيدي". "أخبره أنني سأقتله إن اقترب منها". وخرج الرجل دون أن يرد. حين وصلا إلى قريته كان الظلام قد حل، وأمام البيت المهجور تناوبا على ضربه حتى فقد الوعي ليتركاه ملقىً أمام البيت المهجور... ويرحلا.

عاد المجانين الأربعة "مرهش" من عملهم مساء إلى بيتهم المهجور ليجدوا الشاب ملقى إلى الجدار، حاولوا أن يوقظوه، همهموا فيما بينهم، دلقوا عليه ماء باردا صرخوا به، لم يستيقظ. فقرروا أن يحملوه بعيدا عن البيت ولكنهم تراجعوا حين صدرت منه نأمة خافتة تشير إلى أنه يستعيد وعيه. فتح عينيه ليرى الأربعة يحيطون به. "مرهش" قال. ووضع يده على خاصرته والألم يعتصر وجهه.

غادر البيت المهجور في ظهيرة يوم حار كنافذة زجاجية قُذفت بحجر ولم تتهشم. وضع يده أمام جبهته ليظلل على عينيه وطأة هذه الحرارة الموغلة في الوقاحة. أراد أن يشتم أم العقيد وأخته ويشتم أمه هو وأخته التي لم تلدها وزمنه البذيء الذي أوصله إلى خذلان كهذا.

عاد مثقلا بجراحات يسمع أنينها ولا يراها، ولم يود أن

يسمع أنينها والداه لتضيف إلى البثور المنتشرة على جسديهما دماملَ جديدة. دخل غرفته خلسة وأغلق الباب، تمدد على سريره، تأوه قليلا بوجع. انقلب على بطنه واضعا رأسه في كلتا يديه وأجهش ببكاء لا يسمعه أحد. "هل تعبت؟" صاح به الصوت. "هل تعبت؟" عاوده الصوت وهو يغمض عينيه على بللهما "هل تعبت؟".

ولم يرد.

لا يعلم إن كان قد نام فعلا أو أُغميَ عليه ثانية وهو يستمع لأصوات كموج يمور في رأسه وجواثيم تطبق على صدره ولكنها وحدها، حبيبته، التي لم تمر به تلك الليلة. لم تكن ألما.

اليوم هو الجمعة، يوم إجازته الأسبوعية، تذكر الآن وهو يفتح عينيه بهدوء. ورغم أن الغرفة مغلقة والستائر مسدلة رأى صورته في المرآة المقابلة ولم يتعرف عليها. جاءه ذات الصوت "هل تعبت؟" صرخ بوجهه "لا ليس بعد". وأعاد رأسه إلى الخلف مغمضا عينيه ثانية.

تذكر أنه أمضى ليلة البارحة في منزل الأربعة "مرهش" المهجور. واستعاد الألم الذي انتابه قبل أن يسقط عاجزا عن

الدفاع عن نفسه أمام الثورين اللذين افترساه بخفة لم تكلفهما عناء كبيرا. دثره أحد المجانين بفروة جلد الخراف المدبوغة ولفه جيدا حتى ارفضَّ ماء جسده كاملا وجفَّ جلده ثم صرخ "ماء" وابتسم المجنون في وجهه وهو يسقيه ماء من كوز إلى جانب عمود الليوان. عب الماء في جوفه فقام الثاني بدهن جسده بدهان ذي رائحة كريهة ثم أعادوا الفروة عليه تاركين وجهه بارزا كحيوان محموم. أحس بما يشبه الحريق ونار الحرارة، التي تنبعث من جسده المسجى كمصاب حرب، أقسى ألما من جراحات الركل والضرب التي تناوبت على أضلعه وجنبيه. نفض الفراء صارخا بألم "مجانين! أنا لست محموما". همهموا بينهم وكأنهم يتكلمون لغة لم يخترعها أحد من قبل وتركوه لشأنه وذهبوا لشأنهم. قبل أن يغادرهم قدموا له غداءهم؛ لكنه شكرهم ومضى تاركا ابتسامة على الشفاه الأربع كأنما أعيد طبعها أربع مرات على الوجوه الأربعة. كانت حالته وهو يخرج أفضل بكثير منها وهم ينقلونه إلى داخل البيت. "هل كان ذلك علاجا يعرفه هؤلاء المجانين". قال وهو يتحسس بقايا آلامه.

- 4 -

حين زاره فهد غانم في مساء ذلك اليوم كان العواد ينهض من الداخل ويتداعى، لا يجد مبررا حقيقيا لكل ما حدث، كان يعرف أنه يدخل صراعا من أجل الحب ولكنه لم يتوقع أن يكون صراعا بهذه المرارة وهذا العنف. ولا يستطيع فهد غانم أن يجزم إن كان ما ينوي العواد القيام به هو دفاع عن حبه ووسيلة وحيدة للابقاء عليه أم هو انتقام همجي لا يقل بربرية عن دفاع العقيد عن أخته وسمعة عائلته من رجل طارئ خارج ميزانه الاجتماعي. العواد نفسه بدت الأمور تتداخل في وعيه لها. يحاول أن يقنع نفسه بأنه لا يفعل سوى الإبقاء على حبه أما صراعه مع العقيد فهو صراع طبيعي يكسب منه جولة أو أكثر ولكن يجب ألاَّ يهزمه في النهاية.

"لقد كنت دائما ضدك في ما فعلته، الآن أنا معك". قال فهد غانم واثقا إن تلك ليست قناعة متغيرة طرأت عليه وإنما ردة فعل لما آلت إليه الأمور. "فقدت كل ما عملته طيلة هذه السنوات، فقدت كياني ووجودي وأخشى أن أفقدها أيضا في

لحظة يأس". قال العواد وهو يضع رأسه بين يديه ويكمل "أشعر الآن بأني لا أحد، لقد ألغى وجودي تماما". "ما زلت رجلا كاملا لا شيء ينقصك". يخفف عنه صاحبه. لا كلمات بالإمكان لها أن تعيد للعواد الإنسان الذي تم محوه. "أن تكون بلا اسم حقيقي وبلا أبوين حقيقيين، أن تسقط منك هويتك فأنت لست رجلا كاملا لا شيء ينقصه. أنت لاشيء". سأبحث لك عن عمل معي في الشركة". قال فهد غانم ولكن العواد نظر إليه بما يشبه السخرية. "سيلغي الشركة التي تعمل بها". يشعر الآن بأنه لعنة حقيقية تسير على قدمين، تصيب كل من يرتبط به. "وكيف ستعيش؟". "لاشيء سأعتمد على الفرقة، وسأركب باص 103، وأعيش كأنني لم أنهِ دراستي، كرجل أميّ لا يجيد سوى العزف". كان حديثا مؤلما لفهد غانم ربما أكثر من إيلامه لقائله.

"فلنخرج للمقهى". قال العواد كمن يغير المكان والحديث. قبل أن يخرجا كشف عن ظهره وجنبيه لصديقه، لم يجد فهد غانم سوى غضبه يتسرب من عينيه. "رغم كل هذا ما يؤلمني هو صوت الكف الذي ضرب به والدي، صوت الكف يعذبني... يكاد يقضي علي، صورة والدي وهو يقف مذهولا ينتظر مني أن أرد، أن أفعل شيئا وصوته الذي لم أسمعه وهو يلعنني يطاردني كما تطارد الجبان شجاعة لا تمسك به". احتضنه فهد غانم ومنحه فرصة لأن يبكي على

كتفيه، ولكنه لم يبكِ.

"تعال نخرج، تستطيع أن تمشي على قدميك". ارتدى العواد دشداشته ورمى غترته على كتفه، دس قدميه في نعاله الصيفي، وخرج يجرُّ رجليه جرا إلى حيث سيارة فهد غانم. ركب إلى جانبه وسأله ألا يذهب به للمقهى، وأن يتجه نحو البحر "سألقي بكل جراحات جسدي في البحر وسألقي بجراحات روحي أيضا في هذا الملح".

تجرد من ثيابه مبقيا سرواله الأبيض الطويل "لا، خذ إلبس هذا" وألقى إليه فهد غانم "شورت" رياضيًّا قصيرًا من صندوق السيارة، ولبس هو آخر مشابها. دخلا المياه التي لسعتهما ببرودة ناعمة ثم انتهت دافئة بما تبقى من صهد يوم ساخن من أيام مايو. استلقى العواد على ظهره، نظر بعيدا إلى النجوم، إلى السماء الأعلى، إلى أعلى من السماء الأعلى، شعر بالهضيمة والغبن، وتسربت دمعة صغيرة من زاوية عينه تحدرت إلى أذنه اليمنى، ومنع الظلام صديقه أن يراها. لم يقترب منه فهد غانم. تركه يناجي ذاته المهزومة بما يمكن أن يعيد لها كيانها، وتظاهر بأنه مستمتع بالماء الدافئ. أخذ الماءُ، العوادَ، بعيدا عن الشاطئ، وكان كلما فكر في حل خانته الظروف المحيطة به. أن يهرب معها إلى بلد آخر ويتزوجها هناك يعني أنهما لن يعودا أبدا إلى هنا. و"هنا"

يعني كل شيء، أن يترك رجلا يشيخ بحرقة ليس سوى الموت يطفئها هو فعل جبان آخر يضاف إلى أفعاله الجبانة، وألم أشدُّ من صوت الكف الذي لم يغادر أذنه ولن يهجر منام والده. تتضاءل خياراته ليتذكر صديقه الذي يسبح قريبا من الشاطئ الآن "لا يوجد خيار حر يا صاحبي أنت تخدع نفسك، الخيار الحر وهْم وهْم وهْم".

عاد العواد ثانية إلى صديقه وهو يعوي من الداخل كذئب جريح. خرجا من الماء وافترش فهد غانم حصيرا بلاستيكيا ومسندين "تعرف متى آخر مرة جلسنا هنا" لم يرد العواد. كان فهد غانم يريد حوارا حتى وإن كان تافها. "إذن أنت لا تريد أن تتذكر، سأذهب لأحضر عشاءً". ارتدى ملابس جافة ومشط شعره "هل أصبحت تعيش في سيارتك؟" وعبر شارع الخليج العربي مهرولا إلى المطاعم التي على الرصيف المقابل. اشترى سندويتشات خفيفة وعلبتي مشروب غازي. تذكر العواد أنه لم يأكل منذ زمن طويل "تعلم أنني لم آكل شيئا منذ يومين تقريبا. "كُلْ إذن!".

حين عادا إلى البيت، كان الوقت قد تأخر ورأى العواد أن ذلك حسن كي لا يرى أهله. "خذ!". "ما هذا؟". رأى العواد يد فهد غانم حين امتدت إلى جيبه "لا لست بحاجة لشيء". لكن فهد غانم رمى المبلغ من الشباك ومضى في طريقه.

"انتظر!" "مجنون، ولكنني فعلا بحاجة له". كان يقصد فهد غانم وليس المبلغ الذي تركه؛ لكنه كان أيضا بحاجة للمبلغ.

تمدد على فراشه لم يكن هناك حل ينهي كل شيء سوى ما نوى القيام به، المهم الآن أن توافِقه عليه.

الفصل السادس

بدايات أكثر إرباكا

- 1 -

"يجب أن أراك" قال العواد لرشا وهو يتصل بها في مقر عملها.

"أراك في مقر عملي". قالت رشا للعواد. لم يسبق أن التقيا هناك، ولا يعلم إذا ما كان العقيد يتربص بهما أيضا وينتظره رجاله عند مدخل البنك، ولكنه قرر الذهاب.

كان مدير الفرع قد قرر منح رشا مكتبا صغيرا مستقلا وهو امتياز لا يحصل عليه الموظف عادة إن لم يكن له جد لأمه كجدها لأمها. "لا أريد أن أحرجك" قال العواد. ولكنها لم تكن تحسب هذه الأعين الذكورية التي تترقبها برغبة، والنسائية التي تتابعها بحنق تبدو مبررا لعدم لقائها به. "تعال كعميل للبنك، سأفتح لك حساب شخصي". يبدو أن الحيل ما زالت متوافرة لعبور حقول الفخاخ المنصوبة من حولها. حين دخل البنك يحمل ملفا صغيرا. توقف أمام فتاة الاستقبال.

"رشا اليزاز" قال وبلع ريقه. وضعت القلم جانبا وابتسمت

في وجهه كآلة بلهاء تتكرر ابتسامتها مع كل طيف يقف أمامها فلم يعد لها معنى محدد. "لديك موعد معها" قالت وهي تحافظ على ذات الابتسامة التي يبدو أنها تدربت عليها جيدا. "نعم سأفتح حسابا شخصيا". أشارت إلى غرفة صغيرة لها واجهة زجاجية تطل على صالة استقبال العملاء وشاشة الأرقام المعلقة فوق رؤوسهم. "تفضل. المكتب الذي أمامك مباشرة". في تلك الأثناء كان ينظر إلى رشا وهي تنظر إليه وفي داخلهما ضحكة سخرية مكتومة لم تنفجر حتى التقيا. "رشا اليزاز" قال لها وضحكت وهي تنهض "نعم، وصلت". وضع الملف أمامها. كان تمثيل الدور سهلا ولا يحتاج إلى عناء.

"لن أعتذر عما حدث لأنني لست مسؤولة عنه". "لا عليك. لم أهتم بما حدث، أنا قمت بما يجب أن أقوم به. ما سيأتي يعتمد عليك". كانت تنظر من وراء كتفيه إلى الزجاج الفاصل بينها وبين جمهور المراجعين والموظفين، والذين لم يهتموا بوجوده كما لم يهتموا بوجود من سبقوه في مكتبها ولن يهتموا بوجود من سيأتي بعده. "هل تتوقعين أن يدخل الآن". "أتوقع منه كل شيء". "لا تهتمي كثيرا به، لن يملك شيئا". "أنا خائفة منه عليك". "المهم أن تكون لدينا الشجاعة للفعل، بعدها لن يفعل شيئا". ذلك هو الفعل الوحيد الذي بإمكانه أن يهزمه. هو نقطة ضعفه الوحيدة وهو ما يدافع عنه مباشرة في

واقع الأمر. في حال انهار هذا السد أمامه فليس أمامه سوى الاستسلام. لكن القرار كان صعبا عليها، فهي أيضا لا تملك وسيلة للدفاع عن كيانها كأنثى سوى هذا السد، وما يمكن ترميمه لاحقا لا يلغي انهيارات أخلاقية وسلوكية ونفسية ستبقى ندبا صغيرا في ما سيأتي من أيامها. أما الفشل في ترميمه، لأي سبب محتمل، فيعني نهايتها. ولكن عليها أن تبدأ هذه البدايات غير المحكمة كما يجب.

"أسلمكَ نفسي!". "وأنا أسلمكِ نفسي!". "أنا عذراء". "وأنا أعذر". "أنت رجل". "وأنت إنسانة". "تقنعني لأنك تحبني". "أقنعك لأنني أحبك". "أفكر" "رفضك يعني فراقنا". "لا، لن أفكر". "اتفقنا. سأجهز كل شيء". "سنعود للنقاب". "أنا خائفة، إنه حولي في كل مكان. أنا أعرف". "وأنا أعرف، ولكن لا طريق للعودة". "سيؤذيك". "لا يستطيع أكثر، لقد فعل كل شيء، يعرف الآن أنه أبعدني نهائيا ليس عنك فقط ولكن عن حياتي كلها". "سأنتظرك في شقة فهد غانم مساء الأربعاء". "أرجوك لا. أنت تنتحر ببطء". "استمعي جيدا لما عليك أن تفعليه". "ولكن...". "اهتمي بحسابي الشخصي".

ترك الملف على المكتب وغادرها، حين فتحت الملف وجدت وردة جوري حمراء هرسها بالضغط عليها بيديه وهو يحدثها وسال أحمرها على دفتي الملف.

- 2 -

صباح يوم عادي من أيامه التي بدأت تتشابه منذ بدأ يعي حقيقته الجديدة، كان شهر يوليو على الأبواب بلهيبه المرتقب، خرج من غرفته مارًّا بوالده الذي يجلس أمام غرفته في الحوش المفتوح لبهاء السماء الزرقاء مستقبلا شمس الصباح، منتظرا كوب الشاي بالحليب الذي تعده العجوز التي لم تخرج من مطبخها بعد، ولم تسأله سؤالها المكرر كل صباح "هل تأكل شيئا؟" فيرد كما في المرات السابقة" لا ليس الآن". يتذكر أن والده طلب منه كعك "البقصم" قبل ثلاثة أيام كما تذكر ذلك بالأمس وهو يراه يجلس أمام غرفته منتظرا كوب الشاي بالحليب ونسي في آخر النهار. يعده هذه المرة – بينه وبين نفسه – ألا ينسى في آخر هذا النهار.

لاحظ أن والده يشيخ بسرعة منذ ذلك اليوم البغيض، والذي يتمنى لو أن النسيان مرتبط بأحد أعضاء جسده التي يمكن التخلي عنها لبتر هذا العضو دون أن يندم عليه، ووالده يجلس كمن ينتظر دوره في النهاية التي تتأخر دون سبب.

يجلس أمام أرواح تتطاير في الفضاء دون أن تمد يد ملك الموت قبضتها إلى روحه البائسة. يدخن بشراهة لعل شريانًا ما يتعطل نبضه فيتوقف كل شيء. لم يحدّث والده حديثا طويلا منذ ذلك الحين، ولم يرفع بصره في عينيه. كان هو أيضا شخصا جبانا يقع تحت سطوة الخوف والحب، ولا يستطيع أن يحدد أيهما منعه من الدفاع حينها عن كرامة والده. كان يعرف أن صوت الكف الذي هوى به الضابط الكبير على وجه والده ذلك الصباح الكئيب أبقى كآبة ليس له أن يتخلص منها وليس لها أن تفارقه. وما سيقدم عليه اليوم ليس انتقاما لصوت الكف على وجه والده ولكنه انتصارا للعلاقة التي دخلت مسارا لا يحتمل العودة. العلاقة التي يجب أن تنتهي كما يجب للعلاقات المشابهة أن تنتهي، حتى وإن اختلفت الطريقة التي ستنتهي بها مقارنة بسواها.

لم يكن ليهتم كثيرا بنفسه، دخل محل حلاقة في الجمعية التعاونية حلق ذقنه وقص شعره ثم عاد إلى البيت ليستحم حاملا ملابسه البيضاء من المصبغة ارتدى ملابس داخلية نظيفة ودشداشته البيضاء ولم يعتمر شيئا على رأسه وخرج بسرعة متجها إلى موقف سيارات التاكسي. لا يعلم لماذا رفض أن يرافقه فهد غانم في هذا اليوم الذي تم تخطيطه معه منذ أسبوع تقريبا. لكنه فكر كثيرا بأن يجنب صاحبه متاعب هو في غنى عنها، يكفيه أن منحه شقته لتنفيذ هذه المهمة

التي يراها حقيرة؛ ولكن لا بد منها. وما يفكر فيه أكثر الآن هو كيف سيمتلك الشجاعة اللازمة لتنفيذها. ما يحاول أن يتخلص منه هو صورة الأخ الشقيق، الأخ الرعب الذي كان حاجزا حقيقيا بين لقاء جسدين. لو استحضرها فهو ينتقم منه عبر شقيقته وهو لا يريد لهذا الشعور أن يسيطر عليه.

كانت حبيبته على الجانب الآخر تعد نفسها للحظتها المرتقبة. أنهت أمورها النسوية دون أن يشعر أحد بما تفعله. دخلت صالونا نسائيا غير الذي اعتادت أن تمارس فيه ووالدتها طقوسهما النسوية. طلبت من الموظفة أن تجهزها كعروس ولم تهتم كثيرا بنظرات الاتهام التي ترمقها. حين تجردت من ملابسها، وفي أول ملامسة للموظفة تمنت الموظفة أن تكون رجلا، في وضع كهذا تتمنى الأنثى التي خبرت أجساد النساء أن تضمحل بها أشياء وتستطيل أخرى. وكانت تعض على شفتها السفلى كلما انسابت يديها في تضاريس هذا الجسد الغارق بالفتنة. غادرت الصالون النسائي تلف نفسها بعباءة من الحرير واتجهت إلى البيت. لم يكن أحد هناك سوى والدها يجلس مع أحفاده في صالة المنزل، لم يهتم بدخولها كما لم يهتم بخروجها ولم يهتم بشيء سوى الإمعان في التفرج على كل ما يجري حوله. يعرف ألاَّ دورًا له يلعبه في هذا السجن الذي أحكم ابنه القبضة عليه، دون أن يوكل إليه حتى دور سجان فيه. صعدت غرفتها في الجناح الذي

يضمها ووالدتها، أنزلت حقيبة يد رياضية وضعت فيها تفاصيلها النسوية، قميص نوم جديد اشترته للمناسبة، ملابس داخلية، عطر، وصندوق صغير لزينتها. طلبت من الخادمة أن تنقلها إلى سيارتها في مرآب السيارات الذي أوقفتها فيه قبل قليل. حدثت نفسها "من تتزوج عصرا سوى مجنونة مثلي". وهي تعلم أن ما تقدم عليه مغامرة قاسية بحق الجميع، ولكنها المغامرة الوحيدة الممكنة للتخلص من سطوة الشقيق والإيفاء بعهدها للرجل الذي أحبته. ما ستفقده اليوم ليس أكثر أهمية مما فقده حبيبها حتى الآن. وفي لحظات شاردة كانت تفكر كيف سيكون الألم الذي يباغتها بعد العملية. فلا هي مرت بتجربة كهذه من قبل ولا هو يعرف كيف يتعامل مع امرأة في احتفالها الأول بانتفاضة الجسد.

أدارت محرك سيارتها ثم وضعت رأسها على المقود وبكت. كانت تود أن تصطحب أمها لتحتفل معها بعرسها الذي ستراه الأم عارها الثاني، ربما لن تمانع في ذلك فقد مرت الأم بتجربة مشابهة، وربما هي الوحيدة في الأسرة التي أفضت لها الأم عن تجربتها. ولكن الأم لم تصل الأمور معها إلى ارتكاب الفعل كاملا. ترددت ثم قررت أن تمضي وحيدة في طريقها الذي اختارته. ولتكن كل الأمور التي ينبغي ترتيبها في الحالات الطبيعية قبل الفعل الجسدي، يتم ترتيبها بعد الانتهاء من الفعل.

قادت سيارتها حسب خطة العواد. "اركني سيارتك في المجمع التجاري، ضعي نقابك وعباءتك واخرجي من الباب الآخر للمجمع، استقلي سيارة أجرة إلى البناية سأكون بانتظارك"

كانت تلك خطة بسيطة وسهلة وأبقت سيارة التويوتا السوداء في مواقف المجمع التجاري تراقب كتلة الحديد التي لن تتحرك لفترة من الزمن لم تكن مهمة صعبة للرجلين اللذين كانا يدخنان ويشربان المشروبات الغازية ويقودان السيارة من موقع إلى آخر دون أن تغيب كتلة الحديد عن ناظريهما.

جهز فهد غانم لصديقه المكان الذي تم ترتيبه ليحتفل به الزوجان، زين الصالة بالجوري والزهور الوردية والليلك وقام باستبدال أغطية الفراش في غرفة النوم، ملأ ثلاجة المطبخ بالمشروبات واتفق مع صاحب المطعم على غداء يرسله في ساعة حددها إلى الشقة، نظف الحمام بنفسه وعطره ببخاخ البخور واللافندر وألقى كل تفاهاته التي يتركها عادة دون أن يهتم أحد بها في كيس قمامة كبير أخذه معه وهو يغادر الشقة بعد أن ترك مفتاحها لصديقه في المكان المتفق عليه.

ركب العواد أول سيارة تاكسي ليكمل عدد الركاب الخمسة محشورا بين رائحة العرق للرجل الذي بجانبه والسائق

أمامه. "التكييف إذا سمحت" "لا يعمل" كانت عادة سواق تاكسي سيارات الشيفروليه الحمراء ألا يشغلوا أجهزة التكييف حرصا على محركات سياراتهم. "أنزل زجاج نافذتك" وفعل. لا شيء سوى هبوب السموم يلفح وجهه الحليق.

- 3 -

في مكتبه كان العقيد يحدث مصدره "لا بد أن يقع" ولكن الرجل أكد له أن العواد ينام في الشقة لوحده أحيانا وحين يجهز فهد غانم ليلة نهاية الأسبوع تحضر معه فتاة واحدة ولم يحدث أن كان العواد معه. "لا بد أن يقع، إنه شاب ولن يختلف عن صديقه". "نحن نراقب الشقة جيدا" أترك مصدرا متواجدا دائما أمام الشقة. "إنه متواجد بحكم عمله هناك" لم يكن مصدره سوى حارس البناية التي تقع فيها شقة فهد غانم. وكان بالإضافة لمهمة الحراسة التي لا يكسب منها الكثير، كان يوفر الخدمات الأخرى، يغسل السيارات، يلبي طلبات السكارى من البقالة القريبة، وأحيانا لا يمانع بأن يمارس مهام لا أخلاقية. وارتباطه بالأمن كان يمنحه غطاء يبعد عنه أذى عيون رجال مباحث الآداب. أما ارتباطه بالجهاز فكان يجعله رجلا مهما بإمكانه أن يتحكم بمصائر هؤلاء الخارجين عن القانون وإن لم يسيئوا إلى أحد.

كان الحارس يراقب الفتاة التي تدخل البناية، وبحكم

خبرة عينين تعرف النساء جيدا، أدرك أنها لم تأت إلى هنا من قبل وأنها أجمل من اللواتي ترددن على البناية رغم دثارها الأسود، كان يكفيه أن ينظر إلى كعب ساقها ليدرك أنها فاتنة رغم ما يحاول أن يخفيه نقابها وتبرزه العباءة التي تلتصق بجسدها. كانت تتردد في بصرها وتتلفت كثيرا وهو غالبا فعل لا تفعله المترددات على بنايته واللواتي ينظرن إليه بإحدى النظرتين: التجاهل أو الاحتقار. حين استقلت المصعد تبعها بخفة على السلالم وحين توقف المصعد في الدور الذي يسكنه فهد غانم عرف أنها الطعم الذي لم يكن للعواد أن يقاومه. كان يشعر بشيء يضايقه في صدره ولكنها المكافأة التي وعد بها. "ستكون أهم مصادرنا لو أوقعت به". دخلت الفتاة الشقة وهو يتابعها من باب السلم المطل على أبواب الشقق الأربعة. هبط إلى الأسفل واتصل من غرفته.

- هل هي معه الآن؟

- نعم دخلت وأغلق الباب.

- لحظات وأكون عندك.

تلك المرة الأولى التي يحتضنها بها حين أغلق الباب خلفها. دس أنفه في عنقها وارتجف جسديهما معا. أمسك

بيدها وعصرها بحنو بين يديه. حاول أن يقبل فمها لكنها أزاحت شفتيها فمرت شفتاه على خدها، وتوقفتا تحت أذنها فدفعته عنها. "إصبر حتى أرتاح قليلا". وجلست على الكنبة العريضة بينما ظل هو واقفا ظهره إلى الباب ينظر إليها وهي تجمع قواها وتتنفس بسرعة. ألقت برأسها إلى الخلف ونثرت ليل شعرها على مسند الكنبة. أعادت نظرها إليه، عميقا في عينيه وبكت.

عليه تهدئة نفسه أولا قبل أن يهدئ من روعها. لو كان في وضع أفضل لفعلا ذلك بهدوء أكثر وبحب أكبر، ما سيفعلانه الآن أشبه بالانتقام من براءتهما. اقترب منها ومسح دموعها بإصبعين وقبّل جبينها. "إذا لم تستطيعي فلنتوقف هنا!". "أفعل هذا لأنني أريدك، ولأننا سنفعله الآن، أو غدا".

– هل أنت متأكد؟

– نعم يا سيدي إنه مع فتاة الآن ووحدهما في الشقة.

– انتظرا أمام باب الشقة، لا تتركاه يغادرها ولا تقتحماها!

– حاضر سيدي!

- سأكون عندكما.

اغلق الجهاز "وقعت يا عواد الكلب" قالها وهو يحرك قبضة يده في الهواء. "وقعت وانتهت حكايتك معي إلى الأبد". اتصل بضابط مباحث المنطقة. كان شابا في رتبة نقيب "حسنا سأنتظرك أمام البناية، نعم أعرفها جيدا بالطبع". وضحك النقيب وهو يغلق الهاتف "أعرفها... أنا الذي أعرفها".

"سأغير ملابسي، لا تدخل حتى تسمعني أناديك" حاول أن يبتسم، حاولت أن تبتسم، لم يكن بالإمكان. بدت اللحظة التي يعيشانها خارج سياقها المعقول، كأنما يفعلان حبا بالإكراه. حين تجردت من ملابسها وارتدت قميصا خفيفا بدت رغبة تجتاح الحالة التي كانت عليها وتغيرها بشيء من الشبق الخفيف. فتحت الباب تناديه، كان مرتبكا مذهولا وهو يتابع تفاصيل جسدها. تجرد من ملابسه وحين التحم بدفء جسدها خانه السائل الدبق الدافئ، احمرَّ وجهه فتراجع ليجلس على حافة السرير يضع رأسه بين يديه.

"لا عليك أنا معك لن أترك فرصتك تهرب منك". ولكن الفرصة كانت قد تلاشت تماما وهو يستمع لصوت يد تدق على الباب كمن ترغب بأن تحطمه. حاول ألا يفتح الباب،

لبسا بسرعة وارتباك "لحظة واحدة" يخاطب الجنون الذي يقف خلف الباب.

- ابقوا هنا

قال العقيد لمجموعته التي ترافقه.

- أنا أريده لي.

حين فتح الباب رآه. لم يكن مبتسما ولا متجهما. كان ساخرا فقط. "الآن وقعت". نظر في وجه العقيد الدائري مبتعدا عن التركيز في عينيه، ركز في الشامة التي في وجنته وكأنها انفجرت الآن فقط إلى ندب سوداء غطت مساحة غير متناسقة من وجهه. لم تتحرك يد العقيد إلى وجهه لم يلكمه كما توقع ولم يفرغ سلاحه الذي يضعه في مكان ما ربما ملتصقا بقدمه اليمنى. لم يبد العقيد بالنسبة له مهتما بوجود شقيقته معه. عاد العواد إلى الصالة وبدلا من أن ينهار تماما أمامه جلس لا يلوي على شيء. "كما تريد إنها في الداخل لم أقترب منها". لم يفهم العقيد من يقصد. هو يعرف أنها بالداخل وهي لم تكن لتهمه في شيء، كان يريده هو. أن يضع أمام شقيقته حبيبا ماجنا مستهترا لا يليق بها ولا باسمها. بدأ العقيد يشعر بأن العواد يقصد شخصا بعينه

شخصا يهم العقيد. "تقصد من بالداخل لا تقل لي أنها رشا".

قبل أن يهز العواد رأسه بنعم كان جسده كله يهتز تحت قبضة العقيد. نفضه من يده إلى الكنبة مرة أخرى. "سأقتلك". ولم يرد العواد. هرع إلى الباب حين فتحه كانت تقف خلفه تنتفض. كان يود أن ينهي أمرهما معا. لكنه وبحكمة اكتسبها بوراثة لا يعلم هو شيئا عنها تراجع وجلس إلى السرير. "ما الذي تفعلينه هنا؟". "لم يحدث شيء. كنا نتحدث فقط". "ليس علي أن أصدق أو أكذب، المهم أن ننهي هذا الموضوع بسرعة. إبقي هنا حتى أعود".

خرج العقيد إلى الصالة، حاول أن يبدو أكثر اتزانا. "اسمع ستخرج معي. لم يكن معك أحد هنا. هل فهمت؟" وخرجا معا. اقترب منه رجاله. نظر إلى رجله الذي ينتظر مشهدا فضائحيا. "في المرة القادمة كن دقيقا، للأسف لم يكن معه أحد". حاول الرجل أن يتكلم ويصرخ بالحارس لكنه فهم إشارة العقيد بسرعة وعرف أنه لا يريد كشف مصدره. اعتذر من ضابط المباحث وصرفه مع العنصر الذي كان معه. ثم وجه كلامه إلى رجله والعواد "تستطيعان الذهاب الآن". وافتعل اعتذارا من العواد الذي غادر البناية إلى مقهى قريب مانحا العقيد وقتا كافيا ليعود ويصطحب شقيقته إلى المنزل.

الفصل السابع

نهايات مرسومة بدقة أكثر

- 1 -

حاول العقيد أن يكون أكثر حزما مع شقيقته، ولكنه واجه ضراوة لم يتوقعها من الأم. "نعم أنا سمحت لها أن تلتقيه". "أنت عا..". ولم يستطع أن يكمل الكلمة في وجه أمه. "قلها، أنت تراني عاهرة وسكيرة ولكنني أنجبتك". "سأرتكب جنايتي الأولى إذا ظننت أنها ستتزوجه". "لا تستطيع أن تتحكم بنا، ستفعل ما تريد وتتزوج من تريد". لم تكن رشا أخبرت أمها بنيتها عما كانت ستفعله ولكنها ارتاحت أن ثقلا عائليا كبيرا كأمها يقف إلى جانبها. حين غادر العقيد المنزل غاضبا التفتت نحوها "كنت سأزوجك منه بطريقة أفضل".

كان ذلك إيحاء بأن الأم ترغب أن تشاركها رشا كل تفاصيل حياتها وخططها الفاشلة، حتى الآن، وهو ما توقعه العقيد أيضا، كان يشعر بأن الأم لن تمانع أن تلتقي رشا بعشيقها في جناحها الخاص. وكان عليه أن يسلك طريقا أخرى في القضاء عليه.

بقي العواد ليلته تلك في شقة فهد غانم لا يعلم ما الذي يمكن أن يحدث لرشا الآن. في منتصف الليل جاء صوتها "لا تخف لم تسمح له أمي بأن يمسني". "أشعر بأن كل العيون التي أراها تراقبني". "لا عليك. نم جيدا، غدا سيكون أفضل. سنبتعد قليلا هذه الأيام حتى تهدأ الأمور". "حسنا. ألن تأتي إلى أمسية الخميس". "لا من الأفضل أن نبتعد". أغلقت الهاتف. حاول أن ينام، كان وجه العقيد العريض والشامة المنفجرة في وجنته تطارده.

الوقت عصرا رغم اعتقاده بأنه لم ينم، وأن الوقت مازال فجرا. أيقظه صوت فهد غانم وهو يصرخ به معتقدا أن الرجل أنجز مهمته ونام كما ينام عريس "مبروك". نهض العواد من السرير "مبروك على خيبتنا" "ماذا تقصد؟" "سأقول لك كل شيء". اغتسلَ ولبس ملابسه وطلب من فهد أن يذهب به إلى البيت لإحضار عوده استعدادا لحفلة الليلة.

اجتمع أعضاء الفرقة في بيت الفن قبل صلاة المغرب ورتبوا أماكنهم ومقاعد الجمهور وتأكدوا من الصوت والتجهيزات الكهربية والإضاءة ثم جلسوا في دائرة صغيرة في منتصف المنصة فيما جلس العواد وفهد أمام الباب الرئيسي "ألن تحضر رشا الليلة؟" "لا. تريد أن نبتعد قليلا". "نعم. ذلك أفضل". ثم أكمل فهد غانم "تعلم. إنها تحميك دائما". كان

يعلم العواد أن العقيد يتردد في ارتكاب أي حماقة تشوه سمعته وأنه لا يكترث به ولا برشا وإنما بنفسه فقط. لا يريد أن تتلطخ سمعته وهو يعلم أن الأسرار في البلد تنتشر بسرعة حتى يكاد يعرفها الدجاج. ولا تمتلك البيوت مفاتيح أسرارها.

بدأ الجمهور يملأ القاعة واختفى أعضاء الفرقة خلف الكواليس يستعدون للأغنية الأولى التي يسبقها عادة عزف منفرد للعواد. وضع العواد كرسيه في منتصف المنصة وتركه خاليا حتى يلقي رئيس الفرقة كلمته التي لم يغير كثيرا في مضمونها منذ أنشأ الفرقة.

"ليس لي مزاج أن أعزف شيئا" قال العواد لفهد غانم. "ستعزف. حين تكون في أزمة يكون اللحن حرا" هزّ رأسه رغم أنه لا يوافق بداخله ما قاله فهد غانم. فهو يعرف أنه لن يعزف جيدا حتى يكون حرا من ضغوط حياته ومصائبها المتتالية. "إعزف لها وكأنها أمامك... إعزف لها كما يليق بها". ابتسم وتوجه إلى المنصة ولم يكد الجمهور ينهي تصفيقه وترحيبه به حتى دوى صوت انفجار في الجانب الآخر من شارع الخليج قبالة بيت الفن تحديدا. كانت الأصوات تصرخ باستغاثات غير واضحة، اختلط عويل النسوة بصراخ الأطفال وأصوات الشباب بهلع الفتيات، خرج الجمهور متدافعا إلى الخارج وهم يصرخون "الانفجار في

المقهى الشعبي". حين خرج العواد وفهد غانم كان الشارع الذي أمامه مرتبكا، حيث يصعب تمييز الذين يهربون من المقهى من الذين يهرعون إليه. بدأت أصوات سيارات الشرطة والإسعاف تقترب حين وصلا إلى المقهى ليشاهدا منظر الأطفال الذين امتزجت لحومهم بالعشاء الذي أمامهم، وستة قتلى في منتصف المقهى ومصابين هنا وهناك.

في حالات كهذه تسمع أحاديث كثيرة ولا تقتنع بأي منها، لم يستطع أحد أن يقول أكثر مما يعتقده هو، وبناء على توجهه الفكري والجهة التي ينتمي إليها في هذه الحرب القذرة. ولم يكن للعواد وفهد غانم رأيان مختلفان فيها؛ ولكنهما فضلا الصمت، الصمت هنا هو الموقف الأكثر جرأة حين يغيب العقل.

تدافع رجالات شرطة ورجالات دولة إلى المكان الذي بدا كمشهد سينمائي تدخله فئات بشرية مذهولة وتخرج منه أكثر ذهولا. أصوات في البعيد تتقاطع مع شتائم وتهديدات آنية لا تتجاوز مدى الصدى الذي يردّها بتهكم وازدراء أحيانا. كان العقيد اليزاز في المشهد يتحدث بذهنين مغايرين يعد المسؤولين بالقبض على الجناة خلال أقل من يوم، ويحدث نفسه بما يمكن أن تكون عليه الأمور التي سيرتبها فيما بعد كما يشتهي. تم إخلاء المشهد من المارة وحاصرت الشرطة

المكان وكأن العقيد لمح شابا يشبه غريمه يعبر المشهد إلى الخارج، لم يستطع في الظلمة أن يحدد إن كان هو أم لا. وسواء رآه في المشهد أم لم يره فهو لم يغب عن خياله منذ ليلة أمس. استدعى العقيد مصدره وزميله وقبل أن يغادر المشهد الذي غادره الجميع عدا رجال الأدلة الجنائية والأرواح التي تودع أيامها.

كان العقيد، عبدالرحمن اليزاز، يرتدي ملابسه الرياضية حين هرع إلى موقع الانفجار؛ يحيط به مرافقان لا يتركانه أبدا، يضع يديه حول وسطه العريض ويهمس إليهما:

"أريده أمامي الليلة، لا أريد أن يشعر بكما أحد، لا تتركاه يدخل البيت"

"من الذي تريده يا سيدي؟"

"العوّاد... العوّاد"

العقيد مخاطبا الرجلين اللذيْن غادرا المكان إلى مهمتهما اليسيرة.

- 2 -

يسحبه الرجلان من قدميه على بلاط الأرضية يلقيان به وهو بين الإغماء والوعي في غرفة الحجز الخانقة. كان الصوت الوحيد الذي صاحب حركة إلقائه في جوف الغرفة هو صدى كلمة "كلب" وصرير المزلاج الذي أغلقه أحد الرجلين من الخارج.

يفقد الآن احساسه بالزمن، كم من الوقت مرَّ عليه حتى اللحظة التي بدأ يستمع فيها لأنينه الداخلي، وكأنما يستمع إلى رجل آخر يئن إلى جواره. يمرر يده النحيلة على أضلاعه ببطء يتوقع أن تسقط أصابعه في هوة ما، يمرر يده على أسنانه كمن يتفقد حالة مصاب لا يعرفه وحين يعود بيده من فكه العلوي إلى أنفه ليشم رائحة السائل الدبق الذي التصق بها يرجح أنه دم، لا يكاد يراه في الظلمة ولا يشعر بألم في مكان النزيف، أو هو ألم أقل حدة من آلامه الأخرى التي تنتاب جسده.

كان مستلقيًا على ظهره، تلك الوضعية التي تركه عليها الرجلان، دون أن يحدد الوقت الذي هو فيه الآن، الوقت الذي لم يعد مهما تماما وهو يبدو أنه زمن لا يمر هنا كما يمر في الخارج، الزمن هنا مرتبط بالمكان الذي هو فيه وهو ثابت كما هو مكانه الذي حُدِّد له: غرفة مظلمة بجدران ربما كانت بالأمس أكثر التصاقا به. منذ أفاق لم يستمع إلى أحد اقترب منه أو مرَّ من أمام الغرفة، ولا يرى شيئا خلف الباب، لا يرى شيئا سوى الباب الحديدي وفتحة صغيرة في أعلى الباب الحديدي بوسطها ثلاثة قضبان حديدية، لا يستطيع أن ينهض ليرى ما خلف الباب ولو نهض لن يستطيع أن يطل من الكوة المرتفعة أعلى من قامته. ولكنها الكوة الوحيدة التي يأتي منها الضوء والكوة الوحيدة التي يتخللها الهواء إلى رئتيه المتعبتين والكوة التي يصل منها الصوت إلى مسمعه الذي لم يكتشف حتى الآن إعاقته، إنها كوة الحياة الوحيدة دون أن يفكر بذلك. كان يريد قليلا من الماء حاول أن يصرخ لم يجد جهدا لكنه أنَّ بصوت خفيض "ماء" صوت لن يسمعه أحد. بقي الصوت يتردد بين أركان الغرفة الأربعة دون أن يصل إلى الكوة المرتفعة حتى أصابه الإعياء ونام أو أُغميَ عليه ثانية.

في اليوم التالي كانت هناك إضاءة أكثر تنبعث من كوة الحياة، وحين استيقظ كان أقل إنهاكا وإعياء من حالته

بالأمس، ولكن جسده لا يمنحه الفرصة لأن يتحرك كثيرا، حاول أن يرفع رأسه إلى الأعلى ولم تكتمل حركة انتصاب جذعه إلى الأعلى، حاول أن يستدير على أحد جنبيه ضاغطا بيده على الأرض ومحركا الأخرى لمساعدتها ولكنها لم تصل إلى الأرض فعاد إلى وضعه السابق. كان جسده جافا وأحس بعينيه سيغمضان على إغماءة أخرى، يعرف أن صوته لن يصل إلى الكوة كي يتجاوزها ولكنه صرخ كمن يواسي نفسه "ماء" سمع جلبة في الخارج كأنها تتحرك متجهة نحوه، يستطيع أن يتابع تفاصيلها ببعض وعيه، سمع همهمات لم يفهمها وأحدهم يصرخ "كلاب... كلكم كلاب" وأصوات صرخات مكتومة. ثم صوت باب الزنزانة التي توقع أنها قريبة من زنزانته الضيقة يفتح ويغلق ليعود الصمت يطبق على المكان الذي ليس له أن يتخيل تفاصيله بدقة.

توقع أن الوقت الآن فجرا أو أول الصبح، وأن الحركة ستبدأ بعد قليل أمام زنزانته وربما استطاع أن يرفع صوته قليلا فلربما سمعه أحدهم ولكن الوقت يمر دون أن يحدث شيء، لم يتحرك أحد أمام زنزانته ولم ينادِ على شبح يمر أمام كوة الحياة التي بدأ النور المنبعث منها يخفت تدريجيا. توقع أنهم سينقلونه من هنا إلى قبره مباشرة، إن لم يقتله الظمأ سيقتله الترقب. ولليلة الثانية على التوالي يغلق عينيه على ألمه وحزنه، ويغيب عن الوعي بهما.

في المساء، كما توقع حين بدأت الكوة التي تطل منها الحياة مظلمة جدا، سمع ذات الهمهمات وأحدهم يصرخ بالسجناء الذين لا يَسمع لهم صوتا، يكاد يسمع وقع أحذية ورجال شرطة يمرون أمام زنزانته وأحدهم "من هنا يا كلب، من هنا". "لو كانت هذه زنزانة كلاب لسمعت نباحها". قال في نفسه. حين يسمع صراخ الشرطي يتراجع في أن ينادي عليه "الشرطي الغاضب لا قلب له يسمع به". عليه أن يعود إلى غيبوبته حتى يتوقف كل نبض في جسده وتنتهي المسألة براحته وراحتهم.

حين استيقظ في الصباح كان أحدهم قد ترك أمام رأسه زجاجة ماء وإفطارا نظر إليه ولم يكترث به. فتح زجاجة الماء فكر أن يعبها مرة واحدة وأن يرش بها وجهه المتعب ولكنه توقع أنها لن تأتي إلى هنا مرة أخرى إلا كل ثلاثة أيام. شرب نصفها وأحس أنه يعود للحياة مرة أخرى استطاع أن يعتدل من وضعية الإستلقاء ويتكئ على يديه ليواجه صحن الإفطار. خبزة الصمون بحجم الكف وحساء. حاول أن يأكل، مضغ قطعة من الخبز بعد أن أنقعها في الحساء، إزدرد اللقمة الأولى ثم أحسَّ بأنه سيتقيأها فتوقف عن الأكل.

بعد نصف ساعة تقريبا دخل عليه رجل شاهدَ وجهه من قبل، طلب منه أن ينهض. لم يستطع. "انهض يا كلب!"

حاول مرة أخرى ولم يستطيع. تقدم منه الرجل. لم يكن ضخما. كان كمثله وزنا أطول منه قليلا ولكنه رفعه بسرعة إلى أعلى ثم سحبه سحبا وقدماه يخطان على البلاط. أدخله غرفة صغيرة بمكتب صغير يجلس أحدهم خلفه. "هذا هو" قال الرجل خلف المكتب. فرد الآخر "هو هذا" ولكنه لم يشتمه. "حسنا أخرج أنت" وخرج بعد أن ألقى به إلى الأرض.

كان خائفا مرتبكا يستطيع أن يدافع عن وجهه فقط بأن يرفع يديه أمام عينيه، وهي وسيلة دفاع بدائية ليس لها أن تحمي وجهه دائما. حين نهض الرجل نحوه بتلقائية لجأ إلى وسيلة دفاعه "لا تخف. لن أضربك" فنظر إلى عينيه ليرى إن كان يمكن له أن يصدقه، لم يترك يديه ليبتعدا عن عينيه حتى أنزلهما الرجل "أرأيت؟ لن أضربك". فترك يديه تسترخيان حتى الأرضية الموكيت التي يجلس عليها. "هل تريد أن تجلس على الكرسي؟" أشار بيده "لا" "حسنا". عاد الرجل إلى مكتبه. "قل لي ماذا حدث؟، أنا هنا لأساعدك". لم يرد. أحسَّ بأنهم يعرفون كل شيء وقد رتبوا كل شيء ولن يجدي إنكاره أو حتى اعترافه شيئا. "هو يعرف كل شيء؟" "حسنا. ها نحن نصل بسرعة. من هو" "أنت أيضا تعرف كل شيء. وتعرف من دبر لي كل هذا وربما تعرف لماذا دُبر لي كل هذا وتعرف أنني سأخرج من هنا بعد أن يذلني بما يكفي". كان الرجل يعرف شيئا واحدا يعرفه كل المحققين: كل الذين يحقق

معهم أبرياء لم يقترفوا ذنبا. "على مكتبي توقيعات اعترافات زملائك عليك". رفع نظره إليه. هو يعرف أن تلك هي الحيلة التي يستخدمها كل المحققين لكي يعترف المتهم. "زملائي. من هم زملائي؟" "ألم تلتق بهم؟" "لم ألتق إلا به وعسكره والعذاب الذي تراه" "لا. لا، أنت سليم لا شيء بك" "هل تريد أن توقع اعترافك الآن؟". أشار بيده "لا". "حاولت أن أساعدك. أنت لا تريد أن تساعد نفسك". حين خرج من المكتب دخل رجلان رآهما بالأمس وقاداه إلى ذات الغرفة التي كان بها.

حين رفض أن يرضخ وأعياهما صبره وجلادته، دخل المحقق مرة أخرى "سأدعك تتفاهم مع جماعتك. سأنتظر هذه الليلة فقط حين أعود في الفجر أجد قرارا أو أتخذ قرارا بإرسالك إلى جحيم لم تره في حياتك". رفعه من غرته ونظر في عينيه الزائغتين. "هل فهمت؟". وأشار بيده "لا". "خذوه".

حين عادوا به يجرانه من يديه هذه المرة تجاوزوا زنزانته إلى الزنزانة المجاورة ليلقوه بين أربعة رجال، نظروا بعيدا في وجهه يتفحصون ملامحه وعلامات دهشة لم يعرفوا كيف يترجمونها. فتح بصره ليرى تفاصيل الأوجه التي تحدق به، وبصوت أقرب إلى صوت الموت منه إلى الحياة قال وهو كمن يبتسم.

"مَن؟ مرهش!".

وغاب في إغماءة أخرى.

- 3 -

كان اختياره الحيلة الوحيدة التي يتخلص بها من عذابه، توقع أن يتكرر مشهد تعذيبه كل ليلة أو كل فجر وربما كان في الظهيرة الحمراء في الخارج، أما هنا فلا يرى سوى الظلمة وتفاصيل اليوم التي يحددها الضوء الأزرق الباهت الذي يتناوب على كوة الحياة المطلة على لاشيء حتى الآن.

رفعه الأربعة "مرهش" من يديه وقدميه ووضعوه على المرتبة الملتصقة بالبلاط، وسَّدوا رأسه على وسادة الإسفنج وجلس أحدهم عند رأسه يبلل خرقة في سطل الماء القريب من رأسه ويمسح وجهه وجبهته. أشار إليه إن كان يريد أن يشرب ولكنه لم يرد. مسح الهالات السوداء تحت عينيه وبقيت هالات سوداء تحت عينيه، مسحها ثانية وحين تأكد أنها لن تختفي توقف. فتح أزرار ثوبه ومسح صدره وقدميه المتورمتين دون أن تختفي الزرقة التي خلفتها العصي على باطن القدمين. حين أدرك أن الشاب قد ذهب في إغفاءة تركه وقد وضع ساعديه على صدره يتابع حركة تنفسه عليهما وهو

يتوقع كما يتوقع الثلاثة الآخرون أن كل شيء سيتوقف بعد قليل.

لم يكن يعمل في الجسد المسجى، كجريح حرب، بكفاءة عالية سوى العقل الذي لم تذهب به صدمة ما يحدث. ولعجزه أن يعيش في الخارج الذي تم تحييده بزنزانة وكوة ضوء صغيرة فعليه أن يعيش في داخله. أن يقتنع بأنه مازال يمتلك ذاكرته. فلا هؤلاء المجانين الأربعة يستطيعون أن يخلقوا له عالما حقيقيا يمارس معهم فيه مايشبه الحياة ولا هو بمقدوره أن يكون هو في القادم من الأيام التي لا يعرف إلى متى ستستمر هكذا.

ولكن، الذاكرة التي يختارها الآن ذاكرة إنتقائية، يختار مقاطعها كتدريب محتمل لذاكرة سائبة ستختار في لحظة ما عرض نفسها دون تدخل منه. حاول أن يتذكر طفولته الأولى، تختلط عليه القصص التي سمعها من عمه عن والده والتي توقف عن التحدث حولها حين بلغ السادسة تقريبا وأرسله لأول مدرسة. ربما قرر عمه حينها أن يكون والده، وأن يمحي الصور التي أخطأ وزرعها في زاوية ما من عقله. صورة والده البيولوجي معلقة في الديوان، شاب مرح بشاربين مدببين وحاجبين ناعمين، حليق اللحية يرتدي دشداشة بلون المشمش الداكن وشماغا أحمر، يحاول أن يبث الروح فيه،

يمنحه قدرة ماتت وهو يقود السيارة بسرعة جنونية لا يرى في المشهد أعمامه الصغار ولا يستطيع أن يتبين ملامح أمه التي لا صورة لها في البيت، ولا في أي مكان آخر، وهي تلقي بجسدها كاملا عليه لتتلقى عنه قسوة الحديد فيخرجوه من بين ذراعيها حيا لم يصب بأذى. وحين يتأكد بأن تلك الصور ليست حقيقية وإنما إعادة تشكيل مرتب مسبقا لذاكرته تخيل نفسه كمصاب بداء السكوبوفيليا، يرى فيلما ويعتقد أنه بطل الفيلم يعيش متعته كاملة حتى تضاء الأنوار في القاعة ويعود لوعيه الحقيقي، وعيه الذي زيفه بمعرفته.

ما يمر حقيقيا في خيالاته الأولى المعلقة كوشائج النسوة الملونة على جدار البيت وقد أخرجنها من مراجل الصبغ المغلي الذي يتابع بخاره من بعيد حتى يهدأ ليتراكض وصبية في مثل سنه يلقون بحماماتهم البيضاء لتخرج بألوان كألوان وشائج الصوف المعلقة على جدار البيت.

طلبت أمه منه ذات يوم أن يذهب لدعوة جارتها إليها وحين اقتحم البيت دون استئذان كانت إبنتها الشابة تجلس في الليوان تجدل ضفائرها الطويلة. أصابه ما يشبه الرعب وهو ينظر إلى جيدها وأصابها الهلع من عيني الطفل فرفعت ثوبها لتغطي وجهها وشعرها. نسيت أنها بلا لباس داخلي. كان جزؤها السفلي عالما أكثر رعبا من جيدها وجدائلها وخرج

يركض بسرعة تسابقه صورة "الشيء" المكسو بشَعر لم يسودَّ بعدُ.

الجلبة التي خلقها صراع شباب مراهقين حول فتاة تتبرج، كفتيات الحضر، تسير لوحدها في الزقاق المؤدي إلى بقالة السوري وتنتهي المعركة الشرسة دون أن يدرك وهو يجلس أمام منزله منهمكا في كتابه أيّهم يدافع عنها وأيّهم يهاجمها، ولكنه يراها عائدة إلى منزلها تدخل بيت جارتهم أم البنتين تاركة المعركة خلفها مشتعلة غير آبهة بها، تنظر إليه باهتمام، وينكس رأسه عنها نحو كتابه. الفتاة التي منحته كل إشارة فتنة محتملة، بإمكان فتاة في وضعها أن تمنحها لفتى كي يشعر بها، لم تحرك فيه شيئا. ما لم يكن يعرفه أنها كانت تجلس تحت شباكه في منتصف الليل ملتحفة عباءة سوداء لتستمع إليه وهو يعزف وتغادره قبل أن يتوقف عن العزف دون أن يسمع خفقات قلبها خلف الجدار. حين رآها أكثر من مرة فيما بعد في الجامعة كان يقف معها قليلا يحييها ويسأل عن أحوالها ويمضي في سبيله. وحين أخذتها الجرأة إلى أقصى مدى ممكن لتذهب إليه في مقر الجمعية كادت أن تتسبب له بإحراج مع حبيبته التي رأت في عينيها غيضا يبدو مبررا وكان عليه أن يبرر "هذه ابنة جيراننا". كان ذلك يكفي أن تتفهم رشا الموقف ويكفي أن لا تعود "شجاعة" إلى لقائه مرة أخرى.

في مرور ذاكرته السريع كانت رشا تجلس إلى جواره تلقى بشعرها على عينيه وعطرها على صدره تمسد جبهته بأناملها الرقيقة وكانت تبتسم وكان يبتسم رغم تعلق عينيه بسقف الزنزانة الرمادي.

أحس جسده براحة ذاتية وذاكرته تستعيد صورا محببة إليه، بدأ الألم يخف تدريجيا وعقله ينشغل عن ألمه بما يحقق سعادة يسيرة، كان الأربعة مرهش ينظرون إليه وهو يبتسم فيبتسمون، توقعوا أن آلامه تلاشت هكذا فجأة. وبعد لحظات قليلة بدأوا ينظرون إلى بعضهم حين امتقع وجهه واختفت ابتسامته وبدت دموع صغيرة تتحدر من زاوية عينيه نحو وسادته.

أخذت ذكرياته التي لم تعد اختياره المحض تشتعل فجأة في داخله. يرى نفسه في تلك الليلة بعد إنفجار المقهى، ملابسه مبللة بدماء المصابين. إنفض المشهد واحتلت الشرطة المكان وغادرت النسوة بعويلهن خلف جرحاهن، ذهب وفهد غانم إلى الشقة واستبدل ملابسه بثياب نظيفة، طلب منه فهد غانم أن ينام في الشقة لكنه أصر أن يذهب إلى البيت. "ما الذي ستفعله هناك؟" "لا شيء هناك، ولا شيء هنا". "إذن إبقَ معي". "لا، سيقلق علي أبي أكثر، أصبح قلقا أبدا". "كلّمه من هنا". "لن يطمئن. سأذهب". "انتظر أوصلك". "لا عليك،

سأتدبر أمري". "انتظر". أغلقَ الباب وركب سيارة أجرة حتى موقف الباصات ومن هناك استقلَّ باص 103 إلى الجهراء. نزل في المحطة كان المقهى قد أغلقَ أبوابه، فسار الطريق إلى البيت. قبل المنزل المهجور رأى سيارة تويوتا سوداء تقف بين المنزل والطريق المؤدي إلى بيته. لكنه لم يتوقع أن الأمر له علاقة به، سيارة تويوتا سوداء يستخدمها كل رجال الشرطة في كل مكان. لكن الرجلان هرعا إليه، حاول أن يهرب، توقع أنه أسرع منهما ولكنهما سيقبضان عليه في بيته ويزعجان والديه. ركض باتجاه البيت المهجور حتى دخله، انتفض الأربعة "مرهش" وهم يرونه ولم يدركوا ما الذي جاء به. حين تبعه الرجلان استسلم دون مقاومة. هو يعرف إلى أين سيذهبان به. حاول الأربعة مرهش أن يخلصاه لكنه أفهمهم بيديه أن لا علاقة لهم بالأمر. سار بين يدي الرجلين حتى السيارة وركب بكل هدوء دون أن يعرف أن الأمر يتجاوز توقعه، وأنه ليس استدعاء من العقيد سيعود منه بعد لقاء يشبه اللقاءات السابقة.

أدخله الرجلان غرفة غير مضاءة تماما وأغلقا الباب عليه. جلس على كرسي من الحديد والجلد وانتظر حتى منتصف الليل أو بعده بقليل ليدخل العقيد يتبعه ذات الرجلين، أضيئت الغرفة كاملة. جلس العقيد خلف المكتب الصغير بينما وقف الرجلان وراء العواد. يقابل الثلاثة وجه العقيد الذي

بدا متجهما أكثر وكمن يتابع ابتسامة حامضة على شفتيه سأله:

– أين كنت حتى الساعة التاسعة؟

– هل أنا متهم بشيء؟

– أين كنت؟

– لست متهما أمامك حتى أجيب.

أشار العقيد إلى الرجلين فهوى أحدهما بكفّه على صدغه. كاد أن يسقط، وضع يديه على حافة المكتب ورفع رأسه إلى العقيد.

– لن أجيبك حتى أعرف لماذا أنا هنا؟

وإشارة أخرى ليتلقى يدا أخرى على صدغه الآخر.

– سوف تقول كل شيء وبسرعة ليس أمامي وقت طويل.

– أنت تعرف أين كنت.

- نعم أعرف وأنت ستقول لي ما أعرفه.

صرخ به:

- أين كنت؟

ولم يجب. ثبته الرجلان على الكرسي. رفع أحدهما قدميه بينما تولى الآخر جلد باطن قدميه بعصا الخيزران. كان ينظر إلى وجه العقيد، يحاول أن يكتم كل هذا العذاب في جوفه. دخن العقيد سيجارته واستدار بكرسيه بعيدا عن عينيه. كان صراخه يتجسد في وجهه الذي يتغضن ويتجعد وكمن يشد أسنانه على صراخه. التفت العقيد إلى الرجل الذي يجلده ليتوقف. ثم طلبوا منه أن يذرع بلاط الغرفة. يسير من أول الغرفة حتى المكتب كمن يدوس على نار لا على قدمين. نهض العقيد إليه. شدّه من شعر رأسه إلى الوراء.

- من كان معك في المقهى؟

لم يرد. امتلأ بالألم فاعتاد عليه. ما يهمه الآن هو ألا ينهار أمامه، ألا يضعف.

- ماذا تريد تحديدا؟

سألَ العقيدَ.

– أن تعترف لماذا فعلت ما فعلت؟

تحدث بصوت خفيض في أذن العقيد "فليخرج الرجلان ونتكلم بصراحة".

– حسنا.

أشار للرجلين أن يتركاهما وأن يبقيا خلف الباب.

أجلسه على الكرسي أمامه.

– صدقني لم يحدث شيء. كانت معي ولكننا لم نفعل شيئا.

– اسمع أنا رجل طيب مع كل شخص طيب ولكنني أتحول إلى وحش حين تتعرض للوطن أو لي شخصيا، أما أنت فجريمتك أكبر حتى من خيالك المريض اعتديت علي وعلى الوطن ستعرف الآن من أنا.

– ماذا تقصد؟

– من شركاؤك في تفجير المقهى؟

– تفجير ماذا؟ أنت مجنون وتتجاوز حدود وظيفتك.

– ستعلمني وظيفتي.

– أنت تعلم أن لا علاقة لي بالموضوع. كنت في بيت الفن ومعي ألف شخص حين انفجر المقهى.

– وقبل بيت الفن أين كنت؟

– ولماذا أفجر المقهى؟

– أنت تعلم لماذا.

– أنا بريء وأنت تعلم ذلك

– الأبرياء لم يخلقهم الله بعد.

– أنت تتهمني لحقدك علي.

– ألست صاحب ثأر؟

– لم أكن صاحب ثأر. إذا تماديت معي سأكون صاحب ثأر، ولكنه منك شخصيا.

– تظن أنها معركة وأنك ربما تكسبها ولكنها ليست

معركة باحتمالين، إنها هزيمة، هزيمة فقط. إنك تخسر وحدَك.

– أنت رجل متعلم وخريج بريطانيا، لكنك هنا عنصري بغيض لا تختلف عن الجهلة، رغم أنك تعرف من أنت!

أمسك به العقيد من تلابيبه. رفعه إليه وهوى بكفه اليمنى على أذنه اليسرى فأسقطه على الأرض. دارت به الغرفة مرتين أو أكثر. طنّ الضجيج في تجويف أذنه وسمع صوتا غامضا كانفجار صغير ثم خبا تماما في أذنه اليسرى وما حولها، هدأ الضجيج في كل جسده ولم ينهض.

وجد نفسه في زنزانة ضيقة وكوة بقضبان. تكررت محاولات انتزاع اعترافه ولم يعترف بشيء لم يرتكبه. حتى أدخلوه زنزانة الأربعة "مرهش". لم يسألهم ما الذي أتى بهم إلى هنا. لن تكون بإمكانهم الإجابة حتى لو امتلكوا القدرة على التعبير فسيعجزون عن الفهم، وهم عاجزون عن التعبير والفهم معا. وليس عليه أن يلومهم، فكل من يقتسم حياته معهم هم "مرهش".

الفصل الثامن

إبرة التبن

- 1 -

في اليوم التالي لإختفاء العواد إتصل به فهد غانم. ردت العجوز "لا ليس هنا. ظننته عندك". "طيب! لا! سأبحث عنه. أعرف أين أجده" كان صوته مرتبكا. وهو يعرف أنه يكذب. ليس للعواد مكان غير بيته والشقة أحيانا. كان عليه أن يتصل بأعضاء الفرقة وهو يعلم أن العواد ليس صديقا حميما لأي منهم. مر اليوم كاملا حتى المساء وقرر فهد غانم أن يذهب إلى منزل العواد. رأى والده يجلس على الدكة وهو ينظر لكل عابر أمامه ويحدق بكل طيف يمر أمامه حتى وإن كان مصدره خياله هو. حين توقفت السيارة نهض ليتأكد من المقعد المجاور للسائق. لم ير أحدا. أقبل نحوه فهد غانم قبّل رأسه. "هل وجدته؟" قال بعبرة حاول كتمها فلم يفلح. "لا ياعم" "أين اختفى؟" لا يستطيع فهد غانم أن يجيب على هذا. عاد مع الشيخ إلى الدكة أمام المنزل أجلسه في مكانه عدل المسند خلف ظهره. "سنجده. أين سيذهب؟" لم يكن بينهما سوى إعادة سيرة يوم أمس كاملة كما رواه للشيخ وحتى افتراقهما مساءً. "خذني بسيارتك إلى منزل المختار". أطلت

العجوز التي كانت تجلس بالقرب من باب البيت الموارب قليلا. وصرخت به "فهد أين هو؟" نهرها الرجل أن تدخل. سارا معا حتى السيارة.

غادره فهد بعد أن دخل بيت المختار وبدأ رحلة بحثه من مخفر الجهراء إلى بقية المخافر التي يتوقع أن العواد مر بها في رحلة عودته من الشقة إلى البيت. تأكد من عدم وجوده في المستشفيات وما يملكه الآن هو الانتظار. انتظار يبدو أنه سيطول.

لم يلاحظ أحد اختفاء الأربعة، مرهش، سوى عمال السوق والرواد الذين احتاجوا لخدماتهم لكن غيابهم كحضورهم لم يكن ليهم أحدا أو يكترث به أحد. حين تكون لا أحد لن يهتم بغيابك أو حضورك أحد. وحين احتل مكان الأربعة "مرهش" بدلاء من البنغال المغتربين في اليوم التالي بدا الوضع طبيعيا جدا وكأن "مرهش" لم يوجدوا أصلا.

عاد والد العواد من منزل المختار الذي طلب منه أن يهدأ وحاول أن يقنعه بأن غياب شاب ليلة واحدة لا يعني غيابا إلى الأبد. لم يقتنع. فلم يعرف العواد مكانا آخر بعيدا عنه أو عن صديق عمره فهد غانم.

مر اليوم الثاني والثالث وتأكد له أن العواد ليس على وجه الأرض، لو كانت له جثة على الأرض لوجدوها. كان يذهب كل يوم حتى موقف باص 103 وينتظر حتى تغيب الشمس يتأمل وجوه المارة ويتفحص حتى الأمهات والأطفال ولا يرى ملامح الابن الذي ذرته الريح عن وجه الأرض. للمرة الثالثة تذهب العجوز إليه لتعود به.

"إنه قدر لن تمنعه يارجل". "هل تظنين أنك أكثر إيمانا مني؟". "إذا كان حيا سيعود".

حين عاد الطريق أعاد على نفسه ذات الكلمات التي رددها في الأيام الماضية. "لو كنت ابني لما حزنت عليك كل هذا الحزن، ولكنني أخجل من أبيك إذا سألني عنك". لم تهتم العجوز بما تمتم به الرجل. كانت تسير إلى جواره بهدوء غير مصطنع، تتحاشى النظر إلى عينيه أو استراق السمع لوجيب قلبه. "سيعود، صدقني أنا أمه وأعلم". "لو كنت أمه فعلا لصدقتك". قال في سره. وسلك معها الطريق إلى البيت مرورا بالبيت المهجور، ولم يتوقف حواره الذي يشده إلى مكان ما لا يعلمه ولكنه يعتقد أن العواد قد انتهى إليه.

"الآن لا أريد شيئا. أريد فقط أن أرسله إلى أبيه كاملا".

تداولت المساكن قصة اختفاء العواد بكثير من الخيال

البكر. أصحاب السيارات القليلة رجحت أنه قضى تحت عجلات سيارة مسرعة وتخلص منه صاحبها في مكان ما في الصحراء كي لا ينكشف أمره. والعجائز فضلن سيرة الجن الذي خطف رجالا قبله في الصحراء وأنه يعيش الآن مع إحداهن وربما أنجب منها ويرددن أسماء رجالات اختفوا من القرية لأسباب عديدة ولا يجدن لاختفائهم سوى تفسير وحيد. ورجال الدين يرون أن عوده كان سبب كل البلاء الذي حل به وأن الله غضب منه فأخفاه عن وجه الأرض. وأن ذلك فيه الخير الكثير لهم كي لا يصيب القرية بلاء أكبر. ولكن أحدا لا يسألهم عن بقية الذين يعزفون ويغنون.

الوحيدة التي لم تعلم باختفاء العواد هي رشا اليزاز التي توقعت أنه نفذ طلبها حرفيا وهي تقول له أن عليهما أن يبتعدا قليلا حتى تهدأ الأمور. ولكنه لثلاثة أيام لم يتصل بها. ولم يزرها كعميل مزيف في البنك. وترددت كثيرا أن تسأل عنه والدته ولكنها تغلق السماعة أكثر من مرة. حتى سمعتها مرة تصرخ بها وتبكي "رد علي يا بني، أعرف أنه أنت". ولم تضع السماعة، تركت الأم تتحدث "رد علي أين أنت؟" وأجهشت العجوز بالبكاء. "أنا رشا يا خاله" هدأت العجوز وران صمت طويل بين طرفي الهاتف. تهدج الصوتان "لا يا ابنتي لم يعد منذ أيام، لا أحد يعرف أين هو". "حسنا أنا سأتصرف إطمئني". كان ذلك الأمل الوحيد الممكن للعجوز الثكلى أن

تتعلق به. "ربما كانت تعرف شيئا". "أكيد تعرف شيئا" واستمر حوار أمنياتها يتداعى ولكنه لم يملأ قلبها بفرح حقيقي بل ببعض أمل.

- 2 -

لم تحتج رشا لكثير من الظن لتثبت يقينا يتمثل أمامها بأن العقيد الشقيق وراء اختفاء العواد. وهي لا تبحث الآن عن سبيل إلى اعترافه بذلك ولكن عن طريق مختصر ومثالي لمواجهته. هذا الأب العاجز عن التخلص من تاريخه والقيود التي كبّل نفسه بها منذ ارتكابه حماقة الغرفة الأولى؛ لن يكون عونا لها ولا يرغب بأكثر من أن تنتهي الأمور بسيرها الطبيعي نحو نهايتها المتوقعة. ولكنه كان حاضرا بصمته في جلسة طلبتها ماما عواطف كما أصبح يطلق عليها كل من في البيت. "سيأتي هنا وسينهي الأمر مثلما بدأه" قالت لابنتها. "لماذا يظلم الناس؟" قالت الأم.

كانت الكلمة التي تمكن الأب من قولها تبدو دفاعا عن الابن "إنه يدافع عنكم، يدافع عن كل ما تركه جدك". موجها كلامه لابنته. "اسمع! لا أريد أن أسمع منك كلمة واحدة، هل نخفي الناس عن الأرض لأنهم أحبوا ابنتنا؟" ولم يرد. هو يعرف أنها صعبة المراس حين تعشق أمرا وتتمسك به ويعرف

أنه لم يقل قناعته الحقيقية.

دخل العقيد وكمن يعرف بأن الموضوع الذي طلبته الأم يتعلق بشقيقته. ولكنه لم يتوقع بأن العواد طرفا فيه. "هل أنت عبدالرحمن يا بكري؟" بدا السؤال طائشا لا إجابة له، إجابته المنطقية لا تعني شيئا. "أظن أنا يا أم عبدالرحمن". وأكمل وهو ينظر إليها بسخرية "تدخل في الموضوع أفضل، لدي عمل كثير". "عملك الأول أن تفرج عن الشاب". "أي شاب". "خطيب رشا". "ليس لرشا خطيب، ولن يكون لها خطيب حتى أوافق عليه أنا". "ما تفعله لا يذهب بك إلى خير". "أين هو الآن؟" "نحن نسألك أين هو". "لا أعرف عنه شيئا، وإذا كان محتجزا لقضية ما فلن أساعد في الإفراج عنه". نهض مغادرا. "عبدالرحمن، لن نبقى أنا وابنتي هنا إذا لم يخرج الشاب هذه الليلة". "لن تذهبا إلى أي مكان غير هنا".

خرج وهو يحدث نفسه "سأرسله للجحيم وإن لحقت به".

تبادلت الأم وابنتها حوارا سريعا في غيابه. "تظنينه يعرف أين هو؟" "لا أظن. متأكدة أنه يعرف، بل هو الوحيد الذي يعرف". وأكملت رشا "أنا سأعرف كيف أخرجه من بطشه وأخرج نفسي أيضا من بطشه". وصعدت غرفتها. وقبل أن تنهض الأم رمقت الأب في صمته الأزلي" هل كنت معنا؟

إعذرني لم أنتبه إليك".

الذي تفكر فيه رشا حاليا ربما لن يجلب لها سوى مزيد من المصاعب وربما ينهي حياة الشاب الذي دفع كل ما يملك من أجلها حتى لم يعد يملك ما يدفعه.

في الصباح طلبت من أمها أن ترافقها إلى مقر عمل العقيد". وماذا سنفعل هناك؟" "هذا الشاب يدفع حياته من أجلي، يجب أن يخرج، ستعرفين كل شيء في الطريق، فقط تعالي معي". "ولماذا لا نذهب إلى بيته في المساء؟" "ستعرفين في الطريق تعالي معي". "طيب، كنت أتمنى أن يحبني رجل وأحبه مثلك". "لن تجدي أفضل من أبـي" ولم تتمالك إخفاء بسمتها الساخرة.

أمام مقر عمل العقيد والمحاط بأسوار عالية وأسلاك شائكة تعلو السور الخرساني المهيب، كانت الكاميرات الخارجية ترصد سيارة مدنية تتوقف أمام المبنى المغلق على نفسه، فلا شيء يدل على وجود حياة بداخله. بوابته الحديدية العريضة عنوان هيبته ورهبة الذين يمرون من بعيد حوله، ما يظهر منه في الأعلى شبابيك مغلقة كأنها لم تفتح للهواء النقي أبدا. خرج أحد رجال مكتب الأمن الداخلي ليرى السيارة القادمة. كان رجل الشرطة يتوقع قضية ممتعة أحضرت

امرأتين إلى هذا المكان الموحش. لكنها لجمت تكهناته "أنا أم العقيد عبدالرحمن". تراجع الشرطي خطوتين إلى الخلف "لحظة سأتصل بمكتبه؟ "عاد إلى غرفته. ثم خرج إليهما "لحظة، سيأتي أحدهم إلى هنا". بعد قليل خرج أحدهم مسرعا إلى السيارة وطلب من الشرطي أن يصطحبهما إلى الداخل. "سأقوم بإيقاف السيارة في الداخل". ترجلت المرأتان، ورغم أن سيد هذا المكان هو ابنهم إلا أنهما أحستا بشيء من الخوف. "أخطأت وجئت هنا، كان من الأفضل أن نلتقيه في البيت، ربما أحرجنا وطردنا" قالت الفتاة كمن تود أن تتراجع. لكن الأم وكأنها هي من طلبت منها الحضور إلى هنا قالت بثقة "لن يستطيع".

جلستا في غرفة استقبال صغيرة قبل أن يعود الرجل الذي قاد السيارة إلى موقف السيارات الداخلي. "من هنا إذا سمحت" مخاطبا الأم التي سبقت ابنتها إلى الداخل، والتي كانت تتخيل العواد في زاوية ما من هذا المعمار القاسي. أدخلهما الرجل على العقيد الذي بدا مبتسما دون أن تشي ابتسامته البيضاء بشيء محدد. لم تكن مفتعلة ولم تكن صادقة أيضا. "أهلا أم عبدالرحمن" وأشار للرجل بالانصراف.

فجأة تلاشت ابتسامته بسرعة وكأنه يتحكم بها كما يوحي له الموقف. "خير، مع إني لا أرى خيرا وراء هذه

الزيارة". "اطلب لي ماءً على الأقل! الجو حار هنا، وخانق". "الجو بارد هنا" فتح ثلاجة صغيرة وقدم زجاجة ماء لأمه. "والأخت الغالية ماذا تشرب؟ عصير". "لا أريد شيئا". "أعرف ما تريدين، قلت لك لا علاقة لي بغيابه، هل ستفتشين المبنى؟". "لا. سأقدم لك عرضين لا أعتقد أنك سترفضهما". "تفضلي وبسرعة هذا مكان عمل". "وأنا هنا في ما يخص عملك ولست كأخت لك". "حسنا تفضلي بعرضيك". نظرت في عيني أمها التي بدت تشجعها أن تتحدث، وهي لا تعرف كيف تبدأ. "تترك الشاب وشأنه وأتركه أنا وشأنه". "هذا العرض الأول. ما هو الثاني؟" "دعنا نتفق على الأول" أحست أنها تحرك الجمل كما ترغب وأنها تتشجع أكثر لتصل إلى ما تريد. "لنفترض أنني أستطيع مساعدتك وأساهم في الإفراج عنه، لا أضمن فتاة كادت تبيع شرفها من أجل بدوي حقير". "هذا البدوي كان سيصبح زوجي وتصبح خال أولاده". "هذا ما كان سيحدث بعد أن أموت". نهضت الأم غاضبة "لماذا ترى نفسك أفضل منه؟". "لأن جدي عبدالرحمن و..." قاطعته بحدة رافعة صوتها بوجهه. "فاخر بأبيك أنت وليس بأبي أنا". نهضت رشا وأجلست أمها "انتهى الموضوع الآن". "إسمع. سأتزوج أي رجل يتقدم لي نوافق عليه أنا وأنت، هل يرضيك هذا". "وما هو العرض الثاني؟" "هل ترفض الأول؟" "لا. بل أقبله وأقبل عقلانيتك الآن". "إذن انسَ العرض

الثاني". أحس براحة كبيرة وكأنه تخلص من كابوس كبير كان سيدمره ويدمر سمعته. توقع أن الأم ستحتج من أجل حب ابنتها الكبير الذي دافعت عنه بشراسة، من قبل، وساهمت في إنجاحه ولو على حساب شرف ابنتها. "ولي شرط آخر" قال، وكأنه يستغل كل ما تقدمه على حساب مشاعرها "سيخرج من البلد نهائيا". "هذا ليس من حقك". قالت الأم "هذا شرط أساسي في الاتفاق بيننا". غمزت لأمها بأن تقبل. "لا بأس إفعل ما تستطيع، ربما خروجه كان خيرا له" قالت رشا "وخير لي أيضا". وقبل أن تخرج طلب من شقيقته أن تتركه مع أمه قليلا. "ماذا تريد؟". "هل أنت متأكدة من ابنتك؟" "طبعا لا تنسى ما يتعرض له على يديك من أجلها". "أقصد. متأكدة من..." "اه فهمت كما أنا متأكدة من ظلمك لها... لا تخف أختك عذراء". "سأتصل ليحضرا السيارة" وخرج معها حتى الباب الأخير يودعهما وكأنه يحقق نصره الأول.

- 3 -

يتمدد على فرشة التوقيف يمارس غيابا طوعيا عن الوعي. الأربعة "مرهش" يتبرعون له بالحليب الصباحي الذي يرافق الوجبة اليومية غذاؤه الوحيد حتى نهاية اليوم. حاولوا معه مرارا أن يأكل ولم يمتلكوا قدرة المحاولة في أن يتكلم. لقد أوقف كل شيء في أيامه التي أخذت في التشابه القاتل، وما يعيش به هو ذاكرة تتداعى بحرية مطلقة أحيانا وبقسرية بغيضة أحيانا كثيرة. ذاكرة حقيقية يستدعيها، وأخرى بنائية يشكلها الآخرون لتتحول إلى ذاكرة حقيقية.

تختلط، أحيانا، بين صراخ الصبية في مدرسة المعتصم الابتدائية أمام سارية العلم وقصائد الإذاعة المدرسية التي يرددها الطلبة في الساحة وبين أهازيج طلبة الوسط الديموقراطي. بين ديوان والده الذي يعج بالبؤساء وعساكر الرتب الخفيفة وعمال ومزارعين وعاطلين عن العمل وبين زملاء يحضرون مهرجان جنيف وريو دي جانيرو كل سنة. بين المطاعم الهندية التي لا يريد الآن أن يفكر بمطابخها

القذرة وصالة الهنت روم في الشيراتون، التي دعاه إليها فهد غانم ذات يوم استثنائي. كانت ذاكرة مُرة يبتسم لها كما يبتسم لذاكرته اللذيذة.

"حين أحببتك لم أكن أعرف من أنت، ولم يكن يهمني أن أعرف". "وحين أحببتك لم أكن أعرف من أنت ولم يكن يهمني أن أعرف". "أعرف فقط أنني أحبك". "وأعرف فقط أنني أحبك". كانت رشا تجلس إلى جواره في الكلية وتخاتل أصابعه بين لحظة وأخرى، وكأنها تحتضنه أو ترتمي في حضنه. تجاوز ما تسمح به الذاكرة وقبَّلها وابتسم أكثر فاقترب منه "مرهش". أشار إذا كان يريد شيئا هز رأسه بالنفي. كان يود أن يفهمه ألا يقاطعه وهو يبتسم.

في تلك الليلة التي كانت فيها رائحة رشا في المكان الذي امتلأ بروائح الأجساد وعرق الرجال المالح، حضر رجلا التحقيق واقتاداه إلى غرفة التحقيق مرة أخرى. كان يسير بين ذراعي الرجلين اللذين يسحلانه كجسد الكائنات الرخوية حين وصل إلى قاع الغرفة انهار كجسد من قماش. "إنه مريض". قال الرجل الأول. "وليكن سنجعله يعترف. "سيموت". "لن يموت". حاولا أن ينهضاه على قدميه كان يتساقط مرة أخرى. حين رآه العقيد طلب منهما أن يعيداه إلى زنزانته. "أطعماه جيدا لا أريده أن يموت". "سنتصل بطبيب السجن". "لا، لا

حاجة لذلك فقط تأكدا أنه يأكل جيدا". كان يسمع ما يدور ويعرف أنه يستطيع الوقوف على قدميه ولكنه يجدها الطريقة الوحيدة للرفض. لرفض ما يتعرض له ولرفض الاعتراف بجريمة لم يرتكبها.

تكررت عملية إحضاره وهو على هذه الحالة وإعادته ليالٍ عدة. في إحدى المرات، وبعد زيارة رشا وأمها للعقيد، طلب العقيد من الرجلين أن يتركاه لوحده معه. جلس العقيد إلى الأرض مقرفصا وهو يدفع الكلام دفعا إلى أذنه "إسمعني – أعرف أنك تسمعني، ستخرج من هنا" ولم يرد. "أعرف أنك تسمعني". لم يكترث لما يقول. لم يعد يمتلك ثقة بما يقوله الرجل الذي لم يعد ينقصه الكثير ليقضي عليه تماما. كرر العقيد حواره أكثر من مرة ولم يكن يجيب بشيء. وحين أحس بأن لا أمل منه طلب من الرجلين أن يعيداه إلى زنزانته.

"غدا صباحا أريد صديقه أمامي.. ما اسمه". "فهد غانم يا سيدي" "هو فهد غانم" "لا تستخدما العنف أحضراه للقائي في مكتبي".

حاصرت سيارة التويوتا السوداء ذات فجر مدخل بناية فهد غانم. أخبرهما الحارس بأنه عاد ليلة أمس إلى شقته وأنه

لم يخرج منها. كان فهد غانم خلال الأيام الماضية يكرر ذات المشاوير المسائية بعد نهاية عمله، حتى بات يؤمن بما آمن به سائقو السيارات في القرية وعجائزها ورجال الدين معا. يزور بيت العواد في نهاية المشوار يجلس صامتا أمام والده الذي لم يجد من يواسيه سوى هذا الفتى الذي عاب عليه مجونه وامتدح فيه إخلاصه لصاحبه. لا يتبادلان حوارا في الغالب بعد سرد فهد غانم لمشاويره اليومية. "هل تظن أن العقيد له دور في هذا؟". "ربما، يا عمُّ، ولكنني بحثت في كل مكان". "هذا رجل لا يرحم". "لن يستطيع إخفاءه كل هذا الوقت، أتمنى أن يكون عنده، على الأقل نعرف أنه حي". "نعرف أنه حي". يكرر الوالد مشككا بذلك.

في الصباح خرج فهد من شقته إلى عمله. ترجل العنصران من سيارتهما إلى سيارته. "لحظة" قال أحدهما "أنت فهد غانم" "أنا فهد غانم". "تعال معنا" "إلى أين؟ ومن أنتم؟" "ستعرف هناك". "هناك أين؟" "العقيد عبدالرحمن اليزاز يريد أن يراك" "يراني! هل...". "إتبعنا بسيارتك لتعرف أنك لست مطلوبا بشيء".

كان فهد غانم يعلم أن اليزاز لن يرسل في طلبه إلا بشأن العواد، ولو أراده بسوء فتلك ليست الطريقة المتبعة في اقتياده إلى هناك. كان فرحا جدا لولا لحظات يتخيل فيها

الحالة التي سيرى فيها صاحبه. توقف خلف السيارة السوداء أمام البوابة التي فتحت من الداخل وتوقف عسكري أمامها يسأل عن الرجل الذي في السيارة الثانية. ثم يشير له أن يتبعهما.

عبرت السيارتان بعد أن انحنت أنياب الحديد الصدئ في باطن الشق المهيأ لاستقبال ولوجها فيه، ممهدة الطريق للإطارات اللدنة كي تمر فوقها محدثة صوتا خفيفا كارتعاشة برد. وبدأت البوابة بالانغلاق الذاتي حتى كادت أن تطبق على مؤخرة سيارة فهد غانم الذي التفت إلى الوراء كمن يفكر في الطريق إلى كيفية الخروج من هذا الكمين الهائل وهو يدخل مرآب السيارات العسكرية السوداء في الأسفل. "من هنا" قال له الرجل الذي كان يسير أمامه كعارف في المتاهات المقبلة للكتل الخرسانية البغيضة التي يتوهج منها الصهد المخزون في ثناياها فيرفضّ عرق فهد غانم قبل أن يدخل المصعد المزود بمروحة يسمع ضجيجها ولم ينتبه لرقم الطابق الذي ضغط عليه أحد الرجلين، وأبقى جسده يغطي لوحة المفاتيح لكن المصعد توقف في الدور الرابع كما تشير اللوحة المستقيمة في أعلى الباب. فتح المصعد ليخرج فهد غانم بين الرجلين دون أن يهتم إن كان ذلك مقصودا نتيجة تدريب تحول إلى اعتياد مع كل غريب يلج هذا المكان كضيف كما يمني نفسه حتى الآن. يشم رائحة الهواء البارد وسكينة تطبق

في المكان رغم الأبواب العديدة الموصدة على جانبي الردهة التي يكسوها سجاد رمادي رخيص. في آخر الممر يدلف إلى مكتب عريض يجلس أمامه شاب بدا مبتسما للرجلين، وحين التقى بعيني فهد غانم تجهم هكذا بتلقائية منفرة كمن يلتقي بغريم محتمل.

"من هذا؟" قال الرجل بوقاحة ليس لأحد أن يبررها. كمن يعلم أن هذا لا أحد مهم، وأن هذا جاء محصورا في سيره بين صدر رجل وظهر رجل ولا يحتاج الأمر إلى فراسة ليعرف أن "هذا" ليس بأكثر مما يدل عليه إسم الإشارة "هذا"، هذا هو اللاأحد الذي يشبه جميع هؤلاء المتهمين الذين يحضرونهم إليه كل يوم. "أنا المهندس فهد غانم". ابتسم كمن يقول "طز فيك". "طيب انتظر هنا" ولم يقل له إجلس هنا. نظر فهد غانم إلى الرجلين اللذين بقيا واقفين وعليه أن يقف معهما طالما الرجل الذي يمتلك طريقة استقبال الأشخاص ومعرفة هيبتهم ومكانتهم قرر له أن يقف لا أن يجلس.

عاد الشاب الذي يبدو برتبة لا تنبئ عنها ملابسه المدنية. توجه إليه دون الآخرين "أنت. تستطيع أن تدخل". لم يرافقه أي من الرجلين إلى المكتب الفاره الذي يجلس في آخره العقيد والذي رحب به متذكرا لقاء سابقا جمعهما في بيته. "فهد غانم". لم يقف لاستقباله. رحب به وأشار إليه أن يجلس.

ساق العقيد مقدمة لم يفهم منها الشاب شيئا ذا قيمة ولم يهتم إلا في محصلتها النهائية "صاحبك هنا". لم يرد على أي سؤال وجهه الشاب. طلب منه بما يشبه الأمر أن يقنعه بخطة ترحيله. "لن يوافق، لا يمكن أن يعيش بعيدا عن هنا". "ليس أمامه سوى أن يقبل".

طلب أن يحضروه إليه "ستجلس معه أنا متأكد أنه سيقبل، هو فقط لا يثق بنا". حين دخل العواد وأسقطه الرجلان على أرضية المكتب. لم يتمالك فهد غانم نفسه من احتضانه كمن يحتضن وسادة من الريش. "سأتركك معه، خذ وقتك لست على عجلة من أمري". حين انفردا رفع العواد عينيه وأخرج ما يشبه النأمة مصحوبة بزفرة حادة طويلة بذل فيها كل ما تبقى لديه من طاقة "فهد" وأسند رأسه إلى كتفه وبكى دون صوت. أخذ اللقاء حوارا مغايرا لما يجب أن يكون عليه حوار في وضع كهذا. "ستغادر هذا المكان". "لماذا أنا أصلا في هذا المكان". "لا يهم الآن سأرتب كل شيء، يجب أن توافق على الخروج". "إلى أين أخرج لم يعد هناك مكان أخرج إليه سوى...". "لا وقت لدينا يريدك أن تغادر البلد وأنا أيضا أريدك أن تغادر البلاد سأرتب كل شيء". "هل رأيت رشا؟" "من أجل رشا عليك أن تغادر البلاد". "كيف أبي وأمي؟". "بخير".

هز رأسه موافقا على خياره الوحيد المطروح أمامه. عاد العقيد بعد أن أنهى فهد غانم اللقاء. نظر فهد غانم في عينيه. كان يبتسم بصفاقة المنتصر، فهم أن العواد وافق على مايريد "حسنا سأرتب له كل شيء". "إلى أين سترحلونه؟". "سندبر ذلك لا تقلق، وتستطيع أن تساعده إذا أردت". ثم أردف كمن يبرر صورة أخرى غير التي هو عليها. "إذا احتاج أي شيء سأساعده".

وقبل أن يفترقا ذكره العقيد بأن كل ما تم بينهما هنا يجب أن يبقى سرا بينهما. "إذا أردت له أن يخرج سالما من هنا". ما يطرحه العقيد يبدو كمن يخلصه من أزمة مرّ بها لا كمن أدخله أزمة لن يخرج منها كما كان قبل دخولها. "حسنا. هل أطمئن أهله". "لا ليس الآن، لن يستغرق الأمر طويلا. أعدك". "هل أستطيع زيارته؟". "لا بأس ولكن عليك أن تنسق معي".

أعادوه إلى زنزانته، افترش الأرض ثانية. يفكر بما يعني موضوع ترحيله، لماذا وافق فهد غانم بهذه السرعة على ذلك؟ لا يمكن أن يخذله صديق أجمل أيامه. كان يتابع ضوءا يتسلل من كوة الزنزانة إلى السقف، يتماوج قليلا وينعكس على أرضية الزنزانة. كان الأربعة "مرهش" يجتمعون في دائرة من الزنزانة شبه المظلمة. حاول أحدهم أن يقترب منه ولكنه لم

يفضل ذلك فعاد مرهش إلى دائرة زملائه الذين يتحلقون كمن يجلسون في ظل شجرة. كان يشعر بصمتهم وعجزهم، ليس بإمكان هؤلاء المساكين أن يحموا أنفسهم أو يدافعوا عن حريتهم المسلوبة دون سبب. ليسوا سوى عجزة مثله يدبر الآخرون لهم أمورهم ويقررون عنهم ما يفعلونه بهم. وهو ليس أكثر من عاجز مثلهم يقتله الشعور بالفشل في كل محاولة دفاع عن كيانه.

كان يفاضل بين طلبين أحدهما للعقيد اليزاز، والآخر لفهد غانم. ما يطلبه فهد غانم ليس طلبا عدائيا كما يطلبه العقيد الذي يرغب بإبعاده عن شقيقته، وليس عن وطنه بالمعنى الحرفي للكلمة، أما فهد غانم فهو يطلب إبعاده عن البلاد وليس عن شقيقة العقيد، وهو يفعل ذلك بدافع حب حقيقي هو نقيض لعداء العقيد اليزاز. ورغم حب فهد غانم وعداء العقيد إلا أنهما يتساويان في الفعل الذي اتخذاه تجاهه. فهد غانم يرى فيه خلاصا له، والعقيد يرى فيه خلاصا منه.

مستلقيا على قفاه كمن أصاب نفسه بشلل اختياري، لا يريد أن يتفاعل مع شيء، ولا أن يقبل شيئا أو يرفض شيئا، ويحاول أن يفهم. أن يفسر هذا الفعل المتناقض بوعي الرجل العاقل مسلوب الإرادة. ولم يستطع أن يفهم كيف يتفق الصديق المحب والعدو المبغض في قرار يؤدي إلى ذات

النتيجة، إلى القضاء عليه نهائيا مهما اختلفت النوايا التي يحملها كل منهما. عليه أن يمتلك قراره، أن يتخذ موقفا بعيدا عن محبة فهد غانم أو عداء العقيد.

في الفجر هرع الأربعة "مرهش" إليه وهو يصرخ بأعلى صوته "لا لا لا لا".

مسح أحدهم وجهه بخرقة مبللة، كانت شفتاه بلون النيلة ووجهه غارقا في الموت. وعيناه تكادان أن تغادرا محجريهما، كان يرتجف من رأسه حتى قدميه كمحموم.

لم يرَ فهد غانم إلا بعد أسبوع من زيارته الأولى. "لا أريد أن أغادر البلاد". "اسمعني جيدا، هذا الحل الوحيد الذي تمتلكه الآن، أنت لا تتعذب وحدك، هي أيضا تتعذب، وعليك أن تغادر لتلحق بك". "لا أستطيع أن أترك والدي". "لن تترك أحدا. ستعود، أعدك بأن تعود".

لم يكن أمامه سوى أن يصدق وعد صديقه. "يجب أن تأكل جيدا. إنك تموت ببطء". "لن أموت بسهولة، ربما أصاب بالجنون أما الموت فيبدو صعبا".

- 4 -

حين قررت رشا أن تصطحبها شجاعة إلى الجهراء، كانت ترغب بلقاء أخير مع المكان الذي عاش فيه العواد وسيغادره إلى الأبد وربما لن يتمكن من العودة إليه مرة أخرى. حين اختلت مع والدة العواد في غرفته كانت تمسح بيدها على آلة العود المسندة إلى الحائط. "نعم. هو حي. وأعرف أنه بخير وسيعود". "هل شقيقك يعلم أين هو؟" لم ترد رشا على سؤالها "أعرف أنه بخير وجئت لأطمئنك عليه". لم تكن الأم لتصدقها، توقعت أنها جاءت لتعيد إليها أملا كادت تفقد القدرة على الإمساك به. "أين هو؟". "سيكون هنا خلال أيام، وسترينه ولكن". ثم صمتت "ولكن ماذا، هل هو مصاب؟". "لا ليس مصابا ولكنه يريد أن يسافر خارج البلاد". "وما بها هذه البلاد ليسافر خارجها". "لاشيء... أقصد لا شيء له هنا" وهل سيأتي لأراه؟". "بالتأكيد سيأتي حين ينهي أموره".

حين عانقت والدته مغادرة كانت رشا تعلم أنها أتت هذا الطريق لهذا العناق، أحست أنها تحتضنه للمرة الأخيرة وأنها

تودعه هو، تودع مكانه وأشياءه الخاصة، رائحة غرفته الخانقة في شهر تموز اللاهب، رائحة ملابسه الملقاة على السرير، أوراقه التي لم يمتلك ما يكفي من الوقت ليرتبها كما يجب، آلة التسجيل الصغيرة ومجموعة أشرطة الكاسيت المتناثرة على طاولة صغيرة بالقرب من وسادته الباردة، وحين أغلقت العجوز الباب خلفهما؛ خمنت بحزن أنه لن يتمكن من فتح هذا الباب ثانية. لقد فعل ماكان عليه أن يفعله. أن يغادر بصمت دون أن يرى دموعا تتساقط في المساحة التي سيخلفها وراءه، لقد بكاه هذان المسنَّان بما يكفي.

عادت إلى البيت لتخبر أمها بما فعلته ولكن الأم لم تعلق بشيء، لم يعد هناك من سبيل لإعادة الأمور إلى النقطة التي بدأت منها أو النقطة التي لم تبدأ منها. ولكنها سألت ابنتها سؤالا غامضا "هل ستتخلين عنه فعلا بعد كل هذا؟" لم تجب الفتاة كانت تعرف في قرارتها أنها لن تتخلى عنه وتعرف أيضا أن أمها لا تسألها ولكن تطلب منها ألا تتخلى عنه. نهضت من مكانها واحتضنت أمها بشدة، كانت هذه المرة دون الرائحة التي تصاحبها عادة.

كان أحد الأربعة "مرهش" يعد الشاي في زاوية الزنزانة ويخرج الخبز الذي احتفظ به من وجبات سابقة من تحت قطعة القماش التي يلفه بها، بينما بقي العواد مستلقيا على

ظهره يحرك عينيه نحوه. أشار له "مرهش" إذا ما كان يريد شايا أو قطعة من الخبز ولكنه أشار إلى الشاي بنعم وهز رأسه بلا للخبز. بدأ الأربعة "مرهش" يغنون بصوت متشابه أغنية لم يفهم منها الكثير ولكن اللحن الذي يعرفه حرك فيه ما يشبه الابتسامة على طريقة الأداء غير المتقن والهمهمات التي اختاروها بديلا للكلمات التي صعبت عليهم. فاحت رائحة الشاي الطرية فأغمض عينيه ليتذكر موقفا سابقا كان يشرب فيه الشاي في المقهى، وفهد غانم يحدثه عن مغامرة ما وموقفا آخر في مجلس والده وتتداعى صور لا نهاية لها. صور يعتقد أنها لن تتكرر أبدا. صبّ له "مرهش" الشاي ونظر في عينيه كمن يخبره بأنه سعيد أن يراه في حال أفضل مما كان عليه. رفع له إبهامه وابتسم ثم عاد إلى رفاقه حين اعتدل العواد في جلسته للمرة الأولى منذ دخل الزنزانة معهم. اقتسم الأربعة "مرهش" الشاي وقطع الخبز ثم عادوا إلى همهمتهم السابقة.

في المساء، دخل أحد الشرطيين بملابس مدنية وطلب منه أن يذهب معه في زيارة ليرى فهد غانم الذي احتضنه وجلسا في غرفة لا أحد معهما.

"إلى أين سيتم إبعادي؟" لم يحب فهد غانم كلمة "إبعادي". "أنت ستسافر ولن تبعد". ابتسم العواد بمرارة

وسخرية "أنا أسمّي الأشياء بأسمائها". "لا يهم. أنا أرى أن تسافر لسوريا" "سوريا. ولماذا سوريا؟" "هي البلد العربي الوحيد الذي يستقبلك بتذكرة سفر". "وماذا أفعل هناك؟". "لن تفعل شيئا أنا سأفعل كل شيء". "المهم أرسلنا برقية وتمت الموافقة على دخولك". "أريد أن أرى أهلي". "سأخبرهم الليلة أن ينتظروك في المطار". "وأنت". "يجب أن أسافر قبلك وسأنتظرك هناك لا أعرف مالذي سيحدث".

كل شيء بدا مرعبا وغامضا، أكثر غموضا من قصة احتجازه وتهمته.

الفصل التاسع

بداية غير محسوبة العواقب

- 1 -

كانت سيارة الإسعاف تذرع الشوارع المتعرجة بين المستشفى والسجن الداخلي لجهاز أمن الدولة دون أن تحدث ضجة كبيرة كانت تصحبها عادة. لم يكن على السائق الآسيوي أن يتفهم سبب التعليمات التي تلقاها من مدير مركز الإسعاف بعد منتصف الليل بقليل ولكن عليه تنفيذها فقط. ولم يتساءل حتى لماذا لم يصحبه المسعف الصحي والذي عادة ما يحتاج إليه كعربـي يجيد الحوار ومتخصص يجيد التعامل مع الحالات المسعفة.

لم يكن الشارع في تلك الساعة من الليل مزدحما، كان يوما من أيام الأسبوع لا نهايته فاقترب بسيارة الإسعاف من المدخل الحديدي، انحنت أنياب الحديد وابتعد مصراعا البوابة عن بعضهما بما يكفي للسيارة العريضة التي رافقها أحدهم سيرا على الأقدام حتى توقفت أمام المبنى. لم يكن الأمر يحتاج إلى إسعافات أولية أو نقالة وأربطة وما شابه ذلك. طلب شرطي بملابس مدنية من السائق أن يبقى في السيارة

وألا يتحرك حتى يطلب منه ذلك.

دخل الشرطي إلى زنزانة العواد والأربعة "مرهش". طلب من العواد أن يأخذ حقيبته التي تركها فهد غانم. دخل به مكتب صغير وطلب منه أن يرتدي ملابس نظيفة ويغتسل جيدا. لم يكن العواد بحاجة لذكاء خارق ليعرف أن الليلة هو موعد الإفراج ولكنه لم يفهم سبب اختيار هذا التوقيت المقيت لعملية الإفراج. لماذا يعشق رجال الشرطة الليل أكثر مما تعشقه العصابات التي يواجهونها.

أنهى العواد اغتساله بسرعة، ولبس قميصا فاتح اللون وبنطال جينز أزرق وحذاء أسود اللون ثم حمل حقيبته وكأن الطريق التي سيخرج إليها من هواء السجن الثقيل الخانق إلى هواء الحرية الخفيف غير الطريق التي سارها من هواء الحرية الخفيف إلى هواء السجن الثقيل.

اقتاده الرجل إلى جهة لا يعلمها العواد ولم يتوقعها. رأى نفسه للمرة الأولى خارج المبنى الداخلي يرى السور والبوابة من بعيد وتوقع أن تلك لحظة الإفراج دون أن يكترث بسيارة الإسعاف المتوقفة مباشرة أمام المدخل الرئيسي للمبنى الداخلي. نظر إلى عيني الرجل الذي يمسك بذراعه بقوة وكأنه يصارعه من طرف واحد. لم يشعر بالألم الذي تركته اليد

الغليظة على ساعده النحيل. لم يكترث الرجل لنظرته، ساقه حتى باب سيارة الإسعاف وطلب منه أن يصعد إلى جوفها الخالي إلا من كرسي أخضر طويل. "إلى أين؟" قال العواد. لكن الرجل رفعه من ساعده ليضع قدمه على العتبات الصغيرة للسيارة ويلقي بحقيبته خلفه في جوف السيارة. أغلق درفتي الباب الخلفي لسيارة الإسعاف، وذهب إلى قمرة السيارة، ركب إلى جوار السائق وأغلق الباب. "إلى أين؟" سأله السائق بعربية مرتبكة. "المطار". وضع الملف البني أمامه وأعاد رأسه إلى الخلف كمن يستريح من صراع طويل قام به نيابة عن سيده الذي اتصل به قبل قليل ليطمئن أن الأمور تسير كما هو مخطط لها.

تحركت سيارة الإسعاف وكما هو الحال في المرة السابقة لم تطلق صافرتها ولم تهتم بإنجاز الرحلة بوقت قصير. "لدينا وقت" قال الشرطي وهو يرد على السائق الذي يسأله إن كان يريد منه أن يسرع. بعد أقل من عشرين دقيقة كانت السيارة تقف على بوابة المطار. أطلَّ الشرطي الذي يحرس البوابة بوجه السائق الذي التفت إلى الرجل بجانبه كمن يسأله شرح الموقف. مد الشرطي المدني بهويته إلى حارس البوابة الذي نظر فيها وانتفض قليلا "ت تف تفض تفضل تفضل" معيدا الكلمة مرتين كمن يتأكد من سيطرته على خوفه لا عليها.

فتح البوابة بيديه رافعا مزلاجها الحديدي من باطن الأرض إلى الأعلى ليحررها فاسحة الطريق أمام السيارة التي مرت من خلالها، رافعا يده للشرطي المدني الذي ابتسم دون أن يراه الآخر. أكملت السيارة طريقها تسبقها سيارة جيب بمربعات صفراء وسوداء حتى الطائرة المتوقفة. لم يهتم العمال الذين يتحركون حول الطائرة، وأسفلها، بالشاب الذي فك قيوده الشرطي وطلب منه أن يرافقه إلى بوابة الطائرة التي لم يتم دعوة ركابها للصعود إليها بعد. سلم الشرطي المدني المغلف البني الذي يحمله للطيار وطلب منه أن يسلمه للراكب حين وصوله مطار دمشق وغادر الطائرة دون أن ينظر في عيني العواد الذي استمر واقفا حتى أشار له المضيف أن يجلس على كرسي يبدو أنه غير مخصص لأحد. عادت سيارة الإسعاف الطريق الذي جاءت منه تسبقها سيارة الجيب ذاتها، وبقي العواد ينظر إلى أرض المطار مختصرا وطنا كاملا بالمستطيل الذي تسمح به النافذة الصغيرة.

أغمض عينيه كمن يحصي في الفراغ همومه التي تنمو أغصانها الجافة في فراغ روحه. كل الهموم التي يحق لها أن تكون أكثر قساوة من سواها تتضاءل أمام هذا الترحيل المهين عن وطنه. فربما كان فراق والديه دون وداع سريع وحزين يخفف عليهما لهفة تغييبه، وربما كان غياب وجه حبيبته ألما

حقيقيا يحتمله بصبر الرجل، ولكن اقتلاعه من كل عوالمه إلى المجهول حالة تشل حتى إحساسه بالآلام الصغرى.

- 2 -

أقلعت الطائرة بركابها الذين امتزجت حالاتهم بفرح العودة لبلدانهم أو فرح المتعة المؤقتة بسياحة اعتادوها من قبل أو يعيشونها للمرة الأولى. بقي هو ينظر من شباكه المستطيل إلى الأرض التي بدأت تبتعد كثيرا حتى تلاشت تماما. في حالة كهذه يتمنى الإنسان لو كان باستطاعته أن يلقي بالجزء المسؤول في دماغه عن الذاكرة من هذا العلو. فطالما هي بداية جديدة فلتكن جديدة، ولادة ثانية، لو يمتلك القدرة على النسيان الحقيقي، النسيان الذي يمحو كل شيء. طلب من المضيّف ماء دون إحساس حقيقي بالعطش، في داخله شيء ما يحترق ولم يستطع أن يحدد في أي جزء من جسده، ربما ليس في جسده تحديدا. شرب الماء على مهل وأحسه يتسرب من ثقوب لا حصر لها في رئتيه حتى ضاق به الهواء فأرجع رأسه للوراء واستسلم للحريق الذي تمكن منه.

اهتزَّ جسده قليلا مع لحظة ارتطام العجلات بالأرض، نظر ثانية إلى الأرض التي حوله لم يكن يعني له الأمر ما

يعنيه لسواه من الركاب. حين توقفت الطيارة طلب منه المضيف أن يبقى في مكانه حتى ينزل الركاب جميعا. بقي ساكنا لم يرد. وحيدا في جوف الطائرة يقترب منه الكابتن أو مساعده فلم يكن ليميز بينهما، يسلمه المغلف البني ويطلب منه أن يغادر الطائرة، كان الباب الذي دخله في بداية الرحلة وغادره في نهايتها هو آخر باب يمت لوطنه بصلة. نظر إلى الخلف قليلا ثم أكمل طريقه دون أن يعلم إلى أين.

كانت تلك رحلته الأولى خارج الوطن بمفرده، في المرات السابقة كان يعبر الحدود إلى الشمال أو الجنوب ولكنه لم يفكر في العودة من عدمها فقد كان يعود في كل مرة، وهو يفكر الآن في العودة لا في السفر. العودة المستحيلة أو شبه المستحيلة إذا تبقى لديه من الأمل بعض أمل.

يجر خطاه على البلاط اللامع ينظر في الأقدام التي تسير، يحمل حقيبته بيد وملفه البني في يد، فكر أن يتوقف ليقرأ مابه، لم يكن مهما. ما الذي يمكن أن يكون مكتوبا. موته، لا بأس. حين ينقطع الأمل في الحياة من الأفضل أن تنتهي الحياة. يتمنى لو أن الوطن قلق صغير يمكن التخلص منه في الخروج منه، ولكن قلقه يزداد في البعد عنه. يتمنى لو كان الوطن إزعاجا بسيطا كمسمار اللحم في باطن القدم

ولكنه في الرأس، في الرأس، في الرأس.

يتلفت وهو يقترب من حواجز العبور ينظر ليرى إن كان فهد غانم ينتظره. اقترب منه ضابط برتبة كبيرة "الأخ محمد". "نعم". "تعال معي". لا يعرف إذا كان هذا حسنا أم لا. أسوأ الأمور التي لا يمكن أن تحتمل الوسطية. "إلى أين؟" سأل الضابط الذي ابتسم بوجهه "خائف؟" وأجاب ب. "لا" وهو لا يكاد يتمالك نفسه كي لا يبلل بنطاله. "لا تخف أخي أنت في حماية سوريا الأسد". كان ذلك ليطمئنه قليلا. إنتبه الآن إلى صور الرئيس في كل مكان حوله. لم يكن ذلك ليهمه في شيء. ربما يرعب تواجده الدائم السكان المحليين وربما ليذكر القادمين بأهميته العظمى وربما لأسباب لا يعرفها. كل ما يهمه الآن أن يخرج ويرى فهد غانم وكأن فهد غانم وطن بديل.

سار به الضابط لأحد موظفي الجوازات، سلمه العواد المغلف البني كاملا. نظر الموظف إلى الضابط الذي هز رأسه وكأنه يقول "هو ما اتفقنا عليه". أخرج وثيقة السفر البنية نظر فيها، قلبها، تصفحها وكأن العواد سمعه يقول "أعوذ بالله" أو كلمة قريبة منها. ختم الوثيقة وطلب منهما أن يذهبا إلى مكتب الأمن في المطار. سأله الضابط "لماذا الأمن، الرجل بحمايتنا. لكنه اعتذر قائلا "هذه هي الأوامر وأنت تعرف".

سأل العواد الضابط إن كان فهد غانم هنا فقال نعم لم يسمحوا له بالدخول وينتظرنا في الخارج. دخلا مكتب الأمن، كان الذي يجلس إلى المكتب رجل مدني وبجانبه رجل مدني آخر عريض وطويل يصدمك منظر شاربيه قبل أي تفاصيل جسدية أخرى. لم يرد على تحية الضابط ولا على سلام العواد. "نعم. ماذا فعل هذا؟" كان ينظر إلى العواد "لم يفعل شيئا. هذا قادم من الكويت". "أهلين" قال واستلم الأوراق من الضابط. مرة أخرى ينظر في وثيقة السفر ويضحك بصمت ويجامله الرجل ذو الشاربين ويبتسم. "ما هذا. لاجئ عندنا، هذا ما ينقصنا". ثم التفت إلى العواد "هل خلص نفطكم؟" لم يرد. لا كلمات بإمكانها أن ترفع إهانة الغريب عن رجل أهانه أهله.

اختنق بعبرته، بدا كطفل باعه أبواه. تغضن وجهه وتمنى أن يكف الرجل عن الاستمراء في إهانته أو إهانة وطنه بسببه. "أنا ضيف عند سوريا الأسد". هكذا خرجت العبارة منه مستفيدا من حوار سابق مع الضابط الذي يعرف كيف تدار الأمور هنا. "أحسنت، أحسنت، أعاد الوثيقة إلى المغلف وترك ورقة الترحيل خارجه، علق عليها بقلمه وختمها بختم بجانبه وسلمها هي والمغلف إلى الرجل ذي الشاربين. "خذه إلى الفرع". وكمن صعق الضابط وهو يسمع إسم الفرع "ولماذا الفرع؟ أنا أضمنه". "هذا إجراء وأنت ضابط وتحترم الإجراء"

فهم العواد أن خلف كلمة فزعا ما، رعبا، خوفا. هكذا دلت ملامح الضابط بعد سماعها. "بعد ثلاثة أيام تستلمه من الفرع" ثم التفت إلى الرجل ذي الشاربين "قل لهم أن الشاب بحماية سوريا الأسد وحمايتي شخصيا". لم يعد يفهم العواد إن كان ذلك حسنا أم قبيحا. لم تعد الكلمات تحمل معناها هنا ولا صدى معناها وإنما تأويلها فقط وهو ما يعجز عنه هذا الشاب الغريب. تحدث الرجلان عن تفاصيل عنوان لا يعرفه العواد وغادر الضابط بعد أن وعد بأن يأتي إليه بعد ثلاثة أيام.

ثلاثة أيام. ثلاثة أيام فقط كانت دهرا بطيئا على الشاب الذي دخل الفرع بتكهنات مسبقة عن معنى الفرع، شكل الفرع، جدران الفرع، لعنة الفرع. استقبله ضابط كان يوزع لعناته مجانا على مجموعة صغيرة لا يعرف العواد سوى أنهم تحت تحقيق معين. خلفهم رجال أقرب إلى ملامح الرجل ذي الشاربين أو دونه قليلا صلافة وشكلا. كلما لفظ الضابط لعنة ما أومأ برأسه فنزلت أكف الرجال الغلاظ على المجموعة التي تقف مرتعدة بين نار الكلمات وجحيم الأكف اليابسة.

هذا هو الفرع إذن. جحيم صغير يساوي الجحيم الذي تركه هناك. لم يكن يفهم إن كان هذا الذي يعيشه قدرا إلهيا أو فعلا اقترفه هو ويعيش عذابه مباشرة. بقي واقفا إلى جوار الرجل الذي اصطحبه ينتظران الضابط ينهي حفل الشتائم

ويختتم مهرجان الصفعات التي تدوي في أذن العواد وهو يتخيل أن كفا آخر سيطير طبلة أذنه الثانية ويفصله عن هواء الأصوات وربما يجعله يضحك كالمجنون دون سبب.

مرت نصف ساعة إنهار فيها بعض الأشخاص الواقفين بسكينة الرهبة وهم يواجهون الضابط المنفعل والصورة التي خلفهم لهذا الرجل النحيل وهو يحاول أن يبتسم فلم ينجح. توقع أن المصور حاول معه مرات كثيرة على أن يبدو على وجهه اللين والحزم ولم يخرج منه سوى بصورة لا تدل على شيء سوى أنه هنا في كل مكان، في الممر الذي دخله ومكتب الاستقبال الخشبي البسيط وغرفة الضابط التي تضج بالأصوات ورائحة الأجساد المعذِّبة والمعذَّبة. مع كل صفعة يغمض عينيه على مشهد لا يود أن يراه، ليس مشهد الصفعة التي فصلت الأذن عن وظيفتها التي خلقت لها، ولكنها الصفعة التي أطاحت بكبرياء والده وشماغه وعقاله عن رأسه، الصفعة التي سيتذكرها أبدا حتى لو أن أمًّا صفعت ابنها.

طلب الضابط المنفعل بعد أن بحّ صوته أن يعيدوا المجموعة إلى مكان احتجازها وهو يصرخ بالرجال الغلاظ "بعد قليل إعملوا لهم دولاب". لم يكن العواد بحاجة لعبقرية طارئة ليعرف أن هذا الدولاب هو ليس إخراجهم في نزهة إلى

النهر ولكنه لم يخمن علاقة الدولاب أو الإطار كما يعنيه السوريون في بلده بالجملة التي قالها الضابط.

تحدث الرجل ذو الشاربين إلى الضابط سرا. لم يستطع فهم ما يقولان ولكن الضابط أشار إلى العواد أن يقترب. "ما اسمك؟" "محمد" "ماذا كنت تعمل في الكويت" "لم أعمل. خريج جديد" "أنت بدون". "الآن نعم". "قبل الآن". "قبل الآن لا". "طيب لا يهم المهم الآن أنت ضيف لدينا ولديك توصية من المعلم". أحس بشيء من الإرتياح، كان يود أن يضع يده على أذنه اليمنى ليطمئنها. "شكرا". وقف الضابط على قدميه كأنما شتمه العواد. "شكرا ماذا؟ أكمل" فهمس الرجل ذو الشاربين بسرعة في أذن العواد "قل سيدي" وبسرعة يحكمها الرعب المفاجئ "شكرا سيدي". ابتسم الضابط والرجل ذو الشاربين وكان العواد يود لو يبتسم إرضاء لهم. "سلمه للرفيق أمجد". أخرجه الرجل ذو الشاربين من الباب الذي دخلا منه ودخل الضابط بابا خلفيا في مكتبه لم يعرف العواد إلى أين يفضي إلا فيما بعد.

صرخ موظف الاستقبال بالرفيق "أمجد" الذي رسم له العواد صورة تطابقت بسرعة مع هيئته وهو يدخل بصدر مرتفع وجسد يملؤه الشعر الذي غاب عن لحيته فقط. "خذه إلى رقم واحد. خالية أليس كذلك؟" "نعم سيدي خالية". همّ

الرجل أن يودع العواد وسأله إن كان يريد شيئا فرد العواد "شكرا" وبسرعة أتبعها بالكلمة السحرية "سيدي". ابتسم الرجل ابتسامة جعلت شاربيه يتجاوزان حدود وجهه. "أحسنت، تتعلم بسرعة". وخرج ليدخل العواد زنزانة صغيرة وهو يسأل أمجد "لماذا أنا هنا؟ ماذا فعلت؟" "هنا مكان الذين لا يفعلون شيئا، الذين يفعلون شيئا لم يعودوا هنا ولا في أي مكان آخر". المهم أن يحتمل العواد هذا الإجراء وأن ينتهي في ثلاثة أيام كما وعدوا. ما يتوقعه فعلا هو أن اليوم الثالث سيطول أكثر من عمره القصير الذي لن يعد أيامه ولن يعيشها. كانت الزنزانة منفردة تشبه إلى حد كبير زنزانته هناك. هذه الأوطان تتشابه في سجونها وصلافة سجانيها. فكر. وهو يمد جسده على بلاط الأرضية الاسمنتي دون أن يحس برفاهية البطانية التي تفصل هذا الجسد عن البلاط. هذا الجسد الذي يحمله معه في عذاباته المتتالية دون أن يفقد صوابه ويغادره، ربما يخونه أحيانا، ينهار وربما يفقد أجزاء يعرفها وقدرات لم يعد يفكر فيها، ولكنه ما زال محافظا على صداقته له. جسده الأقرب إليه من كل هذا العالم بعد فهد غانم. جسده الذي يفقد لذة ما تعارفت عليه الأجساد ليتحول إلى لاشيء سوى جلد زائد عن الحاجة يرتمي رغما عنه على الأرض ليبدد تعبه الذي يكابده تاركا لصاحبه الاهتمام بالثقوب التي تتكاثر في روحه بعد فشل الصبر في رتقها.

نام قليلا في الفجر الأخير وكاد يوقظه شخيره المتصاعد في فراغ الغرفة، والذي يعجز عن مغادرة الغرفة المغلقة تماما، فالشباك الوحيد في الباب مغلق بطاقة صغيرة يتحكم السجان بمفتاحها الذي يعلو مفتاح الباب. كانت وحدة غير سعيدة هنا على عكس وحدته هناك. فزنزانة الأربعة "مرهش" أكثر حنانا بالتأكيد من زنازين هذا الفرع والتي تضم غرباء معذبين ربما أفرغوا غيظهم فيه. لكن الأمر ليس كما خمن فهو لم ينم طويلا ولم تتجاوز غفوته الساعة كاملة حين فز من نومه على صراخ يقطّع كبد الليل. لاااااااااااااااا. طويلة ومتهدجة. كان ذلك صوته وهو يرى العقيد اليزاز يعتدي على شقيقته في اليوم الذي داهمهم في شقة فهد غانم دون أن يتمكن من دفعه عنها. حين أفاق كان يرفض عرقا، يحيط به ظلام تام فلم يشعلوا الإضاءة المعلقة بسلك في سقف الغرفة بعد. مسح وجهه بيديه وأسند رأسه إلى الحائط الذي خمن أنه ليس بعيدا بعد أن تحسسه بيده "لو كنت أمتلك الشجاعة لما وصلت الأمور إلى ما هي عليه". كان يفكر لو أنه أنهى اليزاز وانتهى هناك لما وصل به الحال إلى هذا الذل في اليقظة والحلم. الذين يطلبون الحياة بالموت هم الأجدر على عيشها أما الذين يطلبون الحياة بالحياة فيتوهمونها فقط.

بقي رأسه مسندا للجدار طيلة الوقت ممتلئا بالأوهام

والحقائق ممتلئا بالخوف والأمل ممتلئا بالحب والكراهية وممتلئا بالحزن والكآبة. في الصباح فتح الباب الموصد ليطل الرفيق أمجد الذي فارقه البارحة أو عند الفجر تحديدا. سأله إن كان يريد أن يأكل فقال نعم "معك نقود؟" سأله الرفيق فهز رأسه بنعم. فتح محفظته وتناول خمسين دولارا. "ما معك سوري". هز رأسه بلا. "تريد دخانا" وحرك يده لا شكرا. لكن الرجل رد بسرعة "سندخن معا" وخرج. عاد الرجل بإفطار جميل حتى ظن العواد أنه صرف المبلغ كاملا.

كبدة بدبس الرمان، فلافل، حمص، بيض، مقالي وخبز شامي يكفي الفرع الذي لا يعرف العواد عدد سكانه وزجاجة عصير توت وزجاجة ماء وعلبة دخان مستورد أو مهرب كما قال أمجد. "هذا كثير؟" قال العواد فرد أمجد "فضلة خيرك" وهو يعني ما يقول. لكنه مد يده ليسلمه باقي الليرات السورية. أخذها العواد. يعرف أنه سيحتاجها على الأقل للأيام الثلاثة القادمة، إذا كانت فعلا ثلاثة أيام.

لاحظ أمجد أن العواد لا يأكل كما ينبغي لشاب. "في الشام ستسمن؟" "ليس مهما، لم يعد الأكل متعة ولا حتى ضرورة". بلع أمجد لقمة ضخمة وحاول أن يتحدث ولم يستطع، جحظت عيناه. ناوله العواد الماء رفع الزجاجة إلى أعلى وأعدل من وضع رأسه وصب الماء في فمه كمن يشرب

من شلال. تناثر الماء على شدقيه وصدره المفتوح والعواد يتابع الرجل كسجين جائع معه لا كسجان موكل إليه أمره. "كنت أقول هنا تأكل فقط تغني ترقص لا تتدخل في ما لا يعنيك". فهم العواد ما يريد." لا يعنيني شيء هنا" "أحسنت في اليوم الثالث ستخرج تأكد من ذلك". نهض أمجد حين شبع وشرب نصف زجاجة الماء ونصف زجاجة التوت وكأنه يقسم بينهما بالتساوي.

في التاسعة صباحا عاد ثانية إليه "الضابط يريدك". "وماذا يريد؟" "ستعرف منه" نهض العواد. لاحظ أن زنزانته في آخر الممر، لم ينتبه لذلك ليلة البارحة. سار الممر حيث الزنازين على اليمين واليسار جميعها مغلقة الشبابيك الصغيرة وتوقع أنها خالية إلا منه لكن أصواتا تبادرت إليه لم يعرف إن كانت على يمينه أو يساره، أصوات لم يفهمها. لم يدخله أمجد إلى غرفة الضابط وإنما غرفة واسعة مقارنة بزنزانته. كان المنظر منفر ومزعج. شاب عاري الصدر لا يستر عورته سوى سروال قصير شدت يداه إلى قدميه وكان شكله كإطار السيارة. وقف مع أمجد إلى الجدار وبدأت حفلة تعذيب صاخبة. يرتطم صراخ الشاب بإسمنت الجدران ويضج بالمكان فوضع العواد يده على أذنه اليمنى ليمنع هذا الصراخ البغيض من اقتحامها. لم يكن ذلك ليثير اهتمام أمجد أو الضابط. خر الشاب من الإعياء وسكت صوته وانقطع أنينه.

توقع العواد أن دوره قد حان. ينظر إلى أمجد مرة وأخرى إلى الضابط الذي بدا مبتسما ومرتاحا من أداء الرجلين الذين تناوبا على جلد الفتى. فكر أنه من الأفضل أن يصمت حتى يرى ما سيكون. لن يمتلك سوى صراخه ولن يجدي في هذه الحالة شيئا. طلب الضابط من الرجلين أن يحملا الشاب إلى زنزانته ثم أشار إلى أمجد أن يدخله وراءه. كان الباب الذي دخل منه الضابط يفيض أيضا إلى مكتبه. جلس ووقف العواد وأمجد أمامه. "كيف أمجد معك؟" لا يعرف العواد إجابة على هذا السؤال المحير. هل كان على أمجد أن يكون عنيفا معه وكان طيبا ولم يقم بمهمته، أم أن عليه أن يكون طيبا كما هو. نظر إلى أمجد وصرخ الضابط "تكلم حيوان". "طيب أمجد طيب". ضحك الضابط وهو يرى شفتي العواد ترتجفان وابتسم أمجد وبقيت ملامح الذعر مرسومة على العواد. "ارتعبت ها؟" ولم يرد العواد. "أنت عليك توصية من المعلم، لا تخف". أحضروا لك إفطارا. هز العواد رأسه بنعم "شربت شاياً" وسكت العواد "ولو، هذا ضيف يا أمجد خذه ليشرب الشاي". أشار لأمجد أن ينصرف به فخرجا معا إلى مكان صغير. طلب له أمجد الشاي". أنت إنسان طيب ولكن يجب ألا تخطئ، هنا لا يرحمك أحد، حتى أنا". شرب الشاي كمن يشرب موتا بطيئا. كان رأسه يضج بصراخ الشاب وصراخه فيما مضى. أعاده أمجد إلى زنزانته وترك الشباك العلوي

مفتوحا كهبة لا تمنح لسواه.

كان اليوم ثقيلا، والشُّباك الذي توقعه منحة أمجد الطيب تحول إلى كوة في الجحيم تدخل إليه أصوات زنازين تفتح وصرخات آلام السجناء وشتائم الرجال الغلاظ وصوت الأكف على الأصداغ والوجوه المتعبة. ولأول مرة يشتم فهد غانم في أمه. "لو تركني أموت هناك لكان أشرف لي". وضع أذنه اليمنى على الأرض وضغطها ولم يمنع ذلك من تسرب الأصوات إليه. يبدو أن أيامه الثلاثة التي نذرت له هي آخر ثلاثة أيام في حياته. وربما فهد غانم قد عاد حين بحث عنه منذ البارحة ولم يجده. في المساء تكررت حفلة التعذيب لشاب آخر. كان معلقا من يديه المربوطتين إلى الخلف وقد علق ببكرة في السقف فتدلى رأسه للأسفل. وكلما أغمي عليه من الضرب أنزلوه ورفعوه بعد نصف ساعة مرة أخرى. بعد ساعتين تقريبا من حضور حفل التعذيب أشار الضابط إلى أمجد بعصا الخيزران التي يمسكها أن يعيده إلى زنزانته بعد أن شربا الشاي للمرة الثانية هذا اليوم.

لكن الأيام الثلاثة مرت متكررة كنسخ كربون. إفطار مع أمجد وحفلة تعذيب صباحية وأخرى مسائية. الذي اختلف هو المعذِّب وطريقة التعذيب.

في اليوم الثالث طلب منه الضابط أن يدخل غرفة التعذيب خلف مكتبه. كانا لوحدهما. لم يكن في الغرفة سوى الآلات البشعة التي يستخدمونها لانتهاكات الجسد وبقايا صدى أنات المعذبين تركوها في شقوق الحوائط وأثلام البلاط الذي اسودَّ لونه من الدم والصراخ.

"اسمعني جيدا! ستخرج اليوم، حتى الآن لا شيء عليك وهذا من حسن حظك، من سوء حظك أن أراك في يوم ما هنا، لسانك أولا وفعلك ثانيا هما نهايتك".

حين دخلا مكتبه من الباب الآخر كان فهد غانم والضابط الذي استقبله أول مرة ينتظرانه في المكتب. لم تكن المسافة بينهما تحتاج أن يهرولا إلى بعضهما كما فعلا. إلتحما ببعضهما وهما يدفنان أعينهما بعيدا كي لا يلتقيا. وحين هدأت النظرات الحادة تمكنا من أن ينظرا في وجهيهما. كانت الحوارات الوهمية التي تدور بينهما أسئلة لم تكتمل ولا إجابات محتملة لها. قطع الضابط هذا الوجوم الذي افتقد فائدة الحوار وقدم أوراق العواد لصديقه. "بإمكانكم أن تذهبوا الآن". كان أمجد يضع الحقيبة أمامه وهو ينتظره يخرج. "هنا نقول أتمنى ألا أراك" قال ضاحكا. لكن العواد صافحه كرجل صاحب عفو والأخير يضع يده على فمه إشارة ألا يتكلم بأي شيء هنا.

غادروا جميعا إلى سيارة أجرة صفراء تتوقف بعيدا عن المدخل الرئيس للفرع. جلس العواد وفهد غانم في المقعد الخلفي والضابط إلى جوار السائق. كان فهد غانم يهم أن يسأله السؤال الذي توقعه العواد فقاطعه "هل اتصلت بأهلي؟". وكمن يشير إليه أن يصمت حتى يصلا "لا. ألم تودعهم في المطار؟" وسكت العواد تاركا رأسه يتجه للنافذة المفتوحة ليخفي الهواء السريع تفاصيل العرق والدموع واهتزازات الوجه وارتعاشاته. لم يتكلم طول الرحلة ولم ينظر إلى وجه فهد غانم.

- 3 -

توقفت السيارة أمام فيلا صغيرة في منطقة لا يعرفها العواد ولم يجد سببا للسؤال عنها، من في وضعه الآن لن يهتم بتفاصيل البلاد التي لا تشجعه على البقاء طويلا. غادر فهد غانم والعواد السيارة فيما استمرت في طريقها بعد وداع سريع مع الضابط الذي لم يعرف العواد اسمه حتى الآن ولا يجد رغبة بإضافة اسمه لذاكرة لم تعد تحتمل.

"تعبت، كثيرا تعبت، هل كانت تستحق كل ذلك؟"

"تستحق أكثر من ذلك، ولم أتعب بعد".

"أنت مجنون، وغبـي"

ألقى العواد جسده المنهك على الكنبة، كان الهواء منعشا محملا برائحة شجر يحيط بالنافذة. أغمض عينيه على لاشيء بالتحديد، ليس لصورة محددة أن يحتويها مشهد الألم. تركه فهد غانم وخرج ليحضر طعاما. لم ينم العواد كما خمن

صاحبه. ليس ما يعانيه الآن تعبا، وليس وجعا، ليس أسى وليس غربة أو ضياعا، ليس حقدا ولا ندما، ما يعانيه الآن فقدا ليس إلا.

"هل ستأكل؟" لم يرد العواد ولم يفتح عينيه. "أعرف أنك لست نائما، تعال كلْ". كان فهد غانم يفرش جريدة على طاولة الصالة العريضة، ويضع الأكل فوقها. "لا نفس لي" قال دون أن يفتح عينيه. "يجب أن تأكل". ولم يرد. "تعلم. أكاد أعد أسنانك من خارج فكك" ولم يرد "إذا أردت أن تموت فمت بعد أن نفترق وأخرجك من هنا". "إلى أين تخرجني". "وهل تعتقد أنني سأتركك هنا". فتح عينيه. "هل تعني ما تقول؟" نهض إليه وأمسك بيديه. أنهضه. "أريد أن أستحم. رائحتي كريهة منذ أكثر من شهرين". قال العواد. تركه صاحبه يتجه إلى الحمام "بسرعة سيبرد الأكل".

إتصل العواد بأهله وحادث والده وهو يكاد يرى حرقته ولهف أمه ودموعها. اتصل برشا مساء، أخبرها خطة فهد غانم في ترحيله من هنا. كانت تستمع دون أن تتكلم تحاول أن تخفي أي بحة حزن تصطحبها الكلمات القليلة التي بإمكانها أن تسد لهفتها. "أحبك" كانت الكلمة الأخيرة التي قالتها قبل أن تضع الهاتف وتجهش ببكاء حقيقي يليق بفقدها.

عاد فهد غانم الذي خرج عصرا تاركا العواد نائما وقد اشترى كرتون بيرة "كورونا" وزجاجتي ويسكي "بلاك ليبل" ويطلب من السائق الذي حملها للداخل أن يضع البيرة في الثلاجة وأن يذهب ليعود في المساء.

"هل تريد أن تشرب؟" قال للعواد الذي يخرج ملابسه من الحقيبة ويلقيها على الأرض. "أنا لا أشرب". "سيجعلك المشروب تنسى كل شيء" بدأ العواد يرتب الملابس حسب نوعها "هذا أسوأ ما يمكن أن يحدث لي. أن أنسى".

"سأستحم ثانية، أريد أن أخرج إلى أي مكان ليس له جدران". يشتاق الماء ليغسل كل هذه الأدران التي علقت بروحه ويتخيلها تلتصق بمسامات جسده. بدأ فهد غانم يرتدي ملابسه وهو يردد بصوت عالٍ أغنية شعبية يعرفها العواد متوقعا أنه يسمعه ويدخل البهجة إليه. كان العواد يسد أذنه السليمة بقطع من القطن وبالكاد يسمع صوت الماء الذي ينهمر على جسده متخللا شعره الذي لم ينتبه أنه طويل بشكل لا يحبه، يمد يده إلى أعضائه التناسلية ويغمض عينيه بألم.

الرجل المدني بملابسه الرياضية يضغط على خصيتيه بعنف، "ستعترف يابن الكلبة". يرد العقيد وهو يدخن واقفا خلف مكتبه "لا تشتم أمه هو لا يعرف من ولدته" يصرخ بألم.

يتخيل أنهما ستنفجران تحت يديه، سيتناثر هذا السائل الفاشل حتى يرتطم بالسقف.

يمد يده إلى ظهره يحرك فرشاة الظهر حتى تعجز يده عن الوصول إلى منطقة ستبقى مهملة. يفكر "ماذا لو فعلها ذلك الحقير؟"

الرجل المدني في غرفة التحقيق يرفعه ويضع وجهه إلى الحائط. وقبل أن ينزلق سرواله الأبيض تحت يديه، يضحك العقيد "لا، لا أتركه" ثم يقترب منه إذا اعترفت سينتهي كل شيء وأعدك بأن أساعدك". "أنت تفعل هذا من أجلك، ولن أفعله من أجلك".

أنهى إستحمامه، أغلق صنبور الماء، وجلس فوق المقعد يضع وجهه في يديه. كيف يمكن لإنسان أن يمسح عذابا سابقا. يتعامل معه كأنه لم يحدث، أو حدث في كابوس ما. هذا التدريب الأصعب الذي عليه أن يمارسه لكي لا يخسر ما يريد له العقيد أن يخسره. أن تتفتت ثقته بنفسه وقدرته على أن يقف إلى جانبه في صورة تجمع صهرا وصهره.

خرج من الحمام إلى غرفته كان يسمع صوت فهد غانم، عرف أنه يغني ليسعده بلحنه المتسق رغم صوته النشاز.

ارتدى ملابسه وخرج إلى باب الفيلا التي تقع على هضبة صغيرة أسفلها بساتين ومنازل متفرقة. لم ير حياة توقعها، لا أطفال يلعبون في المساحات الخالية ولا رجال يشربون القهوة أمام المنازل، كانت الأبواب مغلقة على أسرارها ولا شيء سوى الريح تخاتل الأشجار، يمرّ عطرها بأنفه دون أن يشعر بلذة هذا الهواء الناعم الغريب.

"جميل هذا المنظر". قال فهد غانم الذي يقف خلفه. "جميل ولكنه ميت لا حياة فيه". "في الليل سترى الحياة". تذكر أنه قرأ على اللافتة وهو يدخل الشارع الأول في المنطقة "حرنه". أسماء الأماكن الغريبة حين لا تتفاعل معها كأسمائها حين تقرأها في كتاب. "هل هذه حرنه؟". "هي حرنه، الحديقة السرية التي رفضت أن تزورها معي السنة الماضية". "أريد قهوة، هل تشرب معي؟". "سأحضر كرسيين وأعد لك القهوة، أنت ضيف حديقتي السرية".

التفت فهد غانم إلى العواد مبتسما. "هل تعلم فائدة سجنك؟" "فائدة؟" "اختفى عن وجهك غبار الجهراء وشمسها". "وها هي اختفت كلها". "من حظك، ماذا تتذكر فيها؟". أتذكر الذي لن تفهمه أنت". "تعرف حين جاء جدي من الصحراء هربا من عذاب زوج أمه كما قال تزوج امرأة سمراء من البصرة وأنجب أبي الذي تزوج حضرية من أهل البحر

ومات جدي وهو يصيح: أضاعت النساء أصولنا؟ أنا ياصديقي شاعر فقط ولا أصل لي". لو أنك أحببت رشا لزوجها لك العقيد". "ستبقى عوادا بدويا حقيرا". وضع القهوة على الطاولة الصغيرة المجاورة للبحرة التي تتدفق من نافورتها المياه محدثة هديرا خفيفا يخالطه هديل الحمام على السور الفاصل بين الفيلا والبستان الملحق بها. روائح أشجار الدراق والمشمش تتسلل عبر ثقوب السور التي كانت عبارة عن لَبنات مفقودة عن عمد في التركيب الهندسي لسور اللبن.

مد فهد غانم يده إلى سجائره وقدم واحدة للعواد "انفخ همومك بها" "لا. تعرف أنني قررت ألا أدخن". "لا تدخن ولا تشرب ولا تقرب البنات. تعرف. من مثلك خلق للسجن فعلا، أنت لا تستحق الحياة". "أستحقها لأنني صديق شخص مثلك، شخص داعر". "داعر". ونفخ سيجارته في وجه العواد الذي أبعده للجهة الأخرى. "داعر". "أعجبتك ها". "لا أحاول أن أتأكد إذا يجوز تذكير بعض النسويات" "لا يجوز ربما ولكنه يليق بك". ونهض العواد إليه وهو ينفخ سيجارته قريبا جدا من وجهه والعواد يدفعه ثم فجأة احتضنه وبكى. بكى فهد غانم ما لم يستطع أن يبكيه في أزمته. بكاه حرا لا سجينا مازجا بين نشوة حريته وكآبة سجنه.

أخبره فهد غانم تحت دالية العنب أن صاحب الفيلا هو

المعلم العلوي الذي أوصى عليه في الفرع. "ماذا سيفعلون لو لم يوص علي". وسيأتي هذا المساء للسهر معهم في كازينو قريب من هنا كما قال له. تذكر فهد غانم أنه لم يسأل العواد عن تهمته. "ألم يخبرك؟" "ليس تحديدا قال إنك خطر على الوطن". "الوطن. الوطن. كنت خطرا عليه لا على الوطن." نظر العواد إلى الأعلى للضوء الذي يتخلل عريش الدالية. "يتهمني بتفجير المقهى الشعبي ويعذبني لأعترف". "أي مقهى؟ المقهى الشعبي؟" ولم يرد عليه العواد. فأكمل فهد غانم "لقد قبضوا على الجناة بعد ثلاثة أيام". "ولهذا طلب أن يهربني كي لا أفضحه". "وأنا ساعدته كي أخلصك منه؟" "أنت ساعدتني لم تساعده".

الحقيقة التي لم يستطع أن يقولها فهد غانم أن مغادرة العواد كانت ضرورة حتى لو لم تكن إنقاذا للعقيد اليزاز من وجوده في سجن أمن الدولة وافتضاح أمره. كان على العواد أن يغادر البلاد لأنه لن يستطيع العيش بدون جنسيته ووظيفته وهو ما يفعله أغلب المهنيين والجامعيين هربا من جحيم وطنهم إلى جحيم غربتهم الأقل سعيرا.

وصل السائق بصحبة الضيف أو المضيف بتعبير أكثر دقة ورحب به فهد غانم بينما صافحه العواد كما يصافح الغريب الغريب. "مرحبا بك" قال للعواد. "نورت سوريا". أكمل

والعواد يهز رأسه. "يبدو أنك غاضب منا". ولتخفيف الرتابة التي طغت على تعابير العواد قال "أنت لا ذنب لك". "بلى. أنا لي ذنب، إجلس أحكي لك". كان فهد غانم والسائق ينقلان البيرة والويسكي وأراجيل الدخان إلى السيارة. لكي يذيب الثلج بينهما سرد الرجل حكاية لا يعرف العواد إن كان قد اخترعها أو حصلت فعلا فالرجل كما يبدو سيد الحكي. له لكنة شامية بطيئة وجميلة ولكنه يختار الكلمات من سلة إرث لغوي لا قرار لها.

"أنت ستعيش هنا ولسانك أولا وفعلك ثانيا سيحدد كونك إنسانا تستحق أن تبقى هنا أم لا. ما فعلته معك فعلته مع ابن أخي الذي ولد في الخارج وعاش في الخارج ورفض أن يزور سوريا، حين عاد كان في مثل عمرك أو أكبر، ورفضت أن أقابله إلا كما قابلتك الآن، بعد ثلاثة أيام. الفرق هو أنهم ضربوه كفا أو اثنين".

لم يعرف العواد إذا كان يجب أن يحترم الرجل لإنقاذه أو يحتقره ولكن عقيد الأمن هنا لن يختلف عن عقيد الأمن هناك ولن يختلف عنه في أي مكان في عالمه المريض بتلف ثلاثة أجزاء من المخ عدا الجزء المسؤول عن الشهوة المتطايرة والمستقرة. الذي يعرفه جيدا أن صراخ الحديد على الأجساد مازال يدور في الهواء القليل الذي يفصلهما عن

بعض وهما يتحدثان حول البحرة تحت دالية العنب.

"قال لي فهد غانم أنك تعزف جيدا". وابتسم أو تظاهر بالابتسام وهز رأسه موافقا. "أخشى أن أكون نسيت العزف". "يارجل ثلاث ليال ليست نهاية العالم، كنا نبعث لك مبلغ ثلاث وجبات مع أمجد. هنا ابتسم. "أمجد" "نعم أمجد ألم يصلك شيء؟" "بلى أمجد رجل طيب". لم يشأ أن يحرق جسرا يربطه بالفرع فربما سيعود إليه ذات يوم.

"يجب أن نشتري عودا لصاحبك". قال المعلم لفهد غانم الذي قفز وهو يقف في الممر. "أوه... عودك معي أحضرته من أهلك". قال فهد غانم. انتفض العواد وركض فهد غانم إلى غرفته ليحضره. للمرة الأولى تبدو على العواد فرحة حقيقية. حين عاد به إليه احتضنه وأسرع إلى غرفته كمن يلتقي بمحبوبته دون أن يرى أحد سر هذا اللقاء. إحتضنه وتمدد معه على السرير وهو يقبل أوتاره ويحرك أصابعه عليها بحنان لتصدر نغما هادئا جميلا وكأنها تغني آهاتها قبل أن يشتد انفعاله ويحركها بعنف وهي تئن كمن ستبلغ رفيف شبقها تحت يديه. حين طرق فهد غانم الباب عليه كان يبتلع حزنه. "ننتظرك في الخارج". كان يود أن يخرج، أن يشعر باقتسام الحياة مع الناس. يرى أقدامهم تخطو على الأرصفة، يراهم يجلسون في المقاهي، أن يتخلص من وحدته التي تشكل عبئا

لم يحتمله.

لكن السائق يقودهم إلى منطقة مظلمة لا يبدو أنها المدينة التي يود العواد الذهاب إليها. "ها هو "التل"؟ قال فهد غانم الذي يبدو أنه يعرف المنطقة جيدا. "ألم يأت إلى هنا من قبل؟" سأل المعلم، كما يعرفونه الآن، وهو يلتفت للوراء حيث يجلس الشابان. "لا لم يأت إلى هنا ولن يبق هنا". "إن كان ذلك ما يريده". "ذلك ما نريده معا". على الطريق كانت الإنارات المتعددة تشير إلى مجموعة من الكباريهات وعلب الليل بأسماء تحيط بها مستطيلات الإضاءة. كان السائق يعرف إلى أيها يتجه حين أشار إليه المعلم. توقف أمام أحد المحلات حيث تتوقف مجموعة من سيارات التاكسي وسيارات خليجية بلوحات مختلفة. كان المكان مزدحما وصاخبا حيث استقبلهم مجموعة من الغلمان يسبقهم رجل من إدارة المحل أو ربما صاحبه. صافح المعلم بحرارة متجاهلا الشابين ثم اتجه إليهما بعد أن أرضى غرور صاحبه بالكلام والابتسامات ليصافحهما بحرارة أقل وابتسامة أكثر زيفا من ابتساماته للمعلم. "من هنا سيدنا". وسار به إلى غرفة هي مكتبه كما خمن الشابان اللذان بديا وكأنهما تابعان لهذا السيد. "سيجهزون مكانك" قال الرجل للمعلم. وطلب من أحد الغلمان أن ينزل الأغراض من السيارة ويضعها في الثلاجة. "هل تشربون شيئا؟" "لا شكرا" قال المعلم وألمح الشابان بما يفيد

النفي. "اتصل بالروسي حالا". "خير سيدنا، هل ارتكب شيئا؟". "لا. نريده لكي يرتكب شيئا" وضحك المعلم بطريقة فجة وهو يلقي رأسه إلى الوراء وضحك الرجل ببلاهة مقيتة وابتسم الشابان الأول عن علم بما يدور والآخر عن جهل تام. "حاضر سأطلبه الآن". ونهض من أمام المعلم حيث كان يقعي ككلب صيد ثم وقف خلف المكتب دون أن يجلس. رفع سماعة الهاتف وهو ينظر إلى المعلم الذي لم يكن ينظر إليه وكان يتابع زهوه في المكان. "أبو مصطفى". والتفت إليه المعلم حين ذكر اسم الرجل. "أسميته أبا مصطفى، هذا أبو لهب". وضحك المعلم بصوت عال وكأنه أعجب بتناقض الاسمين "المعلم يريدك فورا". "لا أعلم". "يا أخي صدقني لا أعلم". ورفع المعلم صوته من مكانه "تعال يا جحش لو أردت أحضرتك كالكلب" وسمع الآخر صوت المعلم فجاء صوته مرتجفا. "حاضر حاضر".

كان العواد يود أن يسأل فهد غانم كيف اقترب من رجل بهذا النفوذ في بلد غريب كهذا، لكنه سؤال لا يليق الآن وسيسأله فيما بعد رغم أن تخمينه لن يبتعد عن علاقات صديقه المشبوهة. "دائما مفاتيح هذا الحقير نساء". قال في سره وهو ينظر إليه مبتسما للحوار الذي في داخله وحوار المعلم والرجل البعيد خلف الهاتف الذي ختم المحادثة "أنا خدامكم سيدنا".

"خير سيدنا، هل تريده بخدمة؟" قال صاحب الملهى محاولا أن يقترب أكثر من المعلم، لكن المعلم عاد بسرعة إلى وجومه دون أن يعرف الرجال الجالسون أيهما الوجه الحقيقي له. "إذهب وتأكد بأن الطاولة جاهزة". تغيرت ملامح الرجل بسرعة وأحس أنه تمادى قليلا مع المعلم. "طبعا جاهزة. وصرخ بأحدهم الذي هرول إليه. همس بأذنه ثم اقترب من المعلم شبهَ محنيٍّ "تفضلوا سيدنا!". وحين نهض المعلم نهض فهد غانم والعوادِ. اتجه المعلم يسير خلفه رجل الملهى بانحناءة جذعه الطويل، تاركا خطوة أو أكثر كمسافة بينهما، مادًّا يده إلى الأمام نحو الاتجاه الوهمي في الفراغ الذي على المعلم أن يتبعه؛ لينهضَ رجال كثيرون عن أماكنهم ويرفعون أيديهم تحية له أما الشباب الخليجيون فلم يهتموا كثيرا بحضوره وراحوا يكملون مجونهم مع فتيات الملهى والمطرب ذي الصوت الأجش.

جلس المعلم تاركا العواد عن يساره وفهد غانم عن يمينه حتى جاء رجل من حاشيته، كما يبدو، ففضل العواد أن يترك مكانه ليجلس إلى جوار صاحبه. "كما تشاء" رد المعلم وكأنه منحه الإذن لينهض. كان الوضع مزعجا للعواد. بدأت رائحة الشراب تطغى على المكان وملأت فضاء القاعة أدخنة لها كثافات مختلفة ومشبعة بروائح التبغ والفواكه. ورائحة عرق أجساد تقترب منه وقد بلغ منها الإعياء وهي ترقص كمهمة

إجبارية لا بد من الاستمرار فيها بعيدا عن متعتها الروحية أو الجسدية، أشار المعلم لاثنتين من الراقصات على حلبة الرقص الدائرية أن تجلسا في مقعدين بين العواد وفهد غانم. كانت الأولى غجرية ممتلئة قليلا فاحمة الشعر أغرقت عينيها بالكحل وشفتيها بالأحمر الطاغي، والأخرى شقراء رشيقة خفيفة الأصباغ ترتدي فستانا عاري الظهر يصل إلى فخذيها المصقولين كزجاج بلجيكي، مكشوف الصدر. "ما اسمك؟" "فهد غانم" قال لها العواد دون أن يسمعه فهد غانم الذي أصبح يجلس بعيدا عنه بفتاتين. طلب المعلم مشروبا غازيا للفتاتين. ورأت الشقراء العواد يشرب عصير برتقال. "أنت لا تشرب بيرة كصاحبك". "اسألي صاحبي لماذا لا يشرب عصير برتقال مثلي". "هنا الناس تشرب بيرة، ويسكي" نظرت في عينيه "أعطني سيجارة من دخانك" أنا لا أدخن هذا لصاحبي". "مسكين، لماذا..." فقاطعها "أنا مريض بالكبد والطحال والرئتين والقلب". "واللسان أيضا، لأنك كذاب، ثم نظرت إلى نحافته وذهبت بعيدا في عينيه. "لا أعتقد أنك مريض". ونهضت بعد أن تناولت سيجارة من علبة الدخان. لم يهتم فهد غانم الذي يوشوش الفتاة الغجرية ويمسد على شعرها ويكتب رقم هاتف الشقة وعنوانها بما يدور بين العواد والفتاة أو ما يدور بين المعلم ومحادثه، كانت رائحة المرأة، أي امرأة، تخرجه من محيطه إلى أفق أبعد. أفق يبقى

محصورا بين حجابه الحاجز وركبتيه.

حين جاء الروسي أو أبو مصطفى كما لقبه صاحب الملهى انحنى باحترام أمام المعلم الذي أشار إليه أن يجلس لينهي حديثه مع رجله الذي يناقشه بصوت خفيض عن بعض الأعمال الخاصة. كان العواد ينظر للرجل الذي أكمل عدد المقاعد وهو ينظر إلى كل مكان حوله. سأل فهد غانم الرجل "ماذا تشرب؟" ولم يطلب شيئا محددا. فطلب فهد غانم له بيرة من الزجاجات التي وضعت أمامه بسطل الثلج. أسرع الغلام الذي يقوم على خدمتهم بصبها له في كأس. شكره الرجل الذي لم يستطع الربط بين المكان الذي يتواجد فيه الآن والشخوص الذين يحيطون به والمطلوب منه في سهرة لا يدعى إليها عادة من المعلم شخصيا، وراح يشرب بيرته بعينين مرتبكتين.

حين بدأ ضجيج الخليجيين والموسيقى وأجساد الراقصات يرتفع، حتى أزعج أذنه السليمة، قرر العواد أن ينهض. "سأعود إلى البيت". قال لفهد غانم الذي وضع كأس البيرة من يده وضغط على فخذه "إجلس، نحن هنا من أجلك". لم يكن بحاجة لهذا الصخب في ملهى مبتذل، كان يتمنى مقهى صغيرا في ركن ما من أركان دمشق يجلس منفردا بصديق عمره.

أشار المعلم بيده إلى صاحب الملهى الذي انحنى بأذنه إليه دون أن يتمكن أحد من معرفة الحوار الذي بينهما وسط هذه الضجة، ثم نهض المعلم وهو يشير إلى فهد غانم والروسي أن ينهضا معه. لم ينهض العواد حتى التفت المعلم إلى فهد غانم وأشار له أن يأتي معهم. اتجهوا إلى غرفة صغيرة في الأعلى يفصلها زجاج عن القاعة وتتوسطها طاولة مستديرة عليها قماش أخضر نظيف وحولها مجموعة كراسٍ من الخشب والجلد. جلس المعلم أولا وطلب من الآخرين أن يجلسوا وأمر صاحب الملهى أن يخرج ويغلق الباب "لا تدع أحدا يدخل إلينا". وهز رأسه موافقا وطلب من غلام أن يقف إلى الباب دون أن يقترب منه.

كان الروسي رجلا كبير السن في عقده السابع تقريبا، ضخم الجثة أبيض الرأس، كأنما خرجت بشرته من عاصفة ثلجية أبقت بياضا أبديا عليها. في بعض جلده بهاق أو برص. "نريدك في مهمة" قال المعلم." تأمرني سيدنا". "قبل كل شيء لا أريد أن يعرف الجن ولا الإنس ما بيننا، فهمت". "فهمت سيدنا". وأشار إلى فهد غانم الذي مد يده إلى جيب قميصه وأخرج جوازه وسلمه للمعلم. "ما هذا سيدنا؟" "لا تعرف ما هذا؟". "أعرف. جواز سفر". "هذا جواز الشاب". وسلمه له. "أريده بعد أقل من أسبوع أن يصبح جواز هذا الشاب". وأشار إلى العواد. تأمل الروسي الجواز جيدا وابتسم "سيصبح

جواز هذا الشاب، لم لا؟". "في أقل من أسبوع". "في أقل من يومين". "لا أمامك أسبوع". إلتفت الروسي إلى العواد "غدا مساء ستأتي معي إلى المصور". "كم تريد؟" قال المعلم. "ولو يا سيدنا هذه هدية لك". "أنا أقبل، أما هما فلا يقبلان، وحتى أحاسبك لو عرفت أن الجواز ليس كما أريد". "أنت تعرفني جيدا". "أعرفك لو أن يديك تتقنان عملا آخر". لم يحدد الروسي مبلغا معينا ولكن المعلم أخبره بأنه سيرضيه، ثم التفت إلى الشابين "هذا موهبة ضائعة". وضع الروسي الجواز في جيبه وطلب من المعلم أن يغادر لكن الأخير أصر أن يبقى معهم حتى نهاية السهرة.

عاد فهد غانم والعواد إلى الشقة وطلب من الفتاتين أن تتبعانه إلى الفيلا دون أن يخبر العواد الذي بلغ به الضجر مبلغه وهو بالكاد يحتمل هذه الأغاني الهابطة وعطر الأجساد الرخيصة. "هل سأسافر بجواز مزور؟". "هل ستبقى هنا؟ لن يهتم أحد بعودك وموسيقاك إلا إذا أصبحت كأحد هؤلاء المطربين الفشلة". ثم أكمل مازحا "صوتك أجمل على كل حال". لم يرد العواد، كان يفكر بهذا الشاب العجيب الذي يدير حياته حين فشل هو في إدارتها. يصبح يده القدرية التي ترسم مصائره القادمة، وكأي عاجز عن الحركة لا يهتم كثيرا بمن يدفع كرسيه المتحرك.

حين ذهب فهد غانم لعمل قهوة يهدئ بها أثر الكحول في دمه تبعه العواد "أليست مغامرة؟" وضع الركوة على النار، ثم التفت إليه "أنت بدأت هذه المغامرة وعليك أن تنهيها كما يجب، ويجب أن تنتهي كما يجب، لا وقت للتردد، لن أتركك هنا". "أنا خائف، لا أريد أن أسجن مرة أخرى". ولم يرد فهد غانم.

طرق الباب "افتح الباب". قال له "من سيأتي الآن؟" "سترى". فتح الباب كان سائق سيارة أجرة يسأل عن فهد غانم، وقبل أن يجيبه العواد ترجلت من السيارة الفتاة الشقراء متجهة إليه وتتبعها الأخرى. دخلت الفتاتان بينما بقي السائق الذي قال له العواد ببراءة "تفضل". "لا سأعود في الصباح". وعاد العواد بعد أن أغلق الباب. سمع الفتاة الشقراء تقول "كذب علي هذا" وهي تشير إليه "قال هو فهد غانم". "لم يكذب، إسمنا واحد" قال فهد غانم. وغمز بعينيه إلى العواد. جلست الفتاتان في الصالة "جميلة هذه الفيلا". قالت الغجرية وردت الشقراء "هذه للمعلم". "تعرفينها إذن" قال فهد غانم. "لم أدخلها من قبل". ولم يهتم إن كانت دخلتها من قبل أم لا. "إذا أردت قهوة فاصنعي لنفسك" قال فهد غانم للشقراء التي طلبت قهوة. "أريد بيرة قالت الغجرية". "لا. للأسف لم يعد هناك بيرة". لم يشارك العواد في الحوار. شرب قهوته والفتاتان في المطبخ لعمل ركوة قهوة أخرى. حين عادتا إلى الصالة نهض

العواد إلى غرفته وأغلق الباب وفهد غانم يتابعه مبتسما والشقراء تنظر إليه بحنق. أشارت براحة يدها مستفسرة وهي تنظر لفهد غانم الذي طلب منها أن تشرب قهوتها وتلحق بالعواد إلى غرفته. كان الباب مغلقا فطرقته. فتح الباب متجردا من ملابسه "نعم". "هل أدخل؟". "لا، أريد أن أنام". "وأنا أريد أن أنام". أغلق الباب دون أن يرد عليها فعادت إلى الصالة. "أنت طلبت منا أن نأتي". "تستطيعين أن تنامي هنا وسأدفع لك كصاحبتك" لكن فهد غانم لم يدفع حتى نام مع الاثنتين تباعا.

لم يصحُ العواد حتى الساعة الثالثة عصرا، كان فهد غانم نائما فخرج إلى حوش الفيلا بعد أن أعد إفطارا خفيفا من بيض مسلوق وجبن وشرائح طماطم وإبريق شاي، كان ذلك هو كل ما يجيد عمله. جلس حول "البحرة" محاولا ألا يفكر في الخوف الذي يباغته بين لحظة وأخرى. كانت الغرف المظلمة والقضبان وكوى ترتفع فوق أبواب الزنازين ترتسم في خيالاته، ويحاول أن يطردها بصورة عابرة لشَعر رشا المنثور على كتفيها، أو صورة والده وهو يصبغ لحيته ويصاب بالربو، أو بيت الأربعة "مرهش" وهم يعودون مثقلين من أعمالهم إلى ضجيج خيالاتهم، تخاتله الألوان التي تطويها من أمام عينيه رمادية السجن فلا يرى زرقة الباص 103 ولا اخضرار مزارع الفلاحين بين السوق القديمة ومنازلهم، ولا قمصان الأولاد

الملونة وهم يلعبون الكرة بجوار مزرعة الشيخ. فجأة أحسَّ أن ما يفعله فهد غانم هو الشيء الوحيد الممكن فعله، فالبقاء هنا خيار لا يبدو ممكنا؛ وإن لم يكن مستحيلا ولكنه انتظار بطيء للموت بالنسبة لشاب في مثل ظروفه.

قبل أن تغيب الشمس عاد السائق وطلب من العواد أن يذهب معه إلى الروسي. "سأوقظ فهد غانم". "لا نحتاجه. دعه نائما". وانطلق به إلى حيث منزل الروسي في إحدى حارات دمشق القديمة والذي رحب به وطلب منهما أن يسيرا معه إلى أول السوق القريبة منه. طلب من المصور أن يلتقط صور جواز بطريقة معينة اهتم الروسي باختيار إضاءتها، ولون قماش الخلفية، كأنه مخرج سينمائي يدير حركة تصوير. أنهى المصور عمله ونقَّده الروسي رافضا أن يدفع العواد شيئا. غادر الاثنان عائدين إلى الفيلا، لكن العواد طلب من السائق أن يرى شوارع دمشق. "سنذهب للصالحية". "لا يهم المهم أن أرى بشرا حقيقيين". لم يفهم السائق أين سيرى العواد ذلك ولكنه أوقف السيارة أمام محلات الصالحية، وطلب العواد منه أن يبقى في مكانه حتى يعود إليه. منذ زمن لم يعش هذه الحياة الجميلة، لم يتجول في سوق ولم يرَ صبايا بهذا الجمال يشربن العصير من محل صغير في الزاوية ولا نساء يتحركن بحرية كاملة من متجر إلى آخر. لن تشعر بحريتك إن لم ترَ غيرك يمارسها أمامك. كأنه لم يكن حرا منذ

خروجه من السجون إلا حين رأى نفسه في عيون الآخرين. توقف أمام محل عصائر وطلب عصير توت، ذرع الشارع وتخيل لو بقي هنا، ما الذي يمكن أن يحدث. ربما التقى بمجموعة من العازفين أو فرقة جيدة تؤمن بعزفه، هنا على الأقل يجيد لغة الناس ويتفهم تعاليم فرع الأمن، وبإمكانه أن يتعايش معها كرجل غريب. وربما هنا سيكون أسهل على رشا أن تأتي لتعيش معه. ثم يعدل عن الفكرة. "الإنسان ليس سوى ورقة ألصقت على جبهته تحدد ماضيه وحاضره ومستقبله". يقول في نفسه. "وأنا الآن لست أنا". عاد ثانية إلى السائق الذي سأله للمرة الأولى عن اسمه. "رأفت" قال. "لست من الشام. لهجتك تختلف قليلا". "أنا من المخيم؟" "فلسطيني؟". "للأسف". "ولماذا للأسف؟". "نحن ضيوف على بلدان تقبلنا اليوم وترفضنا غدا".

صمت العواد وكأنما الحزن لا يجيد حوارا مع الحزن. حين وصل إلى الفيلا كان فهد غانم يعد القهوة ويقابله بابتسامة يعرف العواد مغزاها. "تشرب قهوة" "أشرب". جلسا حول "البحرة" بعد أن أخبر السائق أن يعود مساء. "أرجوك لا أريد الذهاب إلى الملهى". "ليس إلى الملهى سنذهب إلى مكان محترم ويعجبك، أنا أتنازل عن حياتي كلها من أجلك وليس عن الملهى فقط". ولم يرد العواد يعرف أن تلك حقيقة. التفت إليه فهد غانم "إلى أين قررت أن تذهب؟" "سأختار

كندا" "طبعا هذا أفضل، الحياة هناك سهلة". "لا أعرف كيف كانت ستبدو الأمور من غيرك". "حين تختار طريقا لا تنظر إلى أين تؤدي الطرق الأخرى، لأنها ليست لك". "سأتصل بوالدي ورشا". "انتبه لا يخرج لك العقيد من الهاتف". قال فهد غانم مازحا. "ليتني أراه هنا". "سيأتي يوم وتراه". ولم يرد. لا يبدو أن صدفة كهذه ممكنة.

أرسل والد العواد له مبلغا وأرسلت رشا مبلغا لفهد غانم ليسلمه له دون أن يخبره أنه منها. استلم جواز فهد غانم ورأى صورته فيه. قلّب صفحاته. فيزا لأمريكا وأخرى لكندا كان فهد غانم أخذهما من الكويت. لم يشك للحظة أنه جواز مزور. تصفحه المعلم "يداه من حرير ابن الحرام هذا". في الليلة الأخيرة لسفر العواد دعاهما المعلم على العشاء بمطعم في الزبداني وسط رائحة أشجار الفاكهة وخرير جداول الماء. طلب عرقا ومازح العواد وهو يطلب له عصير فاكهة "اسمع يا بني لا تتغير، ولكن سأقول لك شيئا، أجمل ما في الدنيا أن تجلس في الصيف على ربوة في الشام وتشرب هذا العرق المجنون حتى تصاب بالجنون، هذا هو عين العقل". ثم ضحك حتى اهتز جسده. ولكي يتوقف عن الضحك قال له العواد "دمشق عاصمة جميلة ولكنها بالنسبة لك أجمل ما في الدنيا". لا يريد العواد أن يقارن دمشق بالجهراء ولا يستطيع أن يقنعه بأن المدن لا يمكن أن ننظر إليها بعيدا عن علاقتنا

بها، فالمقارنة بين مدينتك وأخرى، وإن كانت أجمل منها فعلا، كمقارنة حبيبتك بنساء الأرض.

أكل العواد في تلك الليلة جيدا، كان الطاهي يعلق الذبيحة من عراقيبها على مقربة من منقل الفحم الطويل الذي يقف وراءه ويختار له أطيب اللحم. "إنها ليلته" يقول المعلم "اهتم به جيدا". عاد إلى الفيلا ممتلئا بالشواء والهواء المطعم بالفاكهة. وما يفكر فيه هو فراق فهد غانم مودعا آخر صورة لوطنه في عينيه. تحاشى فهد غانم أن ينظر في عينيه وتظاهر بأن الشراب أدار رأسه وأثقل لسانه فتعذر بالتعب ودخل غرفته يدخن سيجارته ويفكر كيف سيكون وداعهما غدا. كان يود أن يرحل العواد وهو نائم ويتصل به ليقول له وصلت. بقي جالسا على كرسيه ثم أحس بأنه لم يكتف من صاحبه. خرج إليه وكان يعد حقيبته الصغيرة وبعض ملابسه التي اشتراها من سوق المدينة، يغلقها، ويضع عوده فوقها.

"أريدك أن تعزف لي". "ماذا ستسمع؟" "أي شيء تحب أن تتركه في أذني حتى نلتقي". أخرج عوده وجلس على سريره وأدار فهد غانم كرسيا جلس عليه محتضنا مسنده قبالة العواد. كان اللحن على عكس ما توقع فهد غانم راقصا مليئا بالفرح ولم يعلق حتى انتهى. "توقعت عكس ذلك". "لا أفعل دائما ما تتوقع". "هذا اللحن لها سجلته البارحة في هذا

الكاسيت ستأخذه لها، لا أريد لها أن تحزن". "ستلتقي بها صدقني". "أعرف الآن لدي ثقة كبيرة بذلك".

لم يناما تلك الليلة رغم إعياء القلق لدى العواد، وإعياء الفراق وعرق الشام لدى فهد غانم. كان يسأله إن كان خائفا من مغامرته ويرد باقتضاب "تقريبا". ويطمئنه صاحبه "دبرنا كل شيء، المهم أن لا يخذلك الخوف". "ماذا سيحدث لو خذلني". "سيعيدك المعلم إلى هنا، أنا أثق به". لم يكن أمامه سوى أن يثق هو أيضا بالمعلم. في الصباح أرسل المعلم سائقا خاصا به وطلب منه أن يرافق العواد حتى يجتاز حدود الرمثا وصولا إلى مطار عمان وسلمه خطابا لصاحبه في الجوازات الأردنية. "سيتدبر كل شيء".

تعانق العواد وفهد غانم وكأنه وداع لن يلتقيا بعده، تأكد فهد غانم من جميع أوراقه كما يطمئن الأب على سفر ولده للمرة الأولى. ركب السيارة بعد أن صافح المعلم الذي قال بخجل "سامحنا". وانطلق إلى مجهول جديد وأرض جديدة ستكون محطته الأخيرة التي يغادر بها لغته وماضيه وتاريخه.

كان السائق طوال الطريق يدخن براحة تامة ويترنم بصوت فيروز في مسجل الكاسيت، وكأنه يحمل صندوق مشمش من الشام إلى عمّان، لا رجلا بجواز سفر مزور يكاد

يرتجف من قمة رأسه إلى خصيتيه خوفا. ينظر إليه العواد مربتا على جيوبه كمن يريد أن يلقي هذه الأوراق من نافذة السيارة ويعود. "هل تعرف أحدا في كندا". "لا". قال بصوت يرتجف. "أنت خائف". "لا". "أنا لا أسألك، لا تخف يا رجل، لا أحد هنا يهتم بك إن زورت جوازك أو غيرت اسمك لأنك لست سوريا، لو فعلها سوري لسلخوا جلده. أنت لا أحد يهتم بك". "وماذا عن عمّان؟". "الحال ذاتها أنت لست أردنيا، مجرد مسافر خليجي سيمر عبر البوابة بواسطة المعلم". "كان رجلا طيبا". "نعم كان طيبا معكم". فضل العواد أن لا يخوض في ما يريد الرجل، إلا أن السائق أكمل حواره "هذه أيضا مصالح، يحتاجه الناس هنا كما يحتاجهم هناك، وهذه ليست خدمة ذات قيمة للطرفين". لا يعرف العواد إن كان الرجل يحادثه أو يهينه ففضل أن يبقى صامتا حتى تنتهي مهمة الرجل، ويفترقا.

وصلا إلى معبر درعا السوري مد السائق يده بورقة للرجل الذي يقف أمام الحاجز "افتح الحاجز". صرخ بزميله الذي فهم أن سيارة مهمة ستمر فرفع العمود الأفقي ومرت السيارة دون أن يهتم العسكري بالراكب إلى جوار السائق وهو ينحني محييا سائق المعلم. "سنصل عمّان في الموعد صدّقني". قال الرجل مبتسما وهو يضع الورقة السحرية في مخبئها تحت المفرش الذي يغطي لوحة العدادات. كان ذلك

يريح العواد حتى الآن ووجود الرجل معه حتى عمان سيضمن اتصاله بالمعلم في اللحظة التي يحتاج إليها.

أمام المعبر الأردني توقفت حافلات كثيرة وسيارات قليلة، بعضها خليجية والعواد يطيل النظر في كل سيارة كويتية كمن يود التعرف إلى أصحابها. ثم يبعد نظره حين يرى السائق يتابع نظراته ويبتسم. كان مرافقه يقود السيارة متجاوزا طوابير الشاحنات والسيارات حتى استوقفه رجل درك حدود. "إلى أين، قف خلف السيارات". "أبو عامر ينتظر هذا الرجل". ثم نظر إلى داخل السيارة ليشاهد وجه العواد. "تعرف أبو عامر؟" وبنظرة سريعة للسائق وللدركي. "طبعا". "أوقفوا السيارة هناك". أوقفها السائق وترجلا منها بثقة السائق المفرطة وبعض القلق لدى العواد، الذي خمن أن الأمور تسير كما يرام حتى الآن. دخلا المكتب سأل السائق عن أبي عامر وأشار شرطي درك آخر إلى المكتب. تبادل السائق تحية معه وكأنه معرفة قديمة وجلس والعواد إلى جوار المكتب. "أهلين بالشيخ" يوجه آمر المركز حديثه إلى العواد. "جوازك إذا تكرمت". "تأمل الجواز، أها، فهد غانم، أنعم وأكرم". نقر الاسم قلب العواد بسرعة. وكاد أن ينظر إلى الباب ليرى إن كان فهد غانم قد دخل المكتب. بينما التفت أبو عامر إلى السائق "كيف صحة المعلم، منذ زمن لم يأت إلى هنا. خير". "خير. حملني وعدا أن يزورك". "إلى أين

الشيخ، ستبقى في عمّان؟" "لا مسافر إلى كندا" وهو ينظر إلى الفيزا "وأمريكا" ثم يأمر عسكريا بصوت عال أن يأتي ويكمل" طبعا أنتم الخليجيون تعيشون أحلى زمنكم لو تقدمت أنا بفيزا إلى أمريكا أو كندا لاستلمها حفيد إبني الذي لم يتزوج حتى الآن". دخل العسكري "خذ يا إبني، اختم الجواز وأعده إلي". تبخرت كل هواجس العواد وذابت غيوم القلق عن عينيه المذعورتين. شرب الشاي مع آمر المركز وأجاب على الأسئلة التي يوجهها الرجل من باب الفضول المحض وليس التطفل أو التحقيق. استلم الجواز ودسه في جيبه إلى جانب تذكرة الطيران. وغادر برفقة السائق إلى مطار عمّان.

تأكد السائق أن العواد اجتاز الجوازات وجلس يستريح قليلا ويطمئن على إقلاع طائرة الخطوط الملكية الأردنية إلى مونتريال في رحلتها المباشرة. دخل العواد البوابة بعد أن سلّمه المضيّف الأرضي رقم المقعد وجواز سفره وهو يسأله "الأخ مطرب خليجي". "ليس بالتحديد، أنا هاوٍ". "أحب الخليج وأغاني الخليج" لم يجد ما يرد به. ارتمى على المقعد وهو لا يحلم بشيء سوى أن تقلع الطائرة ولتسقط بعد ذلك في المحيط.

- 4 -

بدأت الطائرة تتحرك على المدرج والعواد يتأمل الوجوه، يجاوره شاب سعودي بدأ أسئلته تمهيدا "أمامنا أكثر من اثنتي عشرة ساعة طيران". "المهم أن نصل بسلام". "من الكويت؟" "نعم" أنا ولدت في الكويت ودرست في الكويت" حين لم يرد العواد عرف الشاب أنه لا يريد الحديث معه. لكنه أكمل أسئلته "من أين في الكويت؟". "من الجهراء". رد باقتضاب "أنا ولدت في العباسية وأنهيت الثانوية العامة في الكويت، والدي كان يعمل في الجيش الكويتي". حينها فقط التفت العواد إليه "وماذا تفعل في كندا؟". "أنا طالب مبتعث لدراسة الإدارة". نظر إليه طويلا وكأنه يرى نفسه في حياة سابقة. "في أي سنة؟". "هذه السنة الأولى أنهيت اللغة السنة الماضية". "وأنت ماذا تفعل هناك". "حتى الآن لا شيء". لم يشأ العواد أن يحدث الشاب عن كل التفاصيل التي لا حاجة له بمعرفتها. لكنه الآن يمتلك صديقا ربما تحدث معه عن المدينة والأماكن التي يعرفها حتى يصلا. في منتصف الرحلة عرف الشاب السعودي أن العواد لا يعرف شيئا عن المكان الذي سيذهب

إليه، وهو ليس سائحا ولم يهتم كثيرا بالقصة التي يخفيها عنه. "هل ستبقى في مونتريال؟". "لا أعرف. وأنت إلى أين ستذهب؟". "أنا أدرس في جامعة أوتاوا حاليا، تعلم. ضواحي أوتاوا تشبه الجهراء". "سأرى. ربما ذهبت إلى أوتاوا". كان الإعياء قد بلغ بالعواد مبلغه فغفا مزعجا بشخيره الشاب الذي سد أذنيه بسماعة التلفزيون أمامه.

لم يفق العواد من غفوته حتى هبطت الطائرة على المدرج وارتطمت إطاراتها محدثة رجة أنهت الكابوس الأول الذي تعرض له بين السماء والأرض. التفت إلى الشاب. "أريد منك خدمة". وتهلل وجه الشاب "أبشر". "سأترك هذا الجواز معك ولا تسير إلى جانبي أو تتعرف علي. اذهب إلى مدينتك وأنا سألحق بك، أكتب لي عنوانك وهاتفك". "وكيف ستمر من هنا؟". "لا عليك سأتدبر أمري". لم يمانع الشاب الذي لم يعرف سببا منطقيا لذلك. تركه العواد يسبقه وتأخر في الهبوط من الطائرة. كان عليه أن يسير على تعاليم فهد غانم التي رسمها له بدقة من تجارب سابقة أكد له أنها نجحت مع غيره وأكدها له الروسي الذي زور أكثر من جواز لغيره. لكنه يخالفها ليحتفظ بالجواز بدلا من تمزيقه وإلقائه في دورة المياه.

حين وصل الصالة كان الشاب السعودي قد تجاوز

الجمارك فلم يلمحه العواد فيها. نظر في وجوه الناس، ألوانهم المختلفة، هدوئهم القاتل، رجال الدرك، هذا بلد جديد تماما وحياة جديدة حمل عوده وحقيبة يده ووقف خلف طابور القادمين، ينتظر ما ستكون عليه رحلة هذا الجنون.

الكتاب الصفر/2

الطارئون على الحكاية

مهاجر، شرطة وكلاب طارئون على الحكاية

بداية يوم من أيام الشتاء الطويلة والتي تبدأ بعاصفة وتنذر بأخرى. كأن زمجرة عاصفة البارحة وعنفها القاسي انتهى ببياض يميل إلى الزرقة في أول أيام يناير العنيف كرأس مطرقة. هدوء دافئ لا يعبث بأطرافه المسدلة سوى صوت هاتف المنزل. نهضت فزعا وكأنني الآن فقط أنتبه إلى قلقي الذي تركته ممددا على سريري الدافئ في هذ الصقيع الخارجي. "نعم أنا" قلت وأنا أرد على الهاتف متحركا جهة النافذة أزيح الستارة لأرى ما خلفته عاصفة الرعب على وجه المدينة البارد منذ نهاية خريف قصير. "نعم أنا صاحبها". نظرت إلى مواقف السيارات أمام البناية رأيت سيارة متوقفة في مكان سيارتي يغطيها الثلج الأبيض ولكنها تبدو أصغر حجما من سيارتي. إنها سيارته بالتأكيد. "نعم أعرفه. إنه يعمل معي". "نعم، هي سيارتي وهذا رقمها". بالتأكيد لم يعد هذا اللعنة ليلة البارحة، ربما انزلق في جرف أو اصطدم

بشاحنة على الطرق الزجاج التي صقلها الثلج دون نية مبيتة للقتل. حاولت أن أستغل التقاط الرجل لأنفاسه وقبل أن يسألني سألته "هل السيارة بخير؟" لحظتها، لم أهتم بالسؤال عنه ولا إلى أي لعنة ذهب هذا المجنون. لكنه سألني دون أن يكترث لاستفهامي. "نعم أعرفها" رددت عليه، "ولكن..." وبصرامة لا مبرر لها أعاد علي السؤال ثانية وأعدت عليه الإجابة "نعم أعرفها... هل" قاطعني بعصبية جعلتني أخمن أن الأمر الذي حدث أكبر من توقعاتي. "سأحضر يا سيدي" "نعم سمعتك.. بحيرة الطين.. أجل أعرفها جيدا.. حسنا يا سيدي في الموقف العام قبالة المدخل. أعرفه أيضا" الرجل يحدثني كمهاجر غبي يعيد علي ذات الأسئلة التي أجبت عليها والتي اختار لها لغة بسيطة ورائقة. "قلت لك يا سيدي سأفعل. تأكد أنني أفهمك". "لا شكرا لدي سيارة خاصة وبإمكانك أن تأتي لتأخذني إذا شئت". أغلقت الهاتف، وربما هو من أغلقه أولا.

كنت قد خرجت من باب غرفتي بمنامتي لا شعوريا وأنا أحدثه. عدت مرة أخرى إلى جوار الشباك، وضعت السماعة في موضعها بآلية، وأزحت الستارة مرة أخرى. نظرت إلى موقف السيارات. أتخيل أنني أصحو للتو وأن الهاتف الذي رن قبل قليل، وأجبته، كان الحلم الأخير الذي علق بذهني، وأن السائق اللعنة عاد ليلة البارحة وأوقف السيارة في مكانها،

وغادر بسيارته كما يحدث في فجر كل يوم من أيام اللعنة التي عمل بها معي. خرجت من البيت مرتديا ملابسي الشتوية كاملة، لفحني الهواء فتجلد وجهي سريعا، توقف الدم في شرايينه، أحس به يفقد وعيه الخاص بعيدا عني، حاولت أن ألف وشاحي حوله وأنا أزيح الثلج عن مقدمة سيارته رغم أنني أعرف أنها ليست لي. كنت متعلقا بأي وهم يعيد كل شيء إلى الأمس.

عاصفة البارحة تركت ثلجها الناعم يكسو المدينة بأكملها، وكأن الله ألقى عليها رداء من البياض. اكتست أغصان الأشجار العارية من خضرتها طبقة من الجليد تتلألأ تحت ضياء هذا الفجر كمعلقات أعياد الميلاد.

أزحت الثلج الناعم عن زجاج السيارة، لم تكن تلك عملية قاسية، أدرت محرك السيارة وعلي أن أزيل هذا الجليد تحت ندف الثلج، والذي التصق بزجاج السيارة مشكلا طبقة زجاجية أخرى بذات السماكة، وعليك أن تفصل زجاجتين عن بعضهما بعصا من الألومنيوم لها نهاية تشبه السكين. وهو العمل الأكثر إزعاجا. كان جاري المسن يفعل ذات الشيء. "هذه أجمل عاصفة بغيضة رأيتها في حياتي". قال لي وهو يلهث "أجل" قلت. كنت أحرك يدي بسرعة وأحدثه دون أن أهتم كثيرا بالتفكير في العاصفة الجميلة – البغيضة. أفكر

أكثر بما ينتظرني أمام بحيرة الطين. بحياتي التي ستتوقف تماما، خبز يومي المرهون بعجلات هذه الآلة وتروسها واسطوانات محركها. أعد أياما طويلة ستتوقف فيها عن العمل ثم أنقصها في ذهني وأعود لأزيدها. حين انتهيت من العمل وبدت الرؤية ممكنة من الزجاج نفضت الثلج عن ملابسي ووجهي وقبعة الصوف. ألقيت عصا التنظيف في المقعد الخلفي وقبل أن أفتح الباب قال جاري الذي لم ينجز نصف زجاج سيارته "اسمع أيها الشرقي" ونظرت إليه خجلا بأن أقول له "إذهب وعاصفتك الجميلة البغيضة إلى الجحيم" مددت رأسي نحوه متحملا آخر جملة سأمضي بعدها إلى جحيمي "لا يتقدم بك العمر في هذا البلد يا بني. عد إلى شمسك!". نعم هذا ما أحتاجه. شمسي التي رمتني وأنا خريج كلية الحقوق إلى قيادة سيارة أجرة في عاصفتك الجميلة البغيضة. ركبت سيارتي ولم يتحرك مؤشر حرارة المحرك كثيرا. ربما سأصل بحيرة اللعنة قبل أن يبدأ يُبعث الدفء في هذا المحرك البارد.

تداعت لي، وأنا في الطريق، الأشياء المحتملة والتي يمكن أن يرتكبها سائق سيارة أجرة والأشياء التي يمكن أن ترتكب بحق سائق سيارة أجرة في عاصفة كهذه. تحدثني نفسي لسبب لا أعلمه بأنه هو من ارتكب حماقة ما، لعنة ما، ولهذا لم يحادثني، لم يهاتفني ليخبرني بما حدث، ربما أصابه

مكروه، ربما مات هذا المسكين اللعنة. الرجل الذي لا أعرفه جيدا كما لا يعرفه أحد هنا جيدا. حتى إننا لا نعرف اسمه الحقيقي. من هو؟ من أين جاء؟ وماذا كان يعمل قبل هجرته. أقطع بيني وبين نفسي كل الوعود التي قطعتها بيني وبين نفسي من قبل؛ بأن لا أترك أحدا يعمل معي، وأعرف أنني سأتراجع عن هذه الوعود كما تراجعت من قبل عن وعود مماثلة.

اقتربت من مدرسة "ريجاينا" المطلة على غابة أشجار البحيرة، يفصلهما ملعب كرة بيسبول وساحة صغيرة لمراجيح الأطفال ومساحة خضراء لكرة القدم الأمريكية هُجرت منذ هطول القطن الإلهي في بدايات يناير، المنظر الذي يتراءى لي وأنا أقترب من مدخل البحيرة ليس مريحا بل يكاد يكون مرعبا، كأن حربا صغيرة تدور هناك.

تنعكس أضواء حمراء وزرقاء وخضراء وبيضاء ساطعة على حقل الثلج الممتد، وتنبح كلاب بوليسية وكأنها ترد على صدى أصواتها المرتطم في الحائط الوهمي للعراء الباهت. سيارتان للإسعاف الطبي، سيارات شرطة لا أحصر عددها، سيارات مباحث بإضاءات زرقاء صغيرة، سيارة فورد سوداء للأدلة الجنائية، سيارات إطفاء وإنقاذ ومعمل طبي متنقل وصوت طائرة مروحية لا أستطيع أن أراها. لم أستطع أن

أشاهد سيارة الأجرة في وسط كثافة هذا الحديد الملون بألوان الرعب والأضواء المبهرة التي أفقدتني الشجاعة التي تحدثت بها هذا الفجر مع رجل الشرطة وأنا في منزلي.

أوقفت سيارتي بعيدا في الساحة التي يستخدمها موظفو المدرسة وترجلت نحو المربع الكبير الذي أحاطته الشرطة بشريط أصفر لتشير به إلى جريمة ما. "ما الذي اقترفه هذا الأخرق اللعنة ليحشد كل هذا الجيش حول سيارة أجرة لا أستطيع أن أراها وربما لن أراها ثانية".

أقترب من المشهد حذرا سيرا على الأقدام والذي يدور في ذهني وأنا أواجههم هو أن أرفع يديّ إلى الأعلى حين يصرخ بـي أحدهم صراخا متوقعا في حالة كهذه. سرت ببطء يزداد كلما اقتربت دون أن ينتبه لي أحد من هذه الكائنات البشرية المدججة بالأسلحة والأجهزة وهذه الحيوانات التي ابتكرت فك شفرة الرائحة وكأنها ستقوم بهجوم مباغت على الدغل الذي يفصلها عن بحيرة الطين. حين اقتربت أكثر لمحني شرطي ضخم الجثة يضع يده على خاصرته قريبا من سلاحه الناري ويشير لي بيده أن أبتعد عن الشريط الأصفر الذي تفصلني عنه أمتار قليلة الآن.

رفعت يدي إلى الأعلى وطلبت منه أن يقترب أكثر "لقد

اتصلتم بـي. أنا صاحب سيارة الأجرة" ربما لم يسمعني أو لم يفهمني. اقترب أكثر من الشريط الأصفر ثم انحنى بصعوبة بالغة ليخرج منه إلي دون أن يرفع عينه عني ولم يغير وضعية يده القريبة من خصره. "ماذا تريد هنا؟". "ارتجفت قليلا" لا يا سيدي أنتم اتصلتم بـي أنا صاحب السيارة الأجرة". "حسنا لا تتحرك حتى أعود". "لن أتحرك". ولم أتحرك فعلا. لم يكن بإمكاني أن أتحرك وكأنني أنا سبب كل هذا الحشد الذي يجتمع الآن لسبب لا أعرفه. كنت أحاول رؤية سيارتي بين الفراغات البسيطة التي تركتها السيارات. لم يكن هناك ما يشير إليها.

عاد الشرطي يسير خلف رجلين أحدهما مدني والآخر عسكري تقدم به العمر كثيرا.

"أنت صاحب سيارة الأجرة؟" كان بودي لو لم أكن صاحب اللعنة. "نعم يا سيدي أنا. أنتم اتصلتم بـي". أشار إلي بإصبعين حركهما مرتين "تعال!" وكأنه يكتب فاصلة مزدوجة في الهواء. قادني نحو سيارة الإسعاف ورفع الغطاء الأبيض عن جثة رجل "دقق به قبل أن تجيب" كان وجها أبيض يابسا كمن مات متجمدا. بدا لي عاريا من ملابسه تحت الغطاء وكان عاري الصدر إلا من قميصه الداخلي الأبيض والذي يبدو ممزقا. بعد لحظات وكأنني أنظر إلى

الموت على هيئة رجل لا لرجل ميت. تأملت وجهه. ها هو الموت الذي عرفته يختال سطوة وعنفوانا يموت، أحسست بفرح داخلي حاولت ألا أجعله ينعكس على عيني، ما الذي جاء به إلى هنا؟ هل كان يتتبع ضحية ينهيها بيديه وما أكثر ضحاياه هنا، لكنه وحيد الآن، لم يكن وحيدا يوما، لا يستطيع أن يفعل كل شيء لولا سوط السلطة وسلاحها وسجونها التي يديرها بقدرة خارقة. تخيلته حيا تسير الدماء في عروق وجهه. كدت أقول نعم أعرفه. فقط رأيته في مكان ما، صورة في جريدة، في جهاز تلفزيون، رجل مهم، رأيته بالتأكيد في يوم من أيام الماضي البعيد... رأيته، لم أره، لا لا لم أره. أنا خارج هذه الحكاية لماذا أقحم نفسي بها، النفي هنا أكثر راحة لي واطمئنانا من تبعات الإيجاب. "لا يا سيدي لم أره".

نظر إلي الرجل المدني. "توقعت منك العكس، أعتقد أنك تعرفه". "لماذا توقعت ذلك؟". "هذه مهمتي أعرف جيدا أنك تعرفه". ربما يقول ذلك لأنني أطلت النظر إليه. "لا يا سيدي نحن في الشرق نتشابه وأنا خريج حقوق مثلك، علي أن أتأكد".

"لا يهم أنت خريج ماذا، هل تعرفه؟". "قلت لا. لا أعرفه" "حسنا. هل تعرف زميلك سائق الأجرة". "ماذا تقصد يا سيدي؟". "لاتقل لي يا سيدي". "حسنا" "ماذا تقصد؟".

"أقصد أننا عثرنا على سيارتكما ولم نعثر عليه، هل تعرف أين هو الآن". "لا لم يعد ليلة البارحة ولم يكلمني". "تعال معي".

سرت معه دون أن أفهم ما يحدث وما حدث. كانت السيارة تقف في مدخل بحيرة الطين أمام السياج الحديدي الذي يفصل دغلها عن الساحة الكبيرة للمدرسة. "من هنا دخلا". أشار إلى المدخل الصغير للبحيرة وهو مدخل من جانبين تفصلهما لوحة بيضاء اقتطعت من السياج كتب عليها اسم البحيرة. "هل هذه سيارتك؟" "نعم هي". "حسنا إذن... هل هو الذي كان يقودها ليلة البارحة؟" كان الرجل يدون إجابتي بدفتر صغير "نعم هو". "فهد غانم ال ال ماذا؟". "العواد يا سيدي... العواد". "آه... العواد" قالها بصعوبة بالغة. "لا يعمل معكما شخص ثالث على السيارة". "لا يا سيدي". "حسنا أنت مصر على كلمة سيدي، لا بأس". تناول بطاقة تعريفية صغيرة وناولني إياها. "سيتصل بك صاحبك إذا كان حيا، هو الوحيد الذي يعرف ما حدث... إذا فعل اتصل بـي". "هل أستطيع أن أستعيد سيارتي؟" "لا ليس الآن، لا تخف لن نبقيها طويلا... نقدر وضعك" أشار الرجل إلى فصيل الشرطة والكلاب وطلب منهم أن يتجهوا إلى جهة أخرى. كانت المروحية تحلق فوق الدغل وشرطة الكلاب والكلاب تسير ناحية صوت مروحتها. أشار إلي بيده أن أنصرف.

وقبل أن أمضي سألني ثانية "كيف تنطق اسمه قلت لي" "العواد... العواد" قلتها مرتين وأعادها مرتين.

طائر جارح طارئ على الحكاية

كنت أشم رائحة جسد من مسافة ليست بعيدة من هنا. رائحة جسد تبعث به العاصفة العنيفة التي اشتدت في منتصف الليل ولم أتمكن من الاقتراب من مصدر الرائحة. كانت معدتي خاوية لأيام طوال، أيام ترقبت فيها من الأعلى أن يخرج أرنبُ بري من مكان ما تحت الأرض الجليدية، أن يضل سنجابا جائعا طريقه إلى مجثمه الشتوي.

في الفترات النادرة التي تصل فيها درجة الحرارة إلى معدلات معقولة نسبيا تسمح لي باقتناص هذه الطرائد الصغيرة، وكنت بحكم خبرة طويلة أميز رائحة عن أخرى، فلكل جسد رائحته التي أتعرف بها عليه، وأعرف طريقة مخاتلته، وما علي سوى أن أركز اصفرار عيني في عينيه المذعورتين ليتجمد في مكانه مستسلما للضربة الوحيدة اللازمة للفتك. هذه المرة الأولى التي أحتار فيها في رائحة الجسد التي تنتقل لي عبر ريح تستخف بذرات قطن الثلج الناعمة فتطوحها بين الأشجار، تلقيها على الأرض وترفعها

ثانية إلى الأعلى، لا هي تسكن ولا الثلج يهدأ. ريح لا تجيد التعامل مع بياض طريدتها المسالم. حاولت أن أغامر في الخروج لكن الريح الجليدية كانت قاسية لفحت جناحي قبل إفرادهما وجزءا من وجهي حتى كدت أصاب بعمى الهواء والبياض الأعمى.

كانت الرائحة تتحرك، تأتي بها الريح من ناحية ثم تتغير وجهتها، قليلا، فتأتي من ناحية أخرى وتقترب أكثر مني حتى توقعتها ليست بعيدة عن مرمى جذع شجرة القَضبان الأبيض الذي أسكنه. كان بإمكاني أن أطل برأسي قليلا من فترة لأخرى متلصصا بين كثافة الثلوج البيضاء. لا أثر على الأرض المتناغمة البياض لطريدة تسير على أربع. هناك آثار لأقدام ضخمة، تلك الأقدام التي لا تصلح أن تكون فريسة سهلة لي. أقدام لا أستطيع تحديد وجهتها. هل خرجت من الدغل أم عادت إليه؟ لا بد وأنها قريبة من هنا، وعلي أن أجرب حظي معها هذه المرة.

في أول الفجر توقفت العاصفة وهدأ صخب ريحها قليلا. خرجت من وكري. رأيت الهيكل الأسود واضحا متكورا على نفسه. لم أتمكن من رؤية عينيه لأسلط عيني عليه فأجمده في مكانه. خاتلته من الخلف فاردا جناحي فأصبت جلدا خشنا لم أتعرف على طبيعة سماكته. وضع رأسه في

الأرض متحاشيا أن أصيبه في الرأس. حين درت دورة أخرى رأيت عيني رجل من أولئك الذين اعتدت أن أراهم يقفون في مواجهة الدغل، ينظرون إلي من بعيد، وأنظر إليهم من المسافة ذاتها دون أن أطمع في المغامرة معهم. كان وجهه البارز هو الهدف الرخو الوحيد الممكن. لم ينهض من مكانه؛ توقعته قد أصيب بشلل البرد. هجمت ثانية لكنه بسرعة فائقة دس رأسه في صدره وانحنى بقوة إلى الأرض. فكرت أن أعيد الكرة من الخلف واصطدمت بسماكة الجلد الذي يكسو جسده، وكأنني سمعت صوته يصرخ. حين واجهته في المرة الثالثة متأكدا من أنني سأصيب ما بين عينيه هذه المرة؛ سمعت دوي ثلاث رصاصات من تلك التي يستخدمونها في اقتناص الأرانب والطيور. الرصاصات التي ترهبني رغم أنها لم توجه لي ذات يوم. كان مجرد دوي صوتها في الدغل يثيرني حتى أنني أسمعها في المنام. ارتفعت عن هدفي بقوة الخائف لا المهاجم وتعمدت المراوغة أثناء تحليقي تجنبا لرصاصات أخرى يمتلكها هذا الكائن المتماوت، تخيلته ينصب لي كمينا ولكنه في الواقع لا يفعل ذلك عادة. أكملت طريقي خائفا إلى النهر المتجمد. كانت السماء لحظتها تضج بطيور الزاغ من بعيد، والتي لا تترك مجثمها دون صيد قريب. لا بد أنها أن تجتمع على زميل لها قريبًا من هنا. أكملت الذعر الذي أصاب الزاغ من صوت الرصاصات المدوي في الفضاء

المشوب بالزرقة البيضاء. تناثرت طيور الزاغ من حولي عائدة إلى مجثمها أو مختبئة في الدغل. سمح لي البياض الممتد من الدغل إلى ضفة النهر المتجمد الأخرى أن أرى الآخر منكبا على وجهه. كان منكبا على وجهه، بينما يداه مربوطتان خلف ظهره. ومن بعيد رأيت طيور الزاغ تترقب ما سأتركه لها من وليمة لم نحلم بها في وقت قاحل كهذا. حاولت أن أتأكد من أنه لن يكون لئيما، كصاحبه، فيبادرني برصاصة رابعة. كان جسده أقل سماكة من صاحبه. في هجومي الأول عليه تمزق قماش أبيض يغطي جسده وتركت على ظهره خطين بنيين فلم يتحرك. درت دورة أخرى وهبطت بجسدي فاردا جناحي متأهبا للطيران في أي لحظة يبادرني فيها الجسد المسجى بحركة مباغتة. تقدمت على مهل مصدرا صوتا تحذيريا ولكنه لم يتحرك. وقفت فوق رأسه تماما. كان الشعر لا يغطيه بالكامل كصاحبه، رأيت الخطوط البنية التي تركتها مخالبي على ظهره. حاولت أن أعمقها بمنقاري ولكني لم أستسغ طعم هذا اللحم النتن. مججت ما علق بطرف منقاري وكنت أنوي تركه كاملا لطيور الزاغ، ولكنني قبل أن أتركه رأيت طيور الزاغ تنتشر في السماء مرة أخرى وسمعت في القرب أصواتا مريبة وأضواء مختلفة تقترب من الدغل. امتلأ الدغل بالأصوات المنفرة وعادت طيور الزاغ محلقة بعيدا إلى مجثمها فقررت أن أعود إلى جذع قريب من وكري. كانت

طائرة ضخمة تحلق فوق النهر قريبا مني يتدلى منها أشخاص يشبهون المنكبَّ على وجهه، ويرفعونه بسرير حديدي إلى الأعلى، ثم يخرجون به إلى الدغل. كانت أصوات غامضة تتنادى فيما بينها وأصوات كلاب تنبح حولي. كان ذلك مرعبا ومشهدا لم آلفه من قبل. لم تهدأ الأصوات لساعات، فقررت أن أعود إلى فريستي الأولى، وأن أحاول مرة أخرى فربما لم يكن يشبه لحم صاحبه، حيث رأيتها ملقاةً على وجهها، تمامًا. درت حول المكان مرتين، وفي الثالثة عرفت أنه غادر المكان أو التقطته الكلاب قبل أن أصل إليه. فقررت أن أعود إلى الدغل وأنسى أمر الرائحة وكأنني في حلم جائع ليلة البارحة.

الكتاب الثاني

كاف ثانية

الفصل الأول

أمي........ طائرة

- 1 -

من الواجهة الزجاجية التي تفصل قاعة القادمين عن المدرج الذي ربضت فيه الطائرة كان يرى السماء تمطر بنعومة حانية، تتساقط قطرات المطر على الواجهة ثم تختفي في مكان لا يراه. يكاد يشم رائحة المكان من خلف الزجاج. يتبع خط البشر المتصل في سيرة نحو منفذ الخروج ويعيد النظر إلى جوف الطائرة العملاق الذي خرج منه.

"أمي طائرة، ليس لي اسم ولا أعرف من سأكون أو ماذا سأكون ولم يعد يهمني كل هذا، سحقا لكل شيء".

يصل به الطابور البشري إلى حيث يجلس رجال الجوازات في المكعبات الزجاجية والتي تفتح أبوابها القصيرة من الخلف المواجه لممرات يخرج منها الناس إلى حيواتهم. يخمن أي الوجوه سيكون أكثر لطفا به. ليس له أن يختار، سينتظر حتى يتفرغ أحدهم ويشير إليه أن يتقدم نحوه، يعرف السؤال الأول والطلب الأول وبداية الحوار المزعج ولا يعرف

إجابة ممكنة. ينظر إلى الخط الوهمي الذي سيعبره دون أن تكون هناك عودة محتملة. أشار الموظف إليه وهو يحرك سبابته وينظر إليه كمن يتفرس بحكم خبرة طويلة في الوجوه القادمة من شتى بقاع الأرض في الوجه الضائع الذي أمامه. شاب لا يحمل في يده ورقة يمدها إليه. كان رجلا فرنسيا رسمت رتابة عمله على وجهه صرامة وقسوة. مد يده ليستقبل منه جوازا يتفحصه لكن الشاب وقف أمامه بوجه محايد لا ملامح واضحة عليه. "جوازك إذا سمحت؟" قال بنبرة آلية وهو ينظر بعيدا في عينيه. "لا أحمل جواز سفر". "هل تمزح معي؟". "لا ليس معي جواز سفر". كان الشاب جادا. "نعم. ليس لديك جواز". "هل أنت لاجئ؟" كانت الإجابة الوحيدة التي يملكها هي نعم أنا لاجئ ويكمل في سره "وماذا يعني؟" أشار له أن يتقدم إلى خلف المكعب الذي يجلس فيه وينتظر قليلا. رفع سماعة الهاتف واتصل بأحد ما أو مكتب ما. ثم أغلق الهاتف وأشار لمسافر آخر تقدم نحوه وكأن الموضوع قد انتهى بالنسبة له وعلى شخص آخر أن يتولى أمره. خرج شرطي من الخلف، فتح الباب الصغير في مكعب موظف الجوازات، تحدثا بالفرنسية قليلا ثم أشار الموظف إليه "تفضل معي إذا سمحت". وتبعه العواد إلى حيث يريد. اتجه نحو مصعد في الخلف، لم يتحدث إليه أو يسأله شيئا. ضغط زر الدور الثاني في مبنى المطار ذي الطابقين. أوصله إلى

مكتب لم يطرق بابه. دخل بسرعة وطلب منه أن يدخل. استقبلته امرأة في الثلاثينات من عمرها، تقريبا، شقراء دون مميزات أخرى. "تفضل اجلس". قالت بأدب مبالغ فيه. وعاد الشرطي إلى عمله.

كانت تعد أوراقا وتصور أوراقا أخرى، تتناول ملفا من الأرفف الصغيرة خلفها تفتحه وترتب فيه الأوراق التي تجهزها بدقة من يعرف ماذا يعمل.

- ما اسمك؟

رد بسرعة دون أن يفكر أو يتردد

- فهد غانم

- عربي؟

- نعم

- هل لديك أوراق؟

- لا

- حسنا. كيف وصلت إلى هنا؟

- بجواز مزور

- أين هو؟

- مزقته قبل أن نصل وألقيته في دورة المياه.

- هذا مقنع. من أي بلد كان الجواز؟

- من الكويت

- وأنت من أي بلد؟

- من الكويت

- أنتم بلد نفطي وأثرياء، لماذا تلجأ إلى هنا؟

- لا أحمل جنسية البلد.

- آه، الآن فهمت.

استمر التحقيق لأكثر من ساعتين وهي تكتب جميع ما يذكره في الملف الذي أمامها. ثم طلبت منه أن يقوم بملء إستمارات عديدة عن ميلاده ومكان ميلاده وشهادته واسمه الكامل الذي أضاف له "العواد" كاسم أخير. سألته الموظفة إن

كان يريد البقاء في المدينة الفرنسية أو يختار مقاطعة تتحدث الإنجليزية. قال سأختار أوتاوا دون أن يعرف عما يتحدث ولكنه يعرف هناك شابا ربما استعان به على غربة قادمة موجعة. "هذا جيد" قالت الموظفة "ستجد كثيرا من العرب وسترى بعض أصحاب الجوازات المزورة أيضا". أخبرته بأن عليه أن يستعين بمحامٍ ورشحت له محامية هجرة متطوعة في قضايا اللجوء الإنسانيٍ سلمته الملف وبطاقة المحامية. "هل لديك نقود لتسافر إلى أوتاوا". وسألها "كم تبعد من هنا؟" "ساعتين". كان ذلك ما أخبره به الشاب السعودي. "لدي نقود". "لا تخجل نستطيع مساعدتك". "لا شكرا". نهضت من المكتب وصافحته "أهلا بك في كندا".

غادر المكتب بصحبة الشرطي الذي قاده حتى موقف الباص "تستطيع أن تشتري التذكرة من السائق، أتمنى لك حظا سعيدا".

يقف في الخارج يتابع المطر وهو تحت مظلة مدخل القادمين التي تمتد بعرض صالة القادمين. أحس أنه ولد مرة أخرى في عامه الثاني والعشرين باسم اختاره، وبلد سيقول إنه اختاره، وغموض يكتنف المستقبل هو غموض جميع المواليد الذين لا يعونه كما يعيه هو.

سائق الباص يتكلم بسرعة وبلكنة لم يستطع العواد فهمها تتقاذف حروفها حول أذنه السليمة كرصاصات طائشة في الماء. وحين أدرك السائق أنه غريب ولن يفهمه أمسك الحقيبة بيده ليتركها العواد له، قذفها في جوف الجيب السفلي المخصص للحقائب، وأشار إليه بما معناه اصعد أنت وآلتك.

صعد الباص وهو يتأمل وجوه الركاب، يشعر بالقلق من كل شيء حوله، يخاف أن يصطدم بأحد فرفع العود إلى صدره دون أن يدرك الإعجاب الذي توزعه الأعين على موسيقي غريب وآلة غريبة في جرابها البني. أحس بخيبة الجهل وهو يرى أن تواصله اللغوي هزيلا إلى هذا الحد. لم يكن الحوار الذي سبق مع محققة الهجرة صعبا، واستطاع أن يجيده بشكل مقبول لكن العامة، الذين سيتعامل معهم، لن يكونوا بوضوح موظفة التحقيق.

يفكر بالمدينة الجديدة التي سيدخلها لأول مرة، دون أن يعرف أحدا يساعده على تخطي العقبات الأولى سوى شاب أصغر منه لا يعرفه جيدا. التعامل مع مدينة جديدة يشبه إلى حد كبير قيادة دراجة نارية للمرة الأولى، عليك أن تنظر إلى موضع قدميك ومكان يديك وحتى يتحول الأمر إلى العادية ستحتمل بعض الألم والجروح. وكان مستعدا لدفع تلك الجروح في سبيل المحافظة على اتزانه الأبدي.

كان يرمي بأذنه السليمة إلى زوجين بجواره يتحدثان عن شيء ما، فلا يلتقط منه سوى همهمات لا تشكل جملا. حين امتلأ الباص بالركاب لاحظ أن أحدا لم يقترب من المكان الخالي الذي يجاوره رغم أنه ترك العود مستندا، إلى أرضية الباص وطرف المقعد الذي يجلس عليه، يحضنه بقدميه. كان يود أن يتكلم مع الناس العاديين، أن يوزع قلقه في حوارات ودية. كان الجميع صامتا، حتى أن الزوجين اللذين كانا يتحدثان إلى جواره قبل قليل قد صمتا. انشغل الجميع بكتاب ما أو أغنية تلتصق بالأذن تفصلهم عن المحيط الذي حولهم، ولم يجد ما ينشغل به سوى ذكرياته والوجوه التي تطارده، والوجوه التي تتوق إليه ويتوق إليها.

بعد ساعتين أمضاهما في التحديق بصف الأشجار التي تحيط بالطريق والنهر العريض الذي يجري تحت الجسر العملاق، والقوارب المسرعة في اتجاهات مختلفة؛ توقف الباص في محطة "كنت" وبدأ الركاب بالنزول، بينما السائق يفتح الجيب السفلي ويصف الحقائب على الرصيف. تناول حقيبته دون أن يفكر إلى أين يمكن أن يمضي. اتجه إلى موقف سيارات التاكسي أمام المحطة، كانت السيارات تتحرك بانتظام لتقل الركاب الذين كانوا معه في الباص ولم يستقبلهم أحد. جاء دوره. توقف رجل بسحنته العربية، ترجل من سيارته وفتح الصندوق ليضع العواد حقيبته "لا داعي سأتركها إلى

جانبي" قال بالانجليزية وعاد السائق إلى مكانه بينما ركب العواد في المقعد الخلفي كما فعل الذين سبقوه. قبل أن تتحرك السيارة سأله السائق. "الأخ عربي". "نعم". "أهلين" قال بلهجة لبنانية محببة. وأكمل الرجل "من أين؟". "أريد فندقا رخيصا؟". إذن لا وقت لاختبار لغة الشارع الآن فالعربية دارجة هنا. "الأخ جديد في البلد". "نعم". "الله يعينك". كان ذلك إيحاء غير مبشّر ولكن ليس لمن لا يعرفك أن يدرك ما كنت فيه كي يخمن ما ستكون عليه. "هناك موتيل بعيد من هنا".

"لا يهم، المهم أن يكون سعره مناسبا". "هو الأرخص والأنظف".

لم يكن في الطريق سوى الانبهار الأول بمدينة جديدة، لا شيء مميز. تبدو هادئة في النهار أكثر مما توقعها.

وصل إلى الموتيل الذي يبدو خاليا، مبنى مستطيل من طابقين تتوزع الغرف على ثلاث أضلاع بينما ترتفع بوابة صغيرة في الضلع الرابع الأمامي وسور منخفض من الشجيرات الخضراء المتراصّة. في الساحة موقف سيارات خال تقريبا إلا من ثلاث سيارات. توقفت سيارة الأجرة أمام الباب الرئيس حيث مكتب الاستقبال وأعطى الرجل أجرته

ومضى غاضبا دون أن يفهم سبب غضبه.

وضع الحقيبة في غرفة المكتب، كان المكتب خاليا، رأى جرسا صغيرا على الطاولة، وتحته عبارة "اضرب الجرس إذا لم أكن في المكتب". ضغط براحته على الجرس فأصدر صوتا أكبر من حجمه الصغير. سمع صوتا من الداخل يخبره أن ينتظر. فانتظر. خرج رجل مسنٌّ بلحية بيضاء مدببه، وبياض يشوبه احمرار في العنق المجعد، كأنما الدماء تنز على بشرته. "أهلا". "أهلا. أريد غرفة". "لا بأس. كم ليلة؟" "لا أعلم". "السعر يعتمد على زمن إقامتك، هل معك فتاة؟" "فتاة؟" قال مستغربا وهو يحدق طويلا في عينيه الزرقاوين. "نعم فتاة، بعضكم يحتاج ساعة فقط، جيل منهك كثيرا". لم يفهم العواد بشكل دقيق ما يعنيه الرجل. "ليس معي فتاة وأريد الغرفة لأيام". "حسنا نختصر هذا الجدل لو أقمت أسبوعا سأخصم لك الأجرة. أما الآن فأجرتك ثلاثين دولارا في الليلة وبلا إفطار". "لا بأس" "جواز سفرك إذا سمحت". "ليس لدي جواز سفر". "إجازة القيادة" وتلفت العواد حوله ثم وضع رأسه في الأرض". ليس لدي إجازة قيادة. "لديك بطاقة ائتمان؟". "لا". "تأفف الرجل وكأنه يقف أمام أحد المحتالين الأغبياء الصغار. "اعذرني يا سيدي لا أستطيع أن أمنحك غرفة من الأفضل أن تبحث عن مكان آخر". فتح العواد الملف الذي أحضره معه من المحققة. وضع الأوراق على الطاولة. "أنظر

يا سيدي". يقول "سيدي" ككلمة ساحرة وكأنها الكلمة التي عليه أن يستخدمها في كل محادثة. تأمل الرجل الأوراق، أطال النظر في صفحة ما، هزّ رأسه ثم نظر إليه. "أنت قادم جديد". قال العواد "نعم" دون أن يعلم أن تلك التسمية التي يطلقها القادمون الأقدم على القادم الجديد. "أريد مائة دولار تأمين". "لا بأس" دفع المائة دولار وأجرة ليلة. وسلمه مفتاح غرفته. "الدور الأرضي رقم 112". "ولكن اسمع، في الغد تغادر الموتيل وتتدبر أمرك، أنت هنا على مسؤوليتي وأنا لست المالك ولا الجهة التي تضع القوانين". "شكرا لك يا سيدي. غدا يوم آخر". حين وصل غرفته لم يمنحه الإعياء فرصة أن يتعرف إلى تفاصيلها. ألقى بكل شيء على الأرض، وأغلق الباب جيدا، وألقى بجثته على السرير لينام متحاشيا سطوة الذاكرة البغيضة.

لم يفق إلا في المساء، ساعته هي التاسعة مساء، كان جائعا، نظر من شباكه إلى الخارج، لا شيء سوى المستطيل الذي يشكله الموتيل بإضاءته الخافتة والموقف الذي أمامه تتوقف فيه مجموعة سيارات رجح أنها لزبائن عادوا إلى غرفهم دون أن يسمع لهم جلبة. خرج بملابسه التي جاء بها ونام بها إلى الباحة نظر حوله في الشارع الموازي للموتيل، هناك محلات صغيرة في الجهة المقابلة، قرر أن يذهب ليأكل، لا يمكن أن يتيه، سار ماشيا حتى المحل الأقرب،

محل "ماكس"، بقالة صغيرة اشترى بعض المأكولات الجاهزة وعاد الطريق ذاته إلى غرفته. تذكر الشاب السعودي ولكنه نسي اسمه، فتش جيوبه أخرج الورقة التي كتب فيها اسمه وهاتفه، قرأ اسمه ثم تذكر نبرة صوته وهو يقوله له في الطائرة. قرر أن يحادثه قبل أن يأكل، جاء صوته دافئا قريبا من القلب. "نعم" أنا فهد غانم التقيتك في الطائرة". "أهلا. أين ذهبت؟ انتظرتك طويلا كي تخرج". "أنا الآن في مدينتك". نظر في العنوان على أوراق الموتيل الملقاة على الطاولة قرأ له الشارع دون أن يعرف إن كان يلفظ هكذا أم لا. "أعرفه" وضحك الشاب "سآتي إليك الآن، إذا أحببت". أنا بحاجة لك".

أغلق الهاتف وافترش على المكتب الصغير في غرفته مائدته البسيطة. معجنات جاهزة، علبة حليب، وكيس بطاطس. توقفت سيارة فورد صغيرة في الباحة الصغيرة بعد أقل من نصف ساعة من مهاتفة الشاب. طرق الباب. "مشاري شكرا لك". جلس على الكرسي المقابل لسريره بينما هو يجلس على كرسي المكتب. "تعال نخرج". "ليس لدي أوراق أخاف أن أقع في مشاكل". "لا أحد هنا يهتم بأوراقك". "تعال الغرفة خانقة". كان يرى أن الغرفة لطيفة ومنعشة. "سنذهب إلى مقهى قريب من هنا". "سآخذ الملف معي". "لا تخف. اتركه هنا". "أريدك أن تقرأه معي".

في المقهى أخبره الشاب بأن عليه أن يذهب إلى المحامية التي ذكرتها له المحققة. عليه أن يكمل ملف قضيته ويحصل على قبول للإقامة. "وإذا لم أحصل مالذي سيحدث؟". "لا أعرف ولكن ليس لديك بلد يعيدونك إليه، هذا من حسن حظك". لم يذكر التفاصيل المهمة في قضيته. "أنت شجاع في خطوتك هذه، أنا أعرف ما يحدث لكم". "سيطردني صاحب الموتيل صباحا ولا أعرف أين أذهب". "ستأتي معي، أنا أسكن لوحدي". "لا أريد أن أثقل على أحد". "أريد أن تثقل علي، كما أنك عازف. اشتقت لصوت العود".

الموقف لا يحتمل الرفض. هذا هو الحل الوحيد. "سآتي إليك غدا في العاشرة". وقبل أن يفترقا سلمه جوازه. "أريده للذكرى فقط". لقد انتهت مشكلة السكن مؤقتا. المهم أن تنتهي مشكلة بقاءه في كندا. اتصل بوالديه من غرفته، كانت مكالمة أقل حزنا من مكالمة أجراها في سوريا. لكن نحيب العجوز لم ينقطع وهي تقترب بأذنها من حديثه مع والده. حاول أن يتصل بفهد غانم إلا أنه رجح أنه يحاول العودة إلى البلاد ومعالجة فقد جوازه الذي سيدعي أنه سرق منه أو فقده في مكان ما. اتصل برشا جاء صوتها مبحوحا مثقلا بهمومه التي تحملها معه. ولكنها طلبت منه ألا يحادثها في البيت. "كلمني في البنك". يعرف خوفها من سطوة العقيد ولا يعلم بالاتفاق الذي بينهما.

- 2 -

في العاشرة أنهى إقامته في الموتيل، شكر الرجل الأشيب الذي اعتذر منه بأدب لعدم تمكنه من استضافته يوما آخر. "لا عليك سأتدبر أمري". "إن الأمور هنا صعبة في بداياتها ولكنها تسير إلى الأفضل، قد يأتي يوم أعمل فيه لديك، الذي لا يمتلك شيئا يخسره يغامر بشكل أفضل". لم يفهم جيدا ما قاله، كان يكفيه أن يكون الرجل لطيفا معه. ولاحظ أنه أيضا يتابع آلة عوده كمن يحزن على فنان لاحظ له.

وضع حقيبة اليد في المقعد الخلفي وأسند العود عليها برفق وركب إلى جوار مشاري متجها إلى عنوان يبدو أن مشاري يعرفه. "إنه شمال المدينة". ابتسم العواد وكأن عليه أن يفهم في الاتجاهات "وأين الشمال". "وهل كنت أعرف الشمال من الجنوب، ستتعلم كما تعلمت". حين اقتربوا من قلب المدينة رأى العواد البنايات التي رآها بالأمس وهو يصل محطة الباص، أوقف مشاري السيارة في شارع مكتظ بالمارة

والبنايات العالية نسبيا "هناك في هذا المبنى". قال وهو يسير معه يسبقه بخطوة ثابتة دائما.

تأكد ثانية من البطاقة التي يحملها، الدور، رقم المكتب، وفي المدخل الرئيس للمكتب استقبلتهما فتاة مذهلة، جذعها الأعلى منتصب يدل على طول قامة استثنائي وهي تجلس إلى المكتب، ساقان مبرومتان عاريتان تحت المكتب بلون يجمع بين بياض زهرة البرتقال ولون الجزر الطازج. بشرة ناعمة وعينان شهلاوان كعيون القطة؛ بياضهما صاف كلبن، شعرها أسود داكن تركته ينسدل على كتفيها حتى أول المكتب الذي تجلس إليه دون أن تهتم بالشابين اللذين نظرا إلى بعضهما. "لا ترى مثلها دائما في أوتاوا إلا في اليوم الكندي". قال مشاري وهو يتأملها بعمق مبرر. توقفا أمامها مقتربين جدا حتى كادا أن يسمعا أنفاسها. رفعت رأسها إليهما مبتسمة بشفتين رقيقتين لامعتين مرسومتين بأحمر خفيف أقرب إلى لون الكرز الشامي. أخذ مشاري نفسا عميقا وابتسم العواد "نريد أن نرى المحامية". قال وهو يتراجع قليلا إلى الخلف حين لاحظ أنه يقترب أكثر مما يجب، بينما بقي العواد المتأخر أصلا بأقل من قدم عنه. "تفضلا استريحا". أشارت إلى مقعد طويل بجوارها. نهضت وهما يتابعان وقوفها وسيرها حتى دخلت المكتب.

"لا تتوقع أن ترى جمالا كهذا". قال مشاري وكأنه يتحسر على شيء لا يعرفه العواد. "لم أعد أتوقع شيئا، أنا مليء بالمفاجآت".

بعد قليل من دخولها المكتب عادت الفتاة إليهما مقتربة من مكانهما "تفضلا إنها تنتظركما".

كانت السيدة متوسطة العمر في الأربعينات كما خمن الشابان وهما يدخلان ليجداها تقف أمام المكتب الخشبي الأنيق والمرتب بعناية فائقة. "أهلا. أنا جوديث" قالت مقدمة نفسها، وعرَّف الشابان باسميهما. جلسا على كرسيين إلى جوار مكتبها الذي عادت إليه بعد أن صافحتهما بأطراف أصابعها النحيلة. "كيف أخدمكما؟" شرح لها مشاري باختصار حكاية العواد ووضعه الحالي، بينما وضع العواد على المكتب أمامها الملف الذي حمله كوثيقة وحيدة تدل عليه كإنسان بشري موجود حاليا في مكان يبعد آلاف الأميال عن وطنه الذي فقده.

"ليست قضية كبيرة، لكنها تخصصي". قالت المحامية. "الحل الوحيد أن نقوم برفع قضية للمحكمة تحصل بعدها على قبول ملفك كمقيم تحت بند اللجوء الإنساني. ثم حادثت الفتاة في الاستقبال، وعادت إلى حديثها إليه. "أمامنا طريق

سريع سأسلكه وهو الحصول على امتياز وزير الهجرة الذي يخولك للحصول على الإقامة المؤقتة حتى يتم البت في قضيتك للحصول على الإقامة الدائمة". دخلت الفتاة بمجموعة من الأوراق طلبت المحامية من العواد أن يوقعها، ووقعها دون أن يقرأ جميع التفاصيل. استمر الحوار بينهما طويلا عن التفاصيل الدقيقة لحالته التي تبدو شاذة في ذهنه ولكنها تبدو مكررة لديها. "هل سيكلفني ذلك كثيرا؟" قال العواد. "يكلف كثيرا نعم ولكن لن تدفع أتعابي، أتصور أنك لا تملك الكثير من المال". أخفض العواد رأسه. "أملك ما أتدبر به أمري". "أعرف ذلك جيدا". لم يرد ولكنه كان يعاني مشكلة السكن. "لا أحد يقبل أن يؤجر لي غرفة أسكنها". قال بانكسار.

"نستطيع تدبر ذلك" قال مشاري "سيسكن معي حتى تنتهي أوراقه". "سيحتاج الموضوع أقل من أسبوع لاستخراج موافقة الوزير". نهض الشابان وهما يشكرانها "أتركا رقمي هاتفيكما لدى ستيفاني". لم تكن ستيفاني سوى آية الجمال التي تجلس في الاستقبال.

كتب مشاري اسمه واسم فهد غانم على ورقة صفراء ألصقتها السكرتيرة على لوحة في الخلف. أوصله إلى شقته والتي لم تكن بعيدة عن قلب المدينة وطلب منه أن يتصرف كما لو كان شريكا بها، بينما غادر هو إلى شأنه. "سأراك

مساء".

الشقة التي تقع في بناية عالية تطل على نهر "أوتاوا" عبارة عن غرفة واحدة، هي غرفة نوم مشاري وصالة صغيرة وحمام ومطبخ صغير يتوسطه فرن كهربائي وثلاجة ومغسلة صحون وأدراج سفلية للأواني وعلوية للمعلبات. "لا يمكن أن أكون ضيفا ثقيلا عليه". فكر العواد وهو يجلس في الصالة. متأكدا بأن وجوده سيغير نمط حياة مشاري الذي اعتاده قبل أن يلتقيه.

مرت الحياة رتيبة، يشوبها قلق الوجود الممكن والإقصاء المحتمل، دون أن يدري إلى أين هذه المرة. لم يكن مشاري يشاركه ذات الهم الخاص به وحده، كان يرى أنه وصل إلى البقاء الحقيقي وأحيانا يرى أنه أكثر سعادة منه. "هنا الأمور سهلة، لماذا أنت قلق هكذا؟". لا يجد صاحب القلق إجابة ممكنة للفتى المطمئن. اصطحبه مشاري إلى الأماكن التي يزورها، الأصدقاء الذين يعرفهم، عزف مرة واحدة كانت كفيلة بأن يتوقف تماما عن العزف. كلما وقعت ريشته على وتر ضج بداخله حنين ليس بحاجة إليه الآن. كانا يقضيان الأمسيات يتجولان بين النهر القريب والمقهى الملاصق للبناية. في الأوقات التي يغيب فيه مشاري عن البيت يبقى كسجين بين جدران الشقة يتابع برامج التلفزيون أو يكتب

رسالة طويلة لرشا على أن يتركها في صندوق البريد الذي يدار بشكل محترف وكأنه خبز يومي للناس. وحتى الآن لم يستلم رسالة من رشا. حادثها مرة واحدة من هاتف عمومي وكررت له وعدها بأن تكون معه مهما كلفها الأمر. لم يعد يثق بغير الشعور الحقيقي بينهما. لكنه يتوقع أن تولد رشا جديدة كلما أشرقت شمس، يتضاءل بداخلها حبه وتختفي ملامحه من ذاكرتها الطرية شيئا فشيئا وعليه أن يتقبل ذلك ويعذرها. وربما تغير هو أيضا. "بيننا محيط وقارات وعقيد وأوراق ضائعة وحياة تتسرب من بين أصابعنا". كان يحدِّث نفسه كلما أبحر بعينيه في مجرى النهر الهادئ الذي يسير من مولده في أرض ما إلى فنائه في الملح.

لم تتصل المحامية بعد الأسبوع الذي وعدت به، وأصبح يرى نفسه ضيفا ثقيلا على شاب يتقبله كابن بلد أو قريبه الذي لم يره منذ ولادته. ولا شيء بإمكانه أن يفعله له.

"سنذهب إليها إذا كان لديك وقت". قال في الصباح. "نذهب إليها". وفي الزيارة الثانية استقبلته المحامية بصدر أرحب مما سبق وابتسامة أعرض وأسف شديد لتأخر أوراقه لدى الوزير. "سأتصل به غدا على أبعد تقدير". ثم سألته فجأة" على فكرة أما زلت تبحث عن سكن؟" قال بسرعة قبل أن يتدخل مشاري "نعم". "حسنا الشاب الذي يقيم مع ستيفاني

ترك السكن وهي مستعدة لأن تقتسم معها الشقة". نظر مشاري إليه مبتسما. "حسنا". "إذن سنرتب ذلك معها". ثم تناولت ورقة من مكتبها سجلت عليها عنوانا". يجب أن تذهب للخدمة الاجتماعية، ذلك سيساعد بإنهاء إجراءاتك بسرعة، أنت لاجئ ويجب ألا تكون لاجئا غنيا". سلمته الورقة. الحقيقة التي لم تخبره بها المحامية هي أن أجورها في القضية ستدفعها الخدمة الاجتماعية لشؤون اللاجئين نيابة عنه.

خرجت المحامية معهما إلى مكتب الاستقبال. كانت ستيفاني جالسة، أدارت مكتبها جهة اليمين حيث يقفون قبالتها. "السيد غانم يريد أن يشاركك السكن". "حسنا. لا بأس". "سأترككم تتحدثون في تفاصيل لا تهمني وأعود إلى عملي". جلسا أمامها. جرى الاتفاق سريعا. سيدفع العواد ثلاثمائة دولارا شهريا ثمنا للغرفة ويشترك معها في المطبخ والحمام والصالة وعليه أن ينظف المطبخ والحمام والصالة بالتناوب معها. وكان العواد يهز رأسه للشروط حتى وصلت للشرط الأخير والذي لم يتوقعه. "ليس لك إحضار فتاة للشقة حتى لو كانت صديقتك، وهو أيضا ما ينطبق علي". كان ذلك مريحا للعواد الذي لم يفكر في هذا الوقت كما لم يفكر به من قبل بأن تكون له صديقة بالمعنى الذي تقصده ستيفاني، أو عشيقة بالمعنى الذي يفهمه هو.

لم يناقش معها تفاصيل المكان كان يكفيه أن يجد له سريرا بدلا من كنبة صالة مشاري. أن يجد مكانا يعلق فيه ملابسه ويحلم دون قلق إن استطاع. اتفقا أن يحضر أغراضه في اليوم التالي. حمل العنوان خارجا مع مشاري الذي كان يضحك وهو في المصعد "أبادلك شقة بغرفة معها وسأدفع الأجرتين". لم يأخذ العواد كلامه على محمل الجد لكنه كان يقصده فعلا.

في ذات اليوم حمل أوراقه ليفتح ملفا في مركز الخدمة الاجتماعية، ويخصص له راتبا شهريا ومبلغا لتأثيث سكنه. أحس بأن الأمور تعتدل قليلا لصالح بقائه هنا. تركه مشاري في الشقة ليرتب خروجه كما يشاء وعاد لمحاضراته على أن يلتقيه مساء. جلس وحيدا، أخرج دفترا صغيرا وجرد عوده من جرابه "لو نجحت في تلحين مقطوعة هنا لعرفت أنني عدت إلى الحياة". لكن المساء اقترب دون أن ينجح. "يا إلهي لا أشعر أنني أنا". وهو يمازح وجهه في مرآة الحمام ويمرر يده على ذقنه التي لم يحلقها منذ زمن "ربما سأكتب قصيدة تافهة وأطلب منك أن تلحنها". كان فهد غانم يقف خلفه، يضع يده على كتفه، لم يتكلم، لم يبتسم في وجهه، لم يتجهم، وأحس العواد بأنه أخطأ حين التفت إلى الوراء جهة الكتف التي يحس بثقل يده عليها لتختفي صورته من أمامه ومن خلفه. "فهد" صرخ... وخرج إلى الصالة صرخ "فهد... فهد غانم...

فهد". وسقط على الكنبة دون أن يضحك أو يبكي. سقط حتى هزه مشاري في التاسعة مساء "فهد". كان يظن أنه يحلم بنفسه أو قرينه. نظرا إلى بعضهما للحظات. "مشاري" قال بخيبة. "قم استحم لنخرج". قال مشاري وهو يدخل غرفته.

- 3 -

"اشرب قليلا.. لا تخف". "لا أريد". "لن يتغير بك شيء". "دعه على راحته". قال أحد أصدقاء مشاري الذين يجلسون معه في بار "أوليفرز". "ربما لم يشرب من قبل". رد آخر وهو يدير يديه على الندى الذي نزته الزجاجة الباردة على سطحها. "اشرب إذا أردت أن تعيش". نهض مشاري إلى فتاة البار وطلب بيرة خفيفة. "خذ لايت بلو"، لا تؤثر في عقل فتاة، اشرب!". لم يكن له موقفا دينيا من الشراب، كان فقط يكره ما يمكن أن تفضي إليه حالة رجل بنصف وعي. أدنى الكأس من شفتيه، لا يعرف الطعم الذي تسلل بلطف وبرودة ناعمة إلى أطراف لسانه، لم تكن لذيذة كما توقع ولكنها ليست سيئة أيضا. شرب كما يحسو الطير، وأعاد الزجاجة إلى الطاولة. "ستعتاد طعمها ولكن لا تدمنه". كانت ليلة العطلة الأسبوعية وسهر حتى منتصف الليل، أحس بعد الكأس الثانية أنه يعيش اللحظة متخلصا من حمى الذاكرة اللعين. بعد الكأس الثالثة وضع دماغة كاملا تقريبا على الطاولة، الفص الأمامي الذي يبني الذاكرة والخلفي الذي يحتفظ بها.

وبعد نكتة وأخرى كان يضحك... يضحك... يضحك. "أريد الحمام" قال لمشاري "اتبع هذا الضوء الأحمر". "سأترك رأسي هنا حتى أعود". "طيب. اتركه ستحتاج رأسا غيره في الحمام". وضحك معهم دون أن يسمع جيدا ما قاله مشاري. سار كمن يمشي على غيمة متتبعا الضوء الأحمر الذي يشير كسهم قصير إلى دورة المياه. "هل سكر صاحبك؟". "ليته يسكر حتى لا ينفجر رأسه". كان الشراب الذي سيعتاد عليه فيما بعد هو الصمام الوحيد الذي يتمكن من خلاله تهريب ذاكرة مثقلة بالألم والغضب والحنق والحنين والحب والكراهية والشوق والغربة والفقر والشقاء، الشراب ليس حلاًّ له بل إعفاؤه من البحث عن حل. الشراب هو الشيء الذي استطاع أن يسقطه نائما كما ينام مجانينه الأربعة "مرهش".

حين استيقظ في الصباح توقع أنه نسي رأسه على الطاولة، يشعر بالدوي خلف أذنه، بطنين ذبابة بحجم الرخ، يتلمس أعضاء رأسه عضوا عضوا، يتفقد حواسه وحين يشعر بعجز أذنه اليسرى الأبدي يتأكد أن كل شيء في موضعه حتى عاهته في مكانها. ويتذكر أنه كان سعيدا لبعض الوقت. تحتاج كل هذا العذاب والعناء لتتألم ولا تحتاج سوى ثلاثة كؤوس بعشرة دولارات لتكون سعيدا بلا سبب. لم يتصور أن الحياة تافهة لهذا الحد حين تفقد إحساسك بها.

اليوم السبت والساعة بعد الواحدة بقليل، مشاري مازال نائما، كان بملابسه منذ البارحة، خرج إلى المقهى القريب من البناية، أحضر قهوة وإفطارا خفيفا وعاد ليوقظه.

الفصل الثاني

كاليسكا
"القيوط يطارد غزالا"

- 1 -

"سنذهب لنرى الغرفة لدى ستيفاني". قال العواد وهو ينظر إلى حقيبته وعوده إلى جواره. "سنذهب لنرى ستيفاني، جيد أنها لم تشترط عليك ألا يزورك صديقك". أنهيا إفطارهما وفي الطريق قال مشاري "أريد قهوة أخرى". "وأنا أيضا، أحس بدوار خفيف". "هذا في المرة الأولى، لا بأس". طلبا القهوة وهما في السيارة. "هذا إدمان حقيقي". قال العواد. "ستدمنه أيضا مع الوقت" "تعرف الطريق". "نعم، سكنها ليس بعيدا عن الجامعة، في قلب العاصمة". لم تكن الطرق في نهاية الأسبوع مزدحمة. يبدو أن الناس لم تصح بعد من سهرة البارحة. توقفا أمام بناية صغيرة من ثلاثة أدوار. "هنا يسكن الطلبة غالبا". قال مشاري. في الدور الثاني شقة صغيرة تجاور شقة أخرى، على الباب علقت ستيفاني لوحة مستطيلة كتبت عليها "منزل كاليسكا" وتحتها صورة لحيوان القيّوط يطارد غزالا. وعلى الحائط نسيج عنكبوت من البلاستيك علقت فيه أنثى عنكبوت من نوع الأرملة السوداء. قبل أن يطرق الباب قال مشاري "هذا من بقايا "هالوين" العام الماضي

أو استعداد مبكر جدا للهالوين القادم". لكن العواد لم يفهم ماذا يقصد ولم يسأله أن يفسر ما يقصد. طرق الباب وسمع صوتها من الداخل "انتظر قليلا". حين فتحت الباب كان المشهد الجمالي للفتاة التي التقياها في المكتب يتضاءل كثيرا أمام هذا البهاء الإلهي. كانت مشرقة وكأن الله أضاء مصباحا في جسد.

كانت ستيفاني ترتدي روب حمام ليموني اللون عليه رسوم فراشات ملونة وعلامة ماركة الروب فوق النهد الأيسر الذي يتلصص جزؤه العلوي من الفتحة المثيرة والمستثارة من لهفة أنين جسد الفاكهة ومداعبات قماش الليمون. "تفضلا". قالت ثم أكملت وهي تتحرك أمامهما بجر شحاطتيها القطنيتين على الأرضية الخشبية المصقولة لتجلس على كرسي صغير في الصالة تاركة الكنبة ذات المقعدين لهما. "استريحا". حين وضعت ساقا على ساق انحسر قماش الليمون عن جسد الفاكهة. وأشاح العواد ببصره دون أن ينتبه لردة فعل زميله الذي كان أكثر جرأة منه وبقي مبتسما في وجهها وهي تعيد القماش على ضجيج الجسد. "توقعت لن تأتيا باكرا. وحين تأخر الوقت توقعت بأنكما لن تأتيا أبدا". ابتسم مشاري ببلاهة واعتذر العواد بلطف. "هل سأرى الغرفة؟ نحتاج أن نذهب لنشتري أثاثا لها". "بالطبع هي غرفتك الآن. ولكن عليك دفع الأجرة مقدما". "طبعا، طبعا". أخرج العواد

مبلغ الأجرة الذي اتفقا عليه وسلمه لها. أخذته ثم دخلت غرفتها. وأغلقت الباب وراءها. انتبه الشابان أنهما كانا غارقين في تفاصيلها الجسدية ونظراتها ولم ينتبها إلى الصالة التي يجلسان بها. صالة صغيرة يبدو أن مسألة المشاركة ليست دقيقة والمقصود، ربما هو استخدامها. فليس من الممكن أن يفكر شريك سكن كهذا في تغيير هذا الجمال الذي صممته. تبدو الصالة متحفا للسكان الأصليين الذين يعرفهم العواد بالهنود الحمر. وضعت على الكنبة التي جلسا عليها مفرشا يدويا، تمت حياكته برسوم حيوانات الموس بالطريقة ذاتها التي تحوك فيها نساء الجهراء المفارش والبسط برسوم الجمل. علقت في الصالة العديد من "فخاخ الأحلام" بأحجام مختلفة مصنوعة على شكل دائرة من خشب الصفصاف تشابكت بداخلها أوتار من النباتات وتدلى من أطرافها ريش عقبان وبوم ونسور وجوارح لا يعرفها وخرز ملون، علقت على باب غرفتها من الخارج خفي "موكاسن" مصنوعين من جلد الغزال وسلالا صغيرة من لحاء شجر الأرز. أما الذي أذهل العواد وصاحبه هو السجادة المعلقة خلفهما حيث يجلسان. لم تكن تختلف في تصميمها وأشكالها المعينة عن سجادة "السدو" التي تنتشر في بيوت البدو. وربما كان المحارب البدوي قبل أن يكتشف البارود يحمل ذات الرمح الذي يحمله مجسم الرجل المعلق على الحائط عاري الصدر

يستر عورته بإزار من الجلد ويزين رأسه بريشتين ورقبته بقلادة من عظام الحيوانات التي صارعها.

وهما يدخلان الصالة قال العواد "هل هي هندية حمراء؟". ضحك مشاري "ألم ترهم في السينما؟ أهذه هندية حمراء؟" ثم ضحك ثانية. "هي فقط جامعة آثار". "أو ربما تبحث عن تاريخ". "تبحث عن تاريخ؟"

"ما أقسى أن تبحث عن تاريخ!"

قال العواد بهمهمة لم يسمعها مشاري. "ماذا؟" "لا شيء". كانت الغرفة خالية إلا من طاولة مكتب قديمة وكرسي مهترئ. "سنضع السرير هنا، ونبقي على الطاولة، لا بأس بها. وسأشتري كرسيا جديدا." كان باب الخزانة المزروعة في الحائط مكسورا. "لا أحتاجه".

تأثثت غرفة العواد ببساطة شديدة ونام ليلته تلك وحيدا إلا من صور تغتال يقظته وأخرى تنتاب منامه. كان يود لو علق صورتين لرشا وفهد غانم فوق الحائط وعلق قطعة من سجادة "سدو" والدته. كان يمضي أيامه يتعرف على تفاصيل المكان ويألف الوجوه التي لا تتشابه بشراتها في الغالب، وكأن دول العالم ألقت بهؤلاء غير المرغوب بهم في مكان قَصي

على حافة الكرة الأرضية ونامت بهدوء غيابهم.

ألقى أول تحية على جارته في الدور الأول وهي تصادفه عند الباب وردت بابتسامة وكلمة مقتضبة "هاي" ومضت مسرعة إلى شأنها. لاحظ أن ستيفاني تحكم قفل دراجتها الهوائية أمام المدخل وهي تخرج في الصباح قالت له "ربما حصلنا على موافقة السيد الوزير اليوم". هز رأسه شاكرا وغادرت لتلحق بالباص الذي يمر أمام البناية، لم يكن يحمل رقم 103. سار الطريق المستقيم حتى نهايته، لاشيء يثير انتباهه، بيوت متراصة وشباب بعمره أو أقل يبدأون صباحهم في مكان ما، خمن أنهم طلبة كما قال صديقه. أجرى مكالمة هاتفية مع والديه وأخرى مع فهد غانم، لم يتحدثا طويلا أخبره أنه زار رشا في البنك منذ أيام وطلبت هاتفه. "حين يكون عندي هاتف سأتصل بها منه". كان الوقت عصرا في الكويت وبالتأكيد غادرت عملها الآن. عليه أن يجيد التعامل مع فارق الوقت كما يجيد التعامل مع ثقافة المكانين. في طريق عودته اشترى من المحل القريب من سكنه تفاحتين وعلبة حليب وكيس "توست" وبيضا وأجبانا. خمن أن الرفين الخاويين من الثلاجة تركتهما ستيفاني له فوضع أغراضه "ربما يكفيني رفا واحدا". أمضى نهاره يدندن على عوده ألحانا قديمة وكلما أصابه حنين ما انتقل إلى لحن آخر، أما اللحن الذي يحلم به فلم يتحقق بعد.

- 2 -

حين عادت ستيفاني في الخامسة عصرا كان يجلس في غرفته. طرقت الباب "غانم" بنغمة تحمل خبرا مفرحا. "مبروك، حصلنا على موافقة الوزير لتكون مقيما شرعيا حتى محاكمتك". كانت كلمة "محاكمة" تثير ريبته. "هل محاكمتي تحتمل الرفض؟" "لا أعتقد، أنت في الأمان، جيد أن تكون بلا وطن". اللعنة في مكان ما تصبح رحمة في مكان آخر. أطرق برأسه، سلمته خطاب الموافقة في ظرف أبيض عريض وعاد إلى غرفته.

في المساء زاره مشاري وصديق ثالث تعرف إليه في بار "اوليفرز". غادرا إلى مقهى في المدينة "ماذا ستصنع الآن؟" قال له مشاري. "لا أعلم ماذا يجب أن يصنع من هو في وضعي". "تحصل على إجازة قيادة وعمل. أنت الآن نصف كندي". قال الصديق. "أنا مهندس، ماذا سأعمل؟". "لن تجد عملا كمهندس إذا لم تتخرج من كندا أو أمريكا". "وماذا أعمل؟". "ستعمل في الخدمات". قال الصديق الذي يبدو أنه

يعرف البلد جيدا. لم يفهم العواد ما تعني "الخدمات". "ربما لا أستطيع". قطع مشاري حديث الصديق.
"لا عليك المهم الآن حصولك على إجازة قيادة". "نعم. هذه هي الورقة الأهم هنا". يؤكد الصديق. قبل منتصف الليل بقليل عاد ثانية إلى سكنه. خمن أن ستيفاني نائمة وعليه أن يتوقف عن العزف ويحاول أن ينام.

بدأت مشاكله الصغيرة تتلاشى وتتشكل حياته الجديدة مع أوراق جديدة، يمتلك هاتفا خاصا به، ومسجلة صغيرة وبعض الأشرطة لموسيقى عالمية، عنوان بريد يستقبل عليه رسائله وشيك الإعانة الاجتماعية وحساب في البنك وأصدقاء قليلين بقلوب بيضاء، حتى الآن على الأقل، ودراجة هوائية مستعملة.

حين تعود ستيفاني في الخامسة مساء تتناول طعامها في الصالة، تنظف أطباقها وترتب كل شيء كما كان. تبدي إعجابها بمخالفته للصورة النمطية للرجل العربي الذي تعرفه. يبدو شريكها مرتبا ونظيفا وخجولا أكثر مما ينبغي. يعيش أغلب يومه في غرفته أو خارج المنزل كمن ترك لها خصوصية في بقية الشقة. ترتدي بنطالها الجينز وبلوزتها القطنية المزينة برسومات الهنود الحمر، تعكص شعرها، تضع قبعتها "الباول" وتربط جيدا حذاء الرياضة الأبيض بعلامة

"فيلا" الحمراء. تطرق باب غرفته، يعرف أنها هي من وقع أناملها الذي تعود عليه مقارنة بكف مشاري. "ستيفاني تفضلي". "لا. أخرج أنت سنذهب في جولة". كانت الجولة على الدراجات الهوائية يمارسها أحيانا وهو يتخيل فريق الشقاء والبناطيل الممزقة من الركبة غالبا يدورون بين مزارع الجهراء وسككها غير المعبدة حتى السوق القديمة ثم يعودون في المساء مصحوبين بلهاث السباق وأنات السقوط المتكرر.

"هكذا ستعرف المدينة جيدا". وكلما سنحت الفرصة يحفظ اسم أحد الشوارع التي يجتازونها برتابة قاتلة. حين تختفي الفوضى، أحيانا، تفقد الحياة عنصرا مهما من عناصر إثارتها. كل شيء منظم هنا بشكل يبعث على الملل. وعليه أن يتعلم إشارات قائد الدراجة الهوائية وتعامله مع الطرق وسياراتها ومشاتها. ولكن عيب رحلته أنها ممارسة رياضة وتقديم نفسه للمدينة وليست متعة الحديث مع ستيفاني فهو يسير خلفها لا يحدثها ولا تتحدث إليه. يخرجان إلى طريق القنال المحاذي لشارع "الملكة إليزابيث" وحين يدخلان الحديقة المقابلة لبحيرة "داوز" تتوقف ستيفاني ويقف إلى جانبها. "هل تعبت؟". "لا أبدا". نكمل حتى كافتيريا "خليج القمر". ولم يتبق على غروب الشمس في التاسعة سوى ما يكفي للعودة.

أوقفا الدراجتين أمام الكافتيريا، تناولا شرابين وتبادلا

حديثا مقتضبا في ما يسمح الوقت القصير للراحة. "أنا أقود دراجتي كل يوم حتى أنام براحة، وأنت؟". "لأنني لا أجد ما أفعله". "كيف قضيت يومك؟". "كنت أعزف وأستمع للأغاني؟". "أعرف أنك تعزف، سأسهر معك ليلة السبت". "سنسهر ليلة السبت". وانطلقا عائدين من طريق مقابلة ولم يصلا حتى حل الظلام. "كانت جولة ممتعة". تقول له وهي تحكم القفل على سلسلة ربطتها في عمود الباب الرئيس للبناية ويحكم هو ربط دراجته في العمود المقابل ويصعدان كل إلى غرفته.

كان ينتظر ليلة السبت لسبب لم يتضح جيدا بداخله حتى الآن. ولكن صورتها الجسدية القريبة من كمال الأنثى بدأت تشغل حيزا من ذهنه. لم يحضر مشاري تلك الليلة، حدثه واعتذر بسبب انشغاله. فقرر أن يستحم بعد أن تنتهي ستيفاني حمامها ويأكل ثم يسهر لوحده حتى منتصف الليل ليتصل برشا أو ينتظر اتصالا منها. بدأ الوضع بينهما يخرج بعيدا عن هموم اعتقاله وإبعاده واستطاعت أن تعيد الوضع إلى واقع مغاير لما حدث. كأن تتحدث معه كرجل أحبته من مكان آخر، مكان بعيد، كرجل سافر عنها في مهمة وتنتظر عودته بعد انتهاء مهمته. ويبقى الوعد القديم هو الثابت الوحيد بينهما. "سأكون معك ولك". "سأنتظرك". وتنتهي المكالمات المحكومة بالوقت.

كانت قد أرسلت له صورة "بورتريه" رسمها لها رسام بريطاني في ال. "كوفينت جاردن" علقها خلفه ولكنها صورة لا تشبهها الآن. شعرها طفولي قصير ملامحها واجمة وعيناها كحبتي زيتون لامعتين. تخيل أن ترسل صورتها بعد أعوام من الآن، سيكون شعرها رماديا قليلا وملامحها أكثر حزنا، وعينيها كحبتي زيتون منطفئتين تحيط بهما التجاعيد. وما يفتقده هو صورتها الآن بين هذه وتلك. وما تحتاجه هي أن تراه الآن بعد أشهر السجن والعذاب الذي يرفض أن يتحدث عنه. يرفض أن يخبرها شيئا عن عاهته المستديمة ولا عن ذلك الذي لا يشيخ ولن يموت ولا عن بذرة الانتقام التي تنمو بداخله. كان يريد تخليصها تماما من إثم لم ترتكبه ولا يريد لها أن تحمل شعور الذنب فيه. وكأن ما حدث كان سيحدث لأسباب أخرى.

- 3 -

السبت، السهرة المرتقبة الأولى له مع فتاة بجمال وفتنة ستيفاني، يتوقع لو أن ذلك حدث بالأمس البعيد في وطنه لرفض مجرد التفكير في سهرة مع فتاة غير رشا. ولكن وقته الآن هو ليس زمنه بالأمس، ولن يبقيه معلقا هكذا من قدميه إلى ما لا نهاية، لم يخرج من غرفته نهار السبت وتوقع أن ستيفاني ليست هنا، لم يسمع لها حركة في البيت. وهي فعلا لم تكن في البيت. خرجت عصرا تشتري ورودا من بائعة الورد على الرصيف وزجاجة نبيذ من متجر الخمور في المدينة واشترت كأسين جديدين وكأنها تعد نفسها لسهرة ماجنة. رتبت الطاولة واستبدلت مفرشها القديم بمفرش جديد، عطرت الصالة ثم دخلت غرفتها بعد طقس حمامها تلف منشفة على جزئها الأسفل وأخرى تلف شعرها تاركة صدرها عاريا لنسيم الهواء الذي يهب من شباكها المفتوح للريح. ألقت المنشفتين على أرضية الغرفة ووقفت أمام المرآة المستطيلة بطول قامتها الطبيعي. نظرت إلى جسدها وكأنها ترغب بالتعرف إليه بعد استعادته من وحشة الفقد وعناء العمل.

مسحت عليه بألفة، على خصرها المفتول واستدارة نهديها، وحلمتيها البارزتين كأول الفتنة، أحاطت بجسدها من الخلف بيديها كمن تتأكد من استدارة هضبته وصلابة أطرافها. نظرت لمثلث الشفاه وابتسمت. تناولت زيت التوت البري ودهنت جسد البرتقال. وضعت عطرها الذي كان يعشقه تحت أذنيها. لبست فستانا أخضر مزينا بصور ريش الطواويس من قطعتين تغطي الأولى صدرها حتى منتصف بطنها وتشد الأخرى كالساري الهندي حول خصرها وينسدل حتى قدميها مفتوحا من وسطها إلى الأسفل، فستانا من الحرير كان هدية من والدها وتذكرت أنها ارتدته قبل سنوات، وقبل أن تنفصل عن الرجل الوحيد الذي دخل حياتها حبيبا وغادرها حبيبا، ولم يدخل رجل بعده حياتها.

حين رآها خرجت من الحمّام دخل هو، حلق ذقنه واستحم سريعا وخرج. ارتدى ملابسه ووضع عطرا من عطره اليتيم على طاولة المكتب ولم ينظر إلى هندامه. كانت غرفته بلا مرآة. أخذ عوده وفتح الباب ليراها في الصالة بكامل فتنتها ترتب الطاولة. وضعت قنينة النبيذ والكأسين وبطاطا "الناشو" وسلطة جزر وخيار وأبدلت الورد القديم في الفازة بالورود التي اشترتها. جلست على الكرسي المقابل بعد أن فتحت الزجاجة وصبت لهما كأسين. "لم أشرب هذا من قبل". قال. "وماذا شربت؟" "شربت بيرة". "هذا له قدسية خاصة ويقولون النبيذ

الجيد مفيد لصحتك". كان طعمه في فمه لأول مرة غريبا حادا فأغمض عينيه. "لا يهم ستعتاد عليه". قالت. بدأ يعزف لها وكأنه يعزف لجمهوره الذي اعتاده في بيت الفن. لكنها لم تتفاعل كثيرا مع عزفه وإنما أعجبت بخفة يده التي تحمل الريشة ومداعبتها للأوتار الخمسة المزدوجة. توقف بعد المقطوعة الأولى التي اختارها للسنباطي وشرب الكأس الثاني الذي وضعته. نحى العود إلى جانبه وأراد أن يسألها عن سر هذه الصالة – المتحف. وقف أمام أحد "فخاخ الأحلام" المعلقة في الصالة. وقبل أن يسألها عنه. قالت له فجأة. "لماذا تركت وطنك؟". "لم أتركه، هو تركني". "ولماذا تركك، آسفة لا أريد أن أجرحك". "لن تجدي في جسدي مكانا لجرح جديد". قال وكأنها لاحظت دمعة سقطت مسرعة، توقعت أنها سقطت في كأسه القريب من شفتيه.

لم يجد إجابة مقنعة. لا يمكن إختصار ما حدث في كلمات. "تعرف، أنا أعيش في وطني الذي لا أملكه وأشعر بغربة حقيقية فيه". قالت. "لا تبدين مهاجرة بالنسبة لي". قال وهو يعود إلى الكنبة، يضع الكأس على الطاولة العريضة أمامه. "لست مهاجرة. أنا من السكان الأصليين وما تراه هنا هو ما تبقى من تاريخي". ولكن..." وقاطعته "أعرف لوني لا يدل على ذلك، ما تبقى لي من عرقي هو هذا الأسود الطويل الذي لا يتناسب مع بشرتي..." "أراه يتناسب جدا". "سنزور

في يوم ما المستعمرة التي بقيت لنا في الشمال البعيد". "كانت نساؤنا يصنعن مثل هذه السجادة ونطلق عليها السدو، لم أعرف أنها تصنع على الجانب الآخر من الكرة الأرضية". نظر إلى التفاصيل الغامضة في السجادة المعلقة، توقعها صورة امرأة. "لا هو طائر البوم" قالت. "كنت سأسألك عن هذه". "فخاخ الأحلام". هزّ رأسه موافقا على التسمية الجميلة. "في أساطيرنا حين كنا نعيش على أرضنا، هناك امرأة كانت تحمي الأطفال والناس من الأحلام السيئة وحين شتتتنا المهاجرون الجدد إلى الشمال تفرقت أمتنا ولم يعد بإمكان المرأة أن تحمي الأطفال فعمدت الأمهات إلى حياكة فخاخ الأحلام هذه لتبعد الأحلام السيئة عن الأطفال". "سأعزف لك أغنية من مدينتي". عزف لها مقطوعة أعراس بدوية وهي تحاول أن تبحث لها عن رقصة تناسبها ولم تنجح. أدارت له موسيقى من تراثها وطلبت منه أن يراقصها. وضعت يديه حولها. يد على خصرها والأخرى على وسطها العاري. أحس بيده تلتهب تحت نبض الجسد الدافئ وتمايلت معه وهو ينقاد كما تريد. كان يود الآن أن تلتصق به قليلا لكنها كانت تُبقي الفراغ بينهما يضج بشهوةٍ ليس لأي منهما أن يحدد وجهتها. أنهت رقصتها وجلست لتكمل شرابها وجلس يدندن على عوده.

حين انتهت السهرة قبلته على خده وقبل أن تنهض

أخذت أحد فخاخ الأحلام من على الحائط وأعطته له. "أحلام سعيدة". ابتسم وهو يفكر أن فخاخ الدنيا لن تنجح في ذلك.

- 4 -

ذات مساء أحضرت له ستيفاني موعد محاكمته، وطلبت منه أن يرى المحامية لتلقنه بعض الإجابات للأسئلة المتوقعة من القاضي. ترافقا معا، صبيحةَ اليوم التالي، إلى مكتب المحامية وغادر محملا بالإجابات المحتملة. "يجب أن تقول كل شيء". كان يعرف ما يقول. سيقول كل شيء. انتهى اللقاء وعاد دون ستيفاني التي طلبت منه أن تراه مساء في البيت. سار في شوارع المدينة التي ازدحمت بالسيارات والمارة، دخل أحد المجمعات التجارية، تناول إفطارا خفيفا. "سأقول كل شيء". كان يردد. وكل شيء يعني كل شيء دون سيرة علاقته برشا، هذه حكايته السرية التي لا يمكن أن تكون ضمن كل شيء. طلبت منه المحامية أن يزور عيادة خاصة ليستلم تقريرا عن عاهته وأسبابها. "عاهتك ستنهي كل قضيتك". قالت له. تأكد من عنوان العيادة الذي يحمله. "سأحتاج لسيارة أجرة". خرج إلى شارع "ويلنغتون" وركب أول سيارة تصادفه. التفت الرجل الذي يقود السيارة إليه. "هل رأيتك من قبل؟" قال بلهجة بدوية يعرفها جيدا. "لا أعتقد".

"كويتي". كان يعرف أن هذه الأسئلة البغيضة تبدأ بجملة واحدة وتنتهي بوجع لا ينتهي. كان يود أن يقول لا. ولكن كلمة "نعم" كانت أسرع إلى أذن الرجل. "إذن أنا رأيتك من قبل". "ربما. أنا لا أتذكر". أوقف السيارة وطلب من الشاب أن يركب معه في المقعد الأمامي ثم مد يده إلى عداد الأجرة وأغلقه دون أن ينتبه غانم إلى ذلك. جلس معه في المقعد الأمامي. بدأ الحوار المعتاد والذي توقعه العواد الذي قدم نفسه باسمه الجديد "فهد غانم". كان الرجل سعيدا به كمن التقى بشخص من أهله. لم تكن المسافة طويلة، حين وصل العواد إلى العيادة رفض الرجل أن يأخذ منه الأجرة وقدم له ورقة صغيرة عليها هاتف منزله واسمه. "أريد أن أراك". اتفقا أن يتهاتفا وتوادعا، بينما السائق أكثر نهما للحديث معه منه.

خرج من العيادة مصحوبا بخطاب من الدكتور المعالج إلى الشارع وقرر أن يسير المسافة وكأنه أَلِف الطريق الذي جاء منه. "ستحتاج لشراء آلة سمع". يتخيل منظره وهو يضعها كرجل مسن أصابه تردد أكبر من قدرة أذنه العجوز فأعطبها. وصل البيت وقد خانته المسافة التي أساء تقديرها. كان تعبا وليس في ذهنه شيء يفعله الآن. اتصل بمشاري ولم يرد توقعه خارج البيت، ترك له رسالة صوتية. ومضى النهار دون أن يرد عليها. خرج ثانية إلى النهر القريب. كانت الساعة الواحدة ولا أحد يهتم في هذا الوقت من اليوم بهذه

الشمس الناعمة والنسيم الطري سوى بعض كبار السن والأوز الكندي الذي يجتمع حول الماء ونوارس بيضاء ورمادية تتنازع على بقايا الطعام. جلس طويلا في هذا الصمت المهيب وقد اجتمعت غيوم كريش النوارس، بدت تتكاثر حتى أخفت ضوء الشمس. "ربما ستمطر". قال، ونهض عائدا إلى البيت. في الطريق اشترى وجبتي غداء له ولستيفاني وتركهما في المطبخ. قرر أن يستحم ويعزف قليلا.

عادت ستيفاني في موعدها. كان يجلس في غرفته يضع آلة السمع في أذنه المعاقة ويرفعها بسرعة، كانت تجلب له صوت يد العقيد على طبلتها قويا وصوت صرخته التي أمسك بها بين أسنانه، صوت كف العقيد على وجه والده. "لماذا سمحت له أن يمتهننا إلى هذا الحد؟" تنمو بذرة الانتقام غصنا أحمر بوردتين من نار. فتح الباب. حين سمع صوت ستيفاني تدخل غرفتها. خرج وطرق باب غرفتها "سنأكل معا" "انتظرني قليلا" وجلس إلى طاولة المطبخ المستديرة. خرجت ستيفاني بمنامة قطنية لم تغلق أزرارها على ملتقى نهديها تاركة شعرها مسدلا على كتفيها. "أوه.. شكرا شريك سكني. أنت طيب". ابتسم. أكلا ثم طلبت منه أن يستعد للخروج في جولتهما اليومية على الدراجتين. "ستمطر". "لا أعتقد" قبل أن تدخل لتبدل ملابسها بينما هو ينظف بقايا الطعام غمزته بعينها "فلتمطر!" قالت.

كان الهواء باردا، والغيوم تتحول إلى لون الدخان الكثيف، ولم تمطر في طريق ذهابهما. كانت جولتهما في شوارع المدينة الخالية من المارة تقريبا قبيل المساء وحين دخلا متنزه "الاتحاد" أمطرت فجأة وبغزارة غير متوقعة. حاولا أن يلوذا بمدخل باب مبنى البلدية القريب ولكن المسافة حتى المبنى كانت كفيلة بأن تسمح للمطر بأن يغمرهما حتى ارتعشا. ملابسهما تتقاطر وتلتصق بلوزة ستيفاني البيضاء بجسدها فيرى بوضوح تفاصيل جسدها وحمالة نهديها السوداء تتباين وبشرتها البيضاء –كما يراها الآن – في تضاد لا يسمح له بأن يرفع عينيه عنها. كانت ترتجف قليلا والهواء يبرد أكثر. "سنبقى هنا حتى تهدأ". ولكنها لم تهدأ حتى أخذت ستيفاني ترتجف فعلا وتعجز عن مقاومة ارتعاش جسدها. "أنت ترتجفين". "لا عليك اعتدت على المطر واعتاد علي". حين عادا إلى المنزل. دخلت غرفتها، أبدلت ملابسها ودست جسدها العاري تماما في لحافها الدافئ. لم يرتح لرائحة جسده المبلل بماء المطر فقرر أن يستحم ويعود إلى فراشه. عاد المطر ينهمر بغزارة وكأنما الغيوم التقطت أنفاسها في طريق عودتهما وعادت لجولة أخرى. فتح شباكه وأخذه صوت المطر ومنظره كشلال منبعه السماء التي لا يراها الآن بعيدة. تناول العود وبعد منتصف الليل جاء لحنه الذي ينتظره وكمن أعجب به صرخ "يا الله، لم أمت بعد!". في تلك الأثناء كانت

ستيفاني تئن وترتجف من الحمىّ تحت لحافها. دس دفتر النوتات تحت وسادته ونام. في تلك الليلة وللمرة الأولى يحلم بأمسية السبت التي مرت، حيث كان يراقص ستيفاني؛ ورشا تجلس أمامه على الكنبة تنظر إليه بما يشبه العتب ثم ينكسر نظرها إلى الأرض، يدع ستيفاني ويأخذ رشا من يديها يحتضنها بقوة ويهمس بأذنها "نساء الأرض لا تعني لي شيئا. حبيبتي يا وطن". ولكن ستيفاني ما زالت ممسكة بأطراف خياله. يستيقظ وللمرة الأولى منذ خروجه من البلاد تأتيه في الحلم. وللمرة الأولى منذ أشهر يبتسم.

لم تذهب ستيفاني للعمل في الصباح. شربت زجاجة الماء التي بجانب وسادتها وبقيت ظمئة تحاول أن تنهض إلى المطبخ القريب وتعجز. استيقظ. لم يسمع حركتها أو صوتها في مثل هذا الوقت وهي تترنم بلحن الهنود الحمر الذي أحبه من حنجرتها الناعمة، والتي تحاول أن تضفي عليها خشونة لا تليق بها. طرق الباب ولم ترد وهو يدخل المطبخ سمعها تنادي بصوت أجش "غانم". طرق الباب ثانية "أدخل". كان وجهها معروقا وعيناها حمراوين وتدلت شفتاها من الظمأ. "أريد ماء" أسرعَ إلى المطبخ تناول زجاجة ماء من الثلاجة وعاد إليها حين اعتدلت لتشرب لاحظت أنها عارية فسحبت الغطاء على صدرها ووضعت يدا عليه وبالأخرى تناولت الزجاجة ففضل أن يخرج. "لا تذهب" أعادت الزجاجة إلى

جوار الأخرى الفارغة. "هل تريدين الذهاب للعيادة، سأطلب سيارة أجرة". "لا. خذ نقودا من محفظتي واذهب للصيدلية". تناولت ورقة صغيرة من على الطاولة الصغيرة بجانبها وهي تخفي ما استطاعت عري نصفها العلوي تاركة كتفيها عاريين وشعرها ينهمر إلى الأمام. كتبت اسم دواء بخط يبدو واضحا رغم ارتعاشة يدها. "أحضر لي هذا من الرف. إذا لم تجده اسأل الصيدلي عنه". "أليس من الأفضل أن تذهبي إلى العيادة؟" قال. "لن يختلف الوضع هو العلاج ذاته". "آسفة أزعجك معي". لا عليك. ودون أن يستمع إليها وهي تشير إلى المحفظة. خرج مسرعا وكأنه يتورط في علاقة يدخلها من حيث لا يعلم.

توقف المطر في وقت ما أثناء نومه وفاجأه أنه لم يترك بركا ومستنقعات على الأرصفة والساحات. ترك عشبا تتبادل أوراقه كرات الندى وأرصفة كأنها غسلت بشاحنات الماء تلتمع تحت الشمس التي بدت تظهر وتختفي بين الغيوم البِيض التي تسوقها الرياح. يحاول أن يكون أسرع، كمن سينقذها من الموت. دخل متجر "شوبرز". الصيدلية في آخر المتجر. واختصارا للوقت توجه مباشرة للصيدلي خلف الطاولة التي تفصل أدوية الرف عن أدوية الوصفات الطبية. أريد هذا. قرأ الصيدلي الورقة دون أن يفلتها العواد من يديه "هناك" وأشار إلى رف بعينه. كان يقرأ أسماء الأدوية ويقارنها بالورقة.

لاحظ الصيدلي أنه لايعرف الدواء الذي يريده. فنادى به "أمامك يا سيدي. العلبة الزرقاء التي أمامك". رفعها إليه. هزَّ الصيدلي رأسه بنعم فعاد بها. دفع ثمنها ثم فكر أن يشتري عصير الليمون والبرتقال من نفس المتجر قبل أن يعود إليها.

ستيفاني في فراشها كما تركها. ناولها الدواء وعاد للمطبخ يصب لها كأس الليمون والبرتقال. يقترب منها. أحست أنه قريب جدا منها. "اشربي" نظرت إلى عينيه. أعطني بلوزة من خزانتي. فتح الخزانة واختار لها بلوزة معلقة كيفما اتفق. وضعت كأس العصير جانبا وتركت جسدها ينسل من الفراش، كان ينظر بعيدا وكانت تعرف أنه سيفعل ذلك دون أن تطلب. ارتدت بلوزتها واعتدلت تماما في السرير. شربت العصير ثم جرعت من الدواء. وضع يده على جبهتها. "حرارتك مرتفعة" "هذا دوائي السحري، يرافقني الشتاء كله. يبدو أن الشتاء دخل فجأة دون أن أستعد". مدت يدها إليه وضغطت بضعف شديد على أصابعه. "ممتنة لك فعلا". "لم أفعل شيئا". "أنتم لا تعرفون الوحدة التي نعرفها". "لم تعودي وحيدة". وابتسمت. "سأتركك لترتاحي". "أعطني الهاتف لأتصل بجوديث". ناولها الهاتف وخرج.

الفصل الثالث

لو كانت أمي رجلا

ما يجعل العقيد عبدالرحمن اليزاز فخورا بانتصاره ليس اختفاء الوجه الذي يطارده من المساحة التي يتواجد فيها، ويفرض عليها سطوته وإنما هو الحالة التي تعيشها شقيقته. لقد تحولت حياتها إلى ما يشبه حياة الراهبات. تخرج من المنزل مهملة لا تهتم بشيء من زينتها ولا بألوان ملابسها والتي غالبا ما تختار ألوانا رمادية باهتة دون أن تقصد ذلك. وكاد العقيد أن يكف عن طلب تقارير من رجاله عن تحركاتها التي تصيبه بالملل. "تخرج من البيت إلى العمل صباحا تعود من العمل إلى البيت ظهرا تخرج ووالدتها إلى البحر مساء تجلسان على الشاطئ لساعات ثم تعودان إلى المنزل". المرة الوحيدة التي كانت جديرة بأن يهتم بما كتبوه هي "زارها اليوم صباحا في مقر عملها المدعو فهد غانم وبقي في مكتبها لربع ساعة تقريبا". وهو أيضا ما تكرر لأكثر من مرة.

هذا ما يثير نوعا من الاهتمام لدى العقيد الذي لن يتعامل مع الأمر برسالة من العواد إلى رشا عن طريق فهد غانم، إذ بإمكانه أن يتصل بها في مقر عملها، أو أن يرسل هذه الرسالة عن طريق البريد، وهو ما لا يستطيع العقيد أن

يمنعه. وجود فهد غانم يعني أن الحكاية لم تنقطع ولم تصل إلى نهايتها بعد، وأن الاتفاق بينهما لم يكتمل كما وعدت. وكان عليه أن يعمل بذهنية استباقية.

كان فهد يزور رشا بين فترة وأخرى في مقر عملها في البنك. تسأله دائما إن كان العواد يحتاج شيئا. "لا أعتقد. أموره جيدة". ولكنه لا يجيب عن أسئلتها التي يرفض العواد نفسه أن يجيبها عليها. لم يقل لها حتى الطريقة التي خرج بها من سوريا إلى كندا. يكتفي ب. "دبرنا له جوازا مزورا". في إحدى المرات قالت له "لدي إجازة سأسافر مع أمي إلى لندن ومنها سأسافر إليه". كان ذلك يعني أن تخسر أهلها إلى الأبد، ولم تفكر بطريق العودة. وحين سألته لماذا لا تذهب إليه في إجازتك. لم يقل لها بأن عليه أن ينتظر ستة أشهر حتى يتمكن من استخراج جواز جديد عِوَضَ جوازه الذي سافر به العواد. "ظروفي المادية حاليا صعبة، ولكنني سأفعل قريبا". "هل تحتاج أن أساعدك؟". يبتسم لها "ليس لهذا الحد، ثم إنني مللت منه دعيه يبتعد عني". يقول مازحا.

كانت أمها تجلس في غرفتها، وحيدة، تشاهد مسلسلا عربيا حين دخلت رشا. "لدي إجازة من عملي تبدأ الأسبوع القادم". ولم ترد الأم. فأكملت "أفكر أن نسافر إلى بلد أوروبي". "تريدين أن تذهبي إليه". قالت وهي تركز على

مسلسلها أكثر من تركيزها على حديث ابنتها. "قلت بلد أوروبي". قالت رشا كمن تبعد تهمة تعرف أنها لم تعد تهمة. "لو قلت أذهب إليه وافقتك". قالت الأم كمن يدعوها لحديث أكثر صراحة. "وهل تذهبين إليه، معي؟". على رشا الآن أن تتفهم أمها كما تتفهمها. أن تكون واضحة. ابتسمت الأم وتركت متابعتها للمسلسل. "لو أجد رجلا يحبني بهذا الجنون أذهب معه إلى آخر الأرض". "هو الآن في آخر الأرض". لم تتأكد من أن أمها تتكلم بجدية حتى قالت لها "احجزي لي معك". احتضنتها ومسحت وجهها ودموعها بشالها. "كم أحب روعتك".

كانت الأمور تبدو عادية جدا. جمعت رشا أشياءها وكأنها لن تعود إلى هنا أبدا. سحبت رصيدها المالي وحولته عن طريق بنكها لحسابها في فرع البنك بلندن. "ماذا تتوقعين منه أن يفعل حين يعلم". "حين يعرف سيتبرأ مني ومنك ولكن لا تعودي إلا مع زوجك وطفلك أو أطفالك، لن يستطيع حينها أن يفعل شيئا".

اتصلتْ به وأخبرته أنها قادمة. لم يكن على ثقة كاملة بما تقول. ولكنه لم يخف فرحته. ربما استطاعت فعلا أن تأتي إلى هنا. تمادى في فرحه وكأنها تقول سيأتي كل ما في وطنك إليك. تمنى لو استطاع أن يقبل رأس عمه ويرضى

عنه ويزوره ليراه ويحضر زواجهما.

طلبت الأم من السائق أن يضع الحقائب في السيارة ليلا. على أن يغادرا في الصباح الباكر دون أن يثيرا ريبة أحد. الأمر يبدو مغامرة للاثنتين، ولا يبدو كذلك للآخرين. كانت فرحة اللقاء، الذي لم يتم بعدُ، تتسلل إلى نفس رشا وتعتقد بأن فرحة أمها التي لا تقل جنونا عنها تماثل فرحتها. حين وصل السائق إلى المطار استلم عمال المطار الحقائب وطلبت من السائق أن يعود إلى البيت. أنهت إجراءات الشحن وتدقيق التذاكر وجلستا في مقهى المطار. رشا تتلفت وكأن خيال صورة العقيد تكاد تطبق عليها. لكن الأم كانت منشغلة بأغراضها الخاصة في حقيبتها اليدوية دون أن تكترث بقلق ابنتها.

أعلنت المذيعة الداخلية في المطار أن على ركاب الطائرة المتجهة إلى لندن التوجه للبوابة رقم 26 ونهضت رشا تستعجل أمها التي فضلت أن تذهب متأخرة. تأمل رجل الأمن الجواز الأول. كان للأم وبحث في جهازه فختمه ولم يفعل الشيء ذاته مع جواز رشا. "آسف" قال بنبرة هادئة "أنت ممنوعة من السفر". اقتربت الأم من الشباك الزجاجي وأدنت وجهها من فراغ المستطيل المفتوح في الشباك "ومن الذي منعها من السفر"؟. "لا أعلم يا أمي". قال الموظف محاولا

التودد للأم التي بدت ملامح الغضب تتحكم بعضلات وجهها. "تستطيعين أن تراجعي مكتب أمن المطار" "تأكد جيدا. أتعرف من أنا؟" "قالت بصيغة سؤال ولكن الفتاة أخذتها إلى الخلف قليلا. "تعالي، أنا أعلم من منعني من السفر؟". "اتصل به الآن ليحضر، لن يتحكم بـي وبابنتي". لم يفهم الشرطي عن من تتحدث السيدة. "قل له أن يأتي إلى هنا ويرفع هذا المنع الآن". أكملت ورجل الأمن لا يجد ردا. "راجعي أمن المطار يا والدة". صرخت الأم حتى انتبه المحيطون بها لصوتها. "لست أمك وليتني ما كنت أمه". حاولت رشا أن تعيدها إلى الخلف مرة أخرى. "لن أسمح له أن...، اتصل به الآن وقل له أن أمك وابنتها ستسافر متى أرادت". "من هو الذي اتصل به يا أمي". "لاتقل أمي ولن أسمح له أن يقولها". حين اجتمع الشرطة وبعض الموظفين ومارة لا علاقة بهم بالأمر. رأت رشا أن أمها فقدت أعصابها. "تعالي معي". دفعتها الأم "لن أتحرك حتى يأتي". "أرجوك تعالي معي". وشدت أمها إلى الوراء بعيدا عن نصف الدائرة التي تشكلت حول الشباك الزجاجي. أعادتها إلى مقاعد الجلوس. أحضرت لها ماء وهي تنتفض. "إنه يسجننا ابن اليزاز". "أرجوك سنفتضح أمام الناس". هدأت قليلا. عادت رشا تعتذر من الشرطي وتستعيد الجوازين بعد أن ألغى الشرطي الختم عن جواز الأم. "سأذهب إليه في عمله". قالت

الأم. عادت رشا بخيبة. لن تستطيع أن تفلت منه وهو يحكم قبضته جيدا عليها. "ليس من حقه أن يفعل ذلك، سأذهب إليه الآن". "لا. لن نذهب إليه. يجب أن أجد حيلة أخرج بها من قبضته، مواجهته لن تجدي شيئا". "لن أسكت". "تذكري اتفاقي معه، سيصر عليه لن أخرج من هنا إلى أي مكان حتى أتزوج". "لم تتفقا أن لا تسافري متى أردت". "هو ليس غبيا يعرف أن سفري إلى مكان هو هروبي إليه". "وإذا لم تتزوجي". "سأخرج حين يموت، أو أموت ولم أخرج!". أقنعت الأم أن يتم ما حدث سرا بينهما. عادتا إلى البيت وهاتفت فهد غانم أن يخبر العواد بما حدث. لم تود له أن يرى الخيبة في صوتها.

الفصل الرابع

بحيرة الطين

- 1 -

"لا تتحركي. سأحضر لك شيئا لتأكلي". قال غانم لستيفاني وهي مستلقية تقاوم فيروس البرد الذي شل حركتها. جهّز وجبة سريعة من المعلبات التي وجدها في المطبخ وعاد إلى سريرها. وضع الصينية في حجرها. "كُلي. يجب أن تأكلي". كانت تتابع القلق في عينيه ولكنه كان يبتسم في وجهها كلما نظرت بعيدا فيهما. "لا تقلق كنت أتجاوز هذه الأمراض الموسمية وحيدة، لا أتذكر أن الشاب الذي سكن قبلك اهتم بـي". "ربما لأنه ليس غريبا ووحيدا مثلي".

لم تأكل كما يجب، كان الطعام مرا في فمها كالدواء الذي لم يخفف وطأة الحمى وربما أشعلها أكثر. دفعت إليه بالصينية. أعادها إلى المطبخ. "هل تريدين شيئا؟". ابتسمت "شكرا، أنت تعاملني كحبيبتك، لا تعطل حياتك من أجلي، أنت صديقي فقط". "ليس لي حياة أعطلها وحبيبتي تركتها في الكويت ولم أترك حبها". اندست في سريرها، "ستحدثني عنها". قال وهو يضحك. "إن استطعت". وخرج.

جاءه مشاري في المساء وقررا أن يخرجا إلى بار "أوليفرز" ليشربا. "إنها مريضة جدا". قال له. "أليس لها أحد هنا؟". "لا أعلم. لم أسألها". لكن السؤال الباهت الذي ألقاه غانم لم يمر دون تعليق مشاري. "يبدو أنك تحبها". "لا. ليس كذلك". كان يود أن يتحدث عن حبيبته كأي محب يريحه أن يتحدث عن حبيبته ولكنه صمت. فهو يرى أن حبه لا يصلح أن يكون حديثا. إلا إذا أراد أن يسنّ نصل هذا الألم. "حسنا". شربا قليلا ولم يكمل السهرة كما توقع مشاري." أريد أن أعود إلى البيت". "تعود إلى البيت، طيب". خرجا من "أوليفرز" ولم يتبادلا حديثا سوى "موعد محاكمتي الأسبوع القادم". "لا تقلق. لم يرفضوا أحدا في مثل ظروفك". ربما كان يطمئنه. "إذا كسبت قضيتي سأعزف لك اللحن الجديد". "لن تخسرها". وغمزه بعينه "اهتم بستيفاني". تركه أمام البناية وغادر. ما أعاده إلى البيت هو ليس ما ظنه مشاري. فهو لا يعرف كيف ينتظر حبيبته التي وعدته بالقدوم.

حين دخل البيت توجه إلى غرفتها توقع أنها نائمة. رأى باب غرفتها مفتوحا كما تركه حين خرج. وكانت مصابة بالهذيان. "ستأتي المرأة تحمل سلتها، تجمع بها الأرواح التي عليها أن ترحل، ورودا بيضاء وحمراء وسوداء في سلتها، الأرواح التي تتحول إلى ورود بلون أفعالها التي ارتكبتها. أسمعها الآن تنادي اسمي". وضع يده على جبهتها. كانت

تنز عرقا، أيقظها. صرخت "لا. لا. ليس الآن". "ستيفاني أنت محمومة". حين فتحت عينيها ونظرت إليه "غانم. كانت ستأخذني رأيت قبيلتي في سلتها، رأيت نساءنا وأطفالنا وشيوخنا". رفع زجاجة الماء بعد أن اعتدلت في جلستها. شربت وافترت شفتاها عن ابتسامة. "حاولي أن تنامي". "لا أريد أن أنام. أنا خائفة". "تذهبين إلى المستشفى؟". "لا. ابقَ إلى جانبي". سنتحدث قليلا.

"لا تتوقع أن هذه الأرض أكثر رحمة من أرضك، كنا بسطاء نعيش لغتنا وديننا وإيماننا وزراعتنا وصيدنا وعاداتنا. كان والدي في السادسة، في الفضاء الوحيد الذي دفعه إليه البيض ببنادقهم، حين جاءت الشرطة بطائرات مروحية هبطت في الساحات، وشاحنات شرطة وسيارات كطيور جارحة وضوارٍ زاحفة جمعوا الأطفال فوق السادسة، وأركبوهم الشاحنة التي انطلقت بهم إلى مكان لا يعرفه أحد. علموهم أن يتحولوا إلى سكان بيض مثلهم ولم يعد إلى أهله. تزوج امرأة بيضاء ونسي اللغة والدين وكل ما يمت لقبيلته بصلة. صنعوا منه إنسانا كما سيصنعون منك. يجب أن تهرب من هنا. أن لا تتحول إلى نسخة من الجميع فلا تعرف من أنت".

"أنت محمومة". "ربما، ولكنني صادقة".

لا تعرف ستيفاني أن ما حدث لم يكن خياره هو، ولا رغبته، كأن أحدهم ألقاه في جزيرة لا يربطها باليابسة سوى هذا المحيط الذي ليس بمقدوره أن يعبره. حين اندست في فراشها وأغمضت عينيها توقع أنها نامت ولكنها عادت إلى حدائها الناعم، وكان صدى بحة صوتها المصاب بالبرد يذكّره بعمّه وهو يستلقي على الدكة قبيل الغروب يحدو خلف خيالات إبلٍ يرعاها في صحراء الوهم.

- 2 -

في صباح اليوم التالي نهضت ستيفاني من سريرها، أخذت حماما ساخنا وألقت ملابسها المضمخة بعرقها ورائحة جسدها في سلة الغسيل. عادت لطقسها وفي صدرها بقايا برد لم يمنعها من الذهاب إلى عملها. ارتدت "بلوفرا" من الصوف الخفيف وبنطال جينز، وغادرت قبل أن ينهض غانم من فراشه. بقي ذلك اليوم وحيدا في البيت، يتوقع أن تتصل به رشا من المطار لتقول له أنها وصلت. كان يفكر في اللحظة التي يحتضنها بقوة إلى صدره ويقبلها، سيفعل ما لم يفعله هناك. ولكن الهاتف رن قاطعا متعة خياله ليستمع إلى صوت فهد غانم، الذي يعيده إلى نقطة البداية. "لن تستطيع أن تأتي لقد منعها من السفر". قال فهد غانم. "لقد كبر ثأري يا فهد". ثم ران صمت طويل بينهما. لم يجد ما يقوله. "تخبرك أن لا تيأس، ستجد طريقة للخروج". "لا أعتقد، لن يسمح لها". لم يجد فهد غانم ما يمكن أن يهدئ به غضبه وهو يصرخ. "صدقني سأنتقم منه في يوم ما". يعرف فهد غانم أن صديقه ليس الرجل الذي يسعى لانتقام. ولكنه لا يعرف هذه البذرة

الكريهة التي تنمو بداخله وتحتل كل مزاياه الطيبة. وانقطع الحديث بينهما دون حتى كلمة وداع. وضع غانم الهاتف وخرج يتنفس هواء نقيا. كان نسيم صباح لطيف لكنه لم يستمتع به. بدأت تعود إليه مآسيه التي عاشها وصورة العقيد لا تفارقه. لم يتخلص من ملامحه التي لا يريد أن ينساها، وبقي الصوت الوحيد الذي تسمعه أذنه، حتى تلك المعطوبة، صوت يد العقيد وهي تهوي على عمه، فيغمض عينيه كلما تذكر أنه فشل في الدفاع عنه.

تعافت ستيفاني تماما، ودخلت غرفته للمرة الأولى كمن ترد زيارة قصيرة، أخبرته بأن عليهما أن يذهبا إلى المحكمة هذا الصباح. كان يجلس على كرسي المكتب يراجع بعض الأوراق التي في الملف. "سأكون جاهزا بعد قليل". خرجت وهي تؤكد عليه ألاَّ يتأخر. سارا على الأقدام حتى شارع "ألغين" حيث محكمة العاصمة. كانت جوديث تنتظر في غرفة المحامين. "تأخرتما قليلا، سندخل الآن". لم يكن في القاعة سوى قاضية ورجل أمن يقف إلى جوار العلم الكندي المنتصب على يمين المنصة. وكاتب الجلسة. جلست المحامية تتوسط ستيفاني وغانم في مواجهة القاضية الشابة. تحدثت المحامية تعرض حالة موكلها الذي بقي يتابع تعابير وجه القاضية الجامد كتمثال شمع والشرطي الذي ينظر إليه ثم يشيح ببصره جهة الباب خلفه. مدت ستيفاني يدها لتضعها

على يده كمن تهدئ روعه الذي تشعر به يتحرك في أنحاء جوفه، لكنه لم يشعر بها. كان ينتظر ما يفصل بين موته وحياته، بين أن يكون حقيقة أو يتحول مرة أخرى إلى إنسان من خيال. حين انتهت المحامية من مرافعتها طلبت القاضية منه أن يقف. نهض بأدب وبعض وجوم. "هل تعرضت للتعذيب؟" وهزّ رأسه نعم. "هل يمكن أن أسمع صوتك يا سيدي". أحس براحة وقال "نعم". "هل أصبت فعلا بعاهة مستديمة" وأجاب بنعم. "هل هذا هو اسمك الذي دخلت فيه البلد؟". "لا" قال. "ولكنه اسمي الذي اخترته أنا كما اخترت البلاد". "هل لديك ما يثبت اسمك القديم؟" "لا". ثم نظرت إلى المحامية "بإمكانك أن تتقدمي بطلب تغيير اسمه كما يحب وسأوافق عليه حفاظا على أي أوراق يريد تقديمها فيما بعد". ثم التفتت إليه "اجلس يا سيدي!". لم تستمر محاكمته طويلا. وقعت القاضية في نفس اليوم قبول طلبه ومنحته حق الإقامة الدائمة اعتبارا من يوم دخوله الأراضي الكندية.

"يبدو أنها أعجبت بك، هذه أكثرهم قسوة". قالت له جوديث وهي تسلمه أوراق الحكم. "مبروك سيد غانم". "شكرا لك". وخرج وحيدا من المحكمة عائدا الطريق إلى البيت تاركا المرأتين في المحكمة.

من عادة ستيفاني أن تخرج كل يوم جمعة مساء بعد

عملها لتزور شاليه "بيرث" حيث تجتمع أسرتها وتعود مساء الأحد، بينما يقضي نهاية الأسبوع بصحبة مشاري ورفاقه يوم السبت ويتفرغ نهار الأحد لتنظيف البيت وملابسه في الغسالات الآلية بالقرب من المنزل. ولم تفعل ستيفاني ذلك في نهاية هذا الأسبوع كما لم تفعله ليلة سهرة السبت. طلبت منه أن يرتدي ملابسه الرياضية. "سنذهب إلى مكان أحبه ثم أدعوك على الغداء في مطعم جميل هناك". ركبا دراجتيهما، وانطلقا. "إلى أين؟" "سأريك رئة النهر". كانت المسافة طويلة من سكنهما، وتوقفا لمرتين في الطريق. كانا يسيران بمحاذاة نهر أوتاوا باتجاه الجنوب، في الطريق الضيق المخصص للمشاة وقائدي الدراجات، وهو طريق يسمح لهما أحيانا أن يسيرا جنبا إلى جنب إذا لم يصادفا دراجة قادمة من الطريق المعاكس باتجاه إلى المدينة. "هل المكان بعيد؟" قال لها وهو يسير إلى جانبها. "لا، وصلنا". دخلا إلى مكان منخفض واختفى النهر خلف أشجار الدردار والقيقب والقضبان بجذوعه البيضاء والصنوبر الأبيض القديم قدم النهر. ويفصله بين الطريق المعبدة والأشجار العملاقة شجيرات التوت البري القصيرة وبعض شجيرات الورد الأبيض والوردي منحت المكان رائحة فاتنة ينقلها النسيم المشبع بخلايا الماء. وحين بدأ السياج الحديدي الذي تخللته الأشجار القصيرة ولم ينتبه إليه إلا عند المدخل، خففت ستيفاني سرعتها، وفعل هو

الشيء ذاته. توقفا أمام مدخلين بينهما لوحة معلقة تقابل المساحة الشاسعة التي اتخذتها مدرسة ريجاينا ملعبا للبيسبول وكرة القدم واقتُطع منها مستطيل مسور لكرة التنس. كانت الساحة تعج بالناس في هذا الوقت، ويسمح صراخ فتيات يلعبن الكرة، ويرى أطفالا يمرحون في ملاعب الأطفال. ربطا الدراجتين أمام البوابة وأحكما قفليهما، وقبل أن يدخلا قرأ اللوحة.

"بحيرة الطين

نحن طلاب مدرسة "ريجاينا" نأخذ على عاتقنا صيانة البحيرة والاهتمام بحيواناتها ونباتاتها وتفعل ذلك الأجيال التي تأتي بعدنا".

كانت الكتابة السوداء على اللوحة متقشرة وقديمة تعلوها رسمة يدوية لضفدع وأغصان. دخلا الغابة فأخفت الأشجار الكثيفة الشمس إلا ما تسمح به فروج الأوراق من ضياء يأخذ هالات وأشكال مختلفة على ملابسهما. سارا حتى اعتقد أن طريق العودة سيكون صعبا لو كان بمفرده. كانت تمسك بيده كلما تأخر. يتنفس بصعوبة كلما صعد مرتفع صغير أوكلما تدحرج من منخفض. وصلا البحيرة وهو يستمع من بعيد إلى نقيق الضفادع وأصوات الطيور التي لا يعرف أسماءها ولا

يراها. كانت مياه البحيرة سوداء وقذرة تساقطت فيها جذوع أشجار ونبتت على أطرافها سرخسيات وأعشاب مائية تسبح حولها سلاحف وفراخ إوز. وصلا نهايتها وسمع من بعيد في الجهة المقابلة صوت طائر توقع أنه بوم. جلست ستيفاني على جذع خشبي جاف وجلس إلى جانبها يطلان على البحيرة. "اسمع!" كانت أصوات تضج في المدى وكأنها تناجي بعضها وتشكل مع أصدائها لحنا متسقا. "هل تستطيع أن تفعل هكذا على العود". "لا أعتقد يبدو أن العود آلة جافة". "نعم كنت أرى الصحراء وأنت تعزف". "هل هذا صوت بوم؟" كان الصوت هو الصوت الوحيد النشاز في معزوفة الطيور. "إنها البومة البيضاء، شرسة جدا ويبدو أن الفرائس لا تهتم لها كثيرا". فجأة تناوبت طيور الزاغ على فريسة لم يحددها في مكان ما من الجهة المقابلة ولكنه كره صوت نعيقها.

أخرجت ستيفاني من حقيبتها خبز التوست وألقت ببعضه إلى بطتين صغيرتين تسبحان بالقرب منها. "لماذا قلتِ إنها رئة النهر؟". "لأن النهر يتنفس من هنا". ولم يفهم. وأكملت "انظر إلى المياه الرزقاء قبل أن تدخل البحيرة وأكثر زرقة حين تغادرها". فجأة وقفت عجوز إلى جوارهما تحمل منظارا صغيرا وتلقي بنظرها إلى ضفة البحيرة الأخرى. "هل ترون ذلك الطائر؟" قالت لهما. كان يبدو طائرا ضخما حتى

من مسافة بعيدة. "ربما كان نسرا" قالت العجوز. "ربما" قالت سيتفاني. "ربما رخ" قال غانم "رخ" بالعربية. فردت العجوز بالإنجليزية "Roc". هل أنت شرقي؟" إلتفت إليها "نعم". وزمت العجوز شفتيها "تقولون إن بإمكانه أن يحمل فيلا". ويبدو أنها غضبت منه "ستبقون تعيشون بأساطيركم حتى ينتهي العالم". وغادرت. "أغضبتها" قالت ستيفاني. "لا أعتقد. هؤلاء كبار السن لا يطيقوننا هنا". "لا عليك، فلنعد".

"كيف تعرفين طريق العودة من هنا؟". وضعت يدها على كتفه. "كنت سأخبرك حين دخلنا إلى هنا ونسيت. "أنظر" وأشارت إلى الأشجار. كان هناك مثلث أحمر يتجه إلى الأعلى على شجرة أمامه. "حين تخرج تتبع المثلث الذي يتجه إلى أعلى وحين دخلنا كانت المثلثات تتجه إلى الأسفل". وأشارت وهي تدير ظهرها إلى شجرة تحمل مثلثا يشير إلى الأسفل. "انظر!". كان يسير ويتابع المثلثات التي ثبتت على الأشجار. "فعلا. طريقة ذكية". خرجا من الغابة متجهين إلى شاطئ "بريتانيا" ومنه إلى أحد المطاعم الصينية على شارع "كارلينغ". كان الأكل رخيصا ومرعبا بالنسبة له، يخاف من أكل الصينيين الذين يحترم نظافتهم وأخلاقهم هنا. اكتفى بمأكولات نباتية وكانت تأكل أشياء لم يجد شهية في النظر إليها. "يجب أن لا تكون عدو ما تجهل". ولكنه لم يقتنع "في ما يتحكم به عقلي أتفق معك، أما في ما تتحكم به معدتي

فلا". هزت رأسها وكمن توافقه. "أنا أحب الشاورما والفلافل والحمص". وكأنها تذكرت شيئا مهما "آه. جوديث تقول إن الحمص إسرائيلي". لم يحب ذلك واكتفى ب. "يحق لجوديث أن تسرق الحمص". "أنا لا أكرهك ولا أكره جوديث ولكني أتعاطف مع الذين ينفون في بلدانهم أكثر من الذين ينفون خارجها". نهض عن الطاولة قبل أن ينهي أكله. نظرت إليه كمن تتأكد من أنه لم يغضب. لم تكن ملامحه توحي بشيء. "إلى أين"؟" "سأعود". ودخل دورة المياه. لم يكن غاضبا كان حزينا فقط. غادرا المطعم بعد العصر وعادا إلى المنزل. فجأة اقتربت منه وقبّلته على خده. أراك فيما بعد. وافترقا كمن يسكنان في زقاقين متباعدين.

- 3 -

في نهار يوم جمعة جاءه اتصال من رجل يتكلم لهجته، لم يستطع تخمين صاحبه. "أنا بو علي" قال الرجل، ولم يتذكر أنه يعرف أحدا بهذا الاسم. ليس له هنا صداقات مع رجل من بيئته التي تذكر أصوات أهلها وهو يستمع إلى نبرة صوته، لكنه رد كما يقتضي الرد "أهلا بوعلي". يوحي صوته للرجل بأنه لم يعرفه. حاول أن يقرب الطريق ليتذكره. "أنا سائق سيارة الأجرة". تذكر الرجل الذي أقله إلى العيادة قبل فترة من الزمن. "أوه اعذرني لم أعرفك". "لا عليك". "هل يمكن أن نلتقي؟".

اتفقا أن يكون الموعد في المقهى القريب من سكنه. تحدث الرجل طويلا عن تجربته منذ خروجه من الكويت حتى وصوله هنا. وكان غانم يستمع دون تعليقات كثيرة. أحس أن الرجل يريد أن يتحدث، يتحدث فقط ويرتاح. وافترقا دون أن يترك اللقاء صداقة ممكنة بينهما لفارق السن الكبير بينهما. كان أبو علي تجاوز الخمسين من عمره ويبدو أن عمره قد

توقف منذ اللحظة التي غادر فيها عالمه الأول. توقع غانم أن يحدث ذات الشيء معه. سيصل الخمسين أو أبعد دون أن يغادر عالمه الأول. هكذا تبدو بصمة المكان الأول هي البصمة الحقيقية الدائمة على المصائر. بصمة لا يمكن لعوالم أخرى أن تزيلها، هكذا تبدو كوحمة الولادة تعرف بها الأمهات أطفالهن وخرافة أسبابها. ولكن اللقاء انتهى بأن يعرض الرجل عليه أن يعمل معه إذا ضاقت به الدنيا، والتي بدأت تضيق به فعلا.

بدأ المال الذي معه ينفد ولن يقبل مالا من أحد هناك حتى عمه الذي أقنعه بأنه يعمل ويكسب جيدا هنا، ولن يعرض عليه أحد هنا أن يساعده سوى الخمسمائة دولار المخصص الشهري للإعانة الاجتماعية يدفع منه ثلاثمائة دولار لستيفاني التي حتى لو تزوجته ستبقى تطالبه بها. فكر كثيرا في العمل الذي عرضه الرجل ولكنها مهنة أقل بكثير من طموحه. يعزي نفسه بأن الرجل خريج حقوق، وقبلها فلم لا يقبلها هو. ثم يعود ويقنع نفسه برفض العرض والبحث عن عمل آخر.

لكنه عاد وقبل العرض بعد جلسة مع مشاري وأصدقائه في بار أوليفرز، ولم يقبل العرض لأنه كان بلا وعيه وإنما قبله وهو في كامل وعيه بعد نقاش طويل مع زملائه الذين

عرضوا عليه بديلا وحيدا وهو أن يعزف خلف مطربي المراقص الليلية. قال بحدة: "أهين نفسي ولا أهين عودي". لم يقصد الموسيقى كما فهموها هم وإنما يقصد عوده – الآلة التي تنام إلى جانبه كأنثى. أقنعوه بأن ذلك العمل المسائي سيوفر له مالا أكثر مما يتخيل؛ يستطيع أن يدفع منه رسوم الجامعة وأن يكمل تعليمه هنا. ولكن تلك لم تكن فكرة لتخطر بباله أصلا. كل ما يريده هو أن يمضي المدة القانوينة للحصول على الجنسية والعودة. لم يكن يعلم أنه لن يستطيع العودة أبدا. بعد أن اجتاز دورة التاكسي استلم عمله من صاحبه وكان يمضي وقته من الرابعة مساء حتى الرابعة صباحا متنقلا بين شوارع المدينة حتى يهدّه التعب ويعود لينام النهار من الرابعة صباحا حتى الواحدة ينهي بعض أعماله في الساعات القليلة قبل أن يبدأ عمله الذي بدأ يمسح ذاكرته بعض الشيء ولكنه يسقي شجرة نار الانتقام في جوفه. ما كان ينغص عليه يومه هو ما يتعرض له من مضايقات لا تنتهي من زبائن الليل. سكارى، بغايا، تجار حشيش وماريجوانا. ويدخل في صراعات مع شاب وفتاة يرغبان بممارسة الجنس في المقعد الخلفي، وحين ينهرهما يتهتكان بفجور، يقبّلان بعضهما وأصوات الشفاه تمرّ بخبث من وراء أذنيه. وقرر ذات يوم أن يتوقف عن العمل قبل الواحدة، حين كاد أحد المخمورين أن يطعنه من أجل عشرين دولارا. وتوقف

عن العمل يومي السبت والأحد.

ما لم يتوقع أن يفعله ذات ليلة أن يعود براكبة من محطة الباص. في الطريق أخبرته أنها لا تملك مالا وأنها لا تعرف مكانا تذهب إليه. لم تكن الفتاة جميلة أو مغرية ولا تبدو عاهرة بالنسبة إليه. كان قد قرر أن يكون ذلك آخر زبون لهذه الليلة. "ما الذي علي القيام به؟" قال لها. لكنها اقتربت من مقعده "هل لديك مكان أقيم فيه؟".

المكان الوحيد الذي فكر فيه هو أول موتيل سكنه حين وصوله. سيضحك صاحبه ربما حين يراه مع فتاة. وليكن. وربما لن يتعرف على سحنته التي تتشابه بالنسبة لهم كما تتشابه سحن شرق آسيا بالنسبة له. قال لها سأدفع لك ليلة واحدة تتصرفين بعدها. ناولها مفتاح غرفة استأجرها لها ولكنها طلبت منه أن يبقى معها حتى الصباح. في الرابعة صباحا حين خرج لتسليم السيارة لصاحبه رأى نفسه شخصا آخر. لم يعد العواد الذي يعرف. كان جسده ينز كراهية بغيضة لا يطيقها ورائحته نتنة جدا رغم هذه اللذة الطائشة كنعيم مؤقت يتسلل إلى خلاياه. نظر في مرآة السيارة المعلقة أمامه. كان فهد غانم ينظر إليه ويبتسم.

تكررت مغامرات غانم كلما سنحت له الفرصة، اشترى

زجاجة نبيذ كتلك التي شربها ذات ليلة سبت من محلات LCBO غير محاول تجريب نوع لا يعرفه وكأن ليس أمامه من العمر ما يسمح له بالتجريب. كان يدخل سكنه مع فتيات ضائعات من القرى والمدن، وبنات جامعة في أول ممارسات حمى الجسد ويخرج من السكن قبل أن تستيقظ ستيفاني. ذات يوم قالت له "أعرف أن الفنانين لا يتوقفون عن ممارسات جنونهم، ويغفر لك أنني أودك". حاول أن ينكر. ابتسمت وهي تقول "المرأة تستطيع أن تشم رائحة المرأة في ذرة هواء عابرة". ولم يكن التذاكي عليها بالإمكان فصمت. وهو أيضا لا يعرف شعورها تحديدا تجاهه وكلمة "أودك" كانت كلمة منتقاة بعناية. لم يعد يخرج معها رحلته اليومية ولم تكن في البيت نهاية الأسبوع. حين عاد ذات ليلة وجد على الباب ورقة صفراء صغيرة معلقة كتبت عليها بخط واضح ودقيق "حدثت أهلي عنك ويريدون أن يلتقوا بك". كانت تلك دعوة له لم يأخذها لأبعد من كونها دعوة زيارة لأهلها.

الفصل الخامس

وأيضا، ليت أمي رجلا

توقفت محادثات رشا له منذ وقت طويل. لا تتصل به ولا ترد على اتصالاته. اتصلت بفهد غانم وأخبرته أنها لا تستطيع أن تتحدث إليه أو إلى العواد في هذا الوقت، وعليه أن يخبره بذلك. كان ذلك قاسيا على فهد غانم ويعلم قسوته على العواد، شتمها في سره وضرب بيده على جبهته. ليس له أن يتخيل أن حياة صاحبه انتهت هكذا إلى لا شيء. حين اتصل به ليخبره صمت العواد طويلا. هو وحده يعرف ما كان يقوله في صمته الآن. لم ينتظر منه أن يصرخ بها أو يلعنها، هو يعلم أنه لن يفعل ذلك حتى بينه وبين نفسه. أغلق الهاتف.

في الأشهر الماضية ومنذ اللقاء الأخير بين رشا والعقيد في مكتبه لم تلتق به رشا ثانية. كانت تتهرب من دعوته لهم في الشاليه وتتضامن معها أمها التي تلتقي به وحيدة في منزلها دون أن تدخل بيته. أما العقيد فلم يهتم كثيرا، كان يعلم أن الزمن في عدم ثباته له فضائل عديدة. ويراهن على عودتهما إليه في يوم ما، لا يهم تحديده بدقة ولكنه يراه أقرب مما يتوقع.

كان الرجل الذي اختارته رشا لا يمكن للعقيد أن يرفضه، عميلا سمجا لزجا لا يتوقف عن مغازلتها كلما زارها بمناسبة أو دون مناسبة في البنك. طلب من صديقه مدير البنك أن ينقل حساباته الشخصية إليها. "لماذا هي؟" "لا فتاة يا صديقي في فرعك هذا تغريني غيرها". ويضحك لسماجته التي يعتبرها إطراء للفرع وإن لم تكن كذلك.

كان في منتصف العقد الرابع، عاش حياته مخلصا للمال حتى أنساه الحياة الأخرى وكان صادقا معها حين أخبرها بأنه غني وبائس. لم تدخل حياته امرأة ولم يخرج من حياة امرأة من قبل. ولم يجد منها سوى ابتسامة باهتة وكلمات مقتضبة لا تتجاوز الاهتمام بالأمر الذي يأتي من أجله. وما كانت تظنه سيصده عنها فعل النقيض، ففي أحيان كثيرة كان يأتي أكثر من مرة في اليوم الواحد متعذرا بعذر تافه ومقبول في ذات الوقت.

في صباح يوم حار بعد أن فتح الفرع أبوابه للمراجعين الذين لم يتوافدوا بعد، كان يجلس في غرفة المدير ويطلب قهوة. جاءت رشا متأخرة خمس دقائق لتراه من خلف واجهة المكتب الزجاجي وهو يرفع نظره نحوها. نظره الذي كان يترقبها منذ خمس دقائق. "أريد أن أكلمها أمامك". قال للمدير بعد أن دخلت مكتبها. "أرجوك لا تحرجني هذا مقر عمل".

"لن أحرجك، فقط أريدها تعرف أنني جاد حين يكون الحديث أمامك". وهز المدير رأسه متأففا "حسنا سأتصل بها". حين دخلت المكتب أشار إليه "تكلم، ها هي أمامك". "أنا لا أريد أن أذهب لوالدك وشقيقيك وأنت غير موافقة وأردت أن أقول لك أمام هذا الرجل الطيب أنني جاد بطلب يدك". صمتت قليلا. "هل تسمح لي أن أذهب وأشرب قهوتي وسأرد عليك بعد ذلك". تهلل وجهه، وابتسم المدير الذي أجاب "بالتأكيد آنسة رشا تفضلي". خرجت والرجل يكاد يقفز من الكرسي فرحا. "أرأيت؟". "أنتم التجار تحصلون على ما تريدون من الفقراء والأغنياء". قال المدير الذي طلب له عصير برتقال طازج كما أمر. جلست إلى مكتبها تضحك وهي تضع رأسها في كفيها "يا إلهي، لم أر رجلا ثقيلا وسخيفا كهذا الأهبل". شربت قهوتها وكتبت ورقة صغيرة وطوتها. طلبت من الفراش الآسيوي أن يأخذها للمدير الذي فتحها ليقرأ كلمة بخط القلم العريض. "لا".

خرج الرجل من المكتب غاضبا دون أن يودع المدير الذي ابتسم وهو يقول "أجمل ما في الأغنياء جرأتهم على بعضهم البعض". مر وقت طويل لم يعد فيه إلى الفرع وكان يتصل بالمدير إذا كان الأمر ملحا. وحين يتصل بها المدير لإنهاء معاملة له "لقد أوقفت زياراته لي وربما سينهي صداقته معي". ويحمر وجهها ولا ترد.

الذي لم تتوقعه أنها في الأيام التي تمنت زيارته لها جاء يحمل ابتسامته البلهاء وهدية وضعها في ظرف من أظرف المعاملات التجارية. لم يمر مدير الفرع. جاء مباشرة إليها. "أهلا" قالت ببشاشة استغربها الرجل. كان وجهها متهللا رغم أنها أطرقت برأسها خجلا لبعض الوقت. "أين كنت؟ لم أقصد أن أجرحك". "لا عليك" ثم وضع المغلف أمامها وهي تطلب له قهوته. "ما هذا؟" "يمكن أن تري بنفسك". فتحت المظروف لترى علبة مستطيلة من المخمل الأزرق. "ما هذه؟" "افتحيها. فتحت العلبة لترى عقدا من الألماس تنعكس زرقته تحت وطأة الضوء المركز عليه تماما. كادت أن تردها. الا أنها امتلكت ردا مغايرا لقناعتها. "هكذا يكون تقدير الرجل المحترم للمرأة". يود أن يفرك عقله بيديه لو يستطيع. هل هذه اليوم هي التي كانت هنا بالأمس. من يترك فرصة كهذه تضيع منه. "أفهم أنك موافقة". "لا أرد رجلا يصر علي كل هذا الإصرار". كاد أن يقفز من مكانه "أرجوك نحن في مكان عمل". وحين رأت دمعتين تتحركان في عينيه دون أن تسقطا أشفقت على نفسها وعليه. "متى.. يمكن.. هل". قدمت له زجاجة الماء التي تحتفظ بها خلف مكتبها. "اشرب ولا تقلق سيسير كل شيء كما تريد". كان ريقه قد جف وأحس بأن حلم أي رجل في الحياة أن تكون له زوجة بجمالها وأخلاقها وصلابتها أيضا.

هدأ فرحه الذي ضج بصدره وسألها باتزان نوعا ما "متى

أتقدم؟" لم يتكلم أكثر خشية أن يتلعثم ثانية. "سأخبر أهلي وأتصل بك". لم يكن يود الانصراف حتى طلبت منه ذلك. "يجب أن تتركني أعمل الآن". "طبعا، تعملين، أنا أقدس عمل المرأة". ونهض وهي تضع يدها على فمها كانت تود أن تضحك بصوت عال.

"أريد أن أتزوج". لم تكن تعتبر تلك الجملة التي قالتها لأمها وهي تضع مفاتيح سيارتها على الطاولة الصغيرة في الصالون حيث تجلس أمها تتشاجر مع خادمتها على أمر ما. "اسكتي أنت". "لا. أقصد فعلا ما أقول سأتزوج". "تتزوجين من؟" "أتزوج رجلا؟" وغضبت الأم وشتمت الخادمة التي تقف أمامها وشتمت زوجها لأمر لا تعرفه رشا ثم التفتت إليها "أعرف أنه رجل وليس بغلا كأبيك". "ما به أبي؟ دعيه وهمومه". "لو كان يهتم فعلا لما بقي حتى الآن في مقاهي السوق كصائع بلا منزل، قلت تتزوجين رجلا ها". ونهضت رشا وهي تدور حولها فرحا لم تقدر الأم الغاضبة إن كان حقيقيا أم مصطنعا "نعم. سأتزوج رجلا بملء جيوبه" وهي تقترب منها وتشمها بقوة في عنقها. فجأة تركت الأم غضبها جانبا وكأنها تتحكم به بمقدرة خارقة وبهدوء غامض "اجلسي" وأجلستها إلى جوارها تكاد تلتصق بها وكمن تسرّها شيئا رغم أن لا أحد سواهما في البيت. "هل أنت جادة؟". "نعم جادة، تقدم اليوم إليّ رجل بعد أن جعلته يعاني من ألم المفاصل".

"رشا" وهزتها بعنف "والذي ضاعت حياته بسببك، انتهى هكذا فجأة". "هل نعرف شيئا عنه الآن، ماذا يفعل؟ من تنام إلى جواره، كانت قصة وانتهت". نهضت الأم غاضبة. "مابك ماما؟" "ما بي لا تعرفين ما بي ولن تعرفي ما بي، اذهبي لأخيك يزوجك. ألم تتفقي معه". "لا تغضبي مني! يجب أن ينتهي، كل شيء نهاية ما". "لا أفهم كلامك هذا، أفهم أن المرأة أيضا تربطها الكلمة، ولم يجبرك أحد على شيء".

أحست رشا بسعادة غريبة، تمنت لو كانت أمها الرجل الذي يقرر مصيرها ويمتلك أقفال قراراتها. صعدت خلفها إلى غرفتها.

العريس الذي قدمته رشا إلى والدها وشقيقها دون أن يهتم شقيقها الآخر في الأمر كعادته، جاء زائرا في موعد ضربه الأخ العقيد الذي تعرف إليه وجها لوجه بعد أن كان يعرفه اسما من أسماء المال والعقار. كان سعيدا باختيار شقيقته ولم ير سببا واحدا يجعله يرفض عريسا كهذا. ورغم أنه جاء بمفرده مصطحبا صديقه مدير الفرع إلا أن ذلك لا يبدو ذا أهمية. والحقيقة أن الرجل ليس له أحد سوى شقيق يعمل دبلوماسيا في سفارة، وشقيقة تدرس في البلد الموفد إليه.

تم كل شيء بسرعة فليس من عائق يعطل الزواج سوى طلب رشا أن تستعد لليلتها كما يليق بها وبه ولم يمانع. أحس العقيد أن كل ما فعله لم يكن سوى الصواب عينه. قبّل أخته وأعطاها مفتاح شقة لندن "هذه هديتك" لم يكن لها أن ترفض. ولم ينس أن يطلب رفع منع السفر عنها قبل أن تكتشف وعريسها ذلك، حين قرر أن تكون هدية شهر العسل أيضا منه.

كانت حفلة الزواج صاخبة كعادة أصحاب المال في زواجاتهم، ورشا تحاول أن تبدو عروسا محايدة التعابير، تبتسم باقتضاب متى دنت منها زميلة مهنئة وواجمة متى سنحت لها فرصة أن تلهو عنها الأخريات الأكثر فرحا منها بفرحتها. بدا المطرب الذي يغني للنساء من خلف ستارة تفصله عنهن حماسيا، أكثر مما يجب، وهو يغني الأغنية الأخيرة التي تزفها للغرفة المحجوزة للعريسين في ذات الفندق.

حين اختلى بها عريسها حاول أن يتودد لها، مسد على شعرها وأمسك بيديها لتنهض كي تستبدل ملابسها بما يناسب عرسها. "هل تسمح لي الليلة أن أنام أشعر بمغص حاد في معدتي". فكر قليلا ولم يمانع. وأكملت "يبدو أنني..." "لا عليك. ارتاحي أمامنا عمر طويل". حاول أن يقبّل شفتيها فخفضت رأسها لتأتي قبلته على أنفها. في الصباح أحضر

لها الإفطار على سريرها "كيف المغص الآن" ابتسمت بوجهه "لا عليك سينتهي في موعده". زارتها أمها في أول الظهيرة وحزمت معها حقائبها لتغادر إلى شهر عسلها في لندن رغم أن الزوج كان يفضل أن يتم ذلك حسب رغبته هو لا رغبة العقيد الذي رتب كل شيء.

الذي ليس لرشا أن تتكره أن الرجل كان ودودا جدا، يحيطها بحنان أقرب إلى الأبوة. يحاول جاهدا أن يرى فرحة في عينيها كفرحته بها ويحيل كل هذا الضيق الذي ينتابها إلى المغص اللعين الذي أفسد عليه ليلته المرتقبة، وربما سيفسد الليالي القادمة أيضا.

"هذه الشقة صغيرة، تستطيعين بيعها وسأشتري لك بيتا في الريف الانجليزي بعيدا عن ضجيج هذه المدينة العجوز". وابتسمت وهي تفتح حقيبتها وترتب ملابسها "سأفعل وسأترك لك اختيار البيت". نامت تلك الليلة وحيدة في غرفتها كما طلبت وحين رفض قالت "لا أريد أن أكون بجانبك وأنت تريدني، سآتي إليك حين أكون جاهزة".

حين عادت، كان يجلس وحيدا في الصالة يتابع التلفزيون ويشرب قهوة أعدها لنفسه. "أين كنت؟". "ذهبت لأشتري أشياء نسوية". هزّ رأسه دون أن يهتم كثيرا. دخلت

غرفتها خبأت أوراقها في حقيبة داخل حقيبتها. "أريد أن نذهب من هنا". "لماذا؟" "لن تنام معي في فراش أخي".

انتقلا إلى أحد فنادق الدرجة الأولى. أغلقت شقتها وغادرت. كانت تبدو متعبة وبدأ الملل يتسلل إليه. "سأخرج لأتنزه في المدينة" "أنتظرك على الغداء". "حسنا" وخرج. حين عاد بعد ساعات لم تكن هناك. حجزت تذكرة سفر إلى أوتاوا وأمضت يومها في فندق المطار حتى موعد رحلتها.

رغم المحادثة الغريبة التي جرت بين فهد غانم والعواد حول قرار رشا أن لا تتصل به أو يتصل لم يدر في ذهن العواد سوى أن رشا تدبر شيئا، وما لا يعرفه فهد غانم أن الرسالة التي بعثتها إلى العواد قبل طلبها هذا كانت واضحة "سأكون معك قريبا، فقط سنتوقف عن المكالمات ليسير كل شيء كما خططت له". وهو لا يعرف الآن إذا ما كان بحاجة إليها كامرأة أو زوجة أو سلاح وحيد يمتلكه لهزيمة غريمه. كان يتخيل أن ثأره الوحيد من العقيد يتمثل في أن يضع قدميه على الطاولة أمامه ويطلب من ابنه القادم أو ابنته أن تقبّل رأس خالها. أن يقول له لقد انتصرت عليك وهذه المرأة التي تحمل دم أبيك ومنيّه هي زوجتي التي تحمل دم أبنائي ومنيّهم. ستأتي رشا، كما وعدتْ، أما كيف فهو لا يعلم.

الفصل السادس

أثر الفتنة

حين عاد ليلة الجمعة من عمله كانت الساعة الثانية صباحا، ولم ينم عميقا حين أيقظته ستيفاني، في الخامسة صباحا، ليستعد للرحلة التي اتفقا على القيام بها إلى شاليه أسرتها على بحيرة ضاحية "بيرث". اغتسل وارتدى بنطال جينز وقميص "Polo" وقبعة عليها علامة فريق اليانكي. وضع ملابس داخلية وملابس السباحة وأشياء ظن أنه سيحتاجها وحمل عوده وخرج. كانت تنتظره عند مدخل البناية ترتدي شورتا أبيض سميكا من قماش الكتان يصل منتصف فخذيها وتشد قميص الكاوبوي حول خصرها وقد ضفرت شعرها جديلة سميكة أخرجتها عنوة من فتحة قبعة البيسول تاركة طرفها يتدلى تحت الحقيبة حتى يكاد يلامس أول مؤخرتها. حين وقف إلى جانبها كانت أطول من ال 175 سم التي تحدد قوامه منتصبا. تنتعل حذاءها ال FILA الرياضي. سار إلى جوارها، وكلما تقدمته نظر إلى قوامها المشدود ولون الجزر والبرتقال المتماوج على فخذيها. كانت تلك المرة الوحيدة التي ينظر إليها بشغف الرجل وشهوته التي بدأت تستعر في داخله مفتونا بها ومهووسا بلذتها التي كلما سرت في هواء دمه تذكر فهد غانم وضحك بينه وبينه. كان يهم لو

داعبها وربت على مؤخرتها مازحا تحت أي ذريعة غبية ولكنه يتردد. وهو يقول لنفسه "لا أريد أن أخسرها". تاركا لها المبادرة التي يبدو أنها لن تأتي.

توجها إلى محطة الباصات. ركبا أحد باصات "جري هاوند" العملاقة بعد أن تناولا إفطارا خفيفا وقهوة فرنسية وحملا زجاجتي ماء للطريق. كانت تجلس إلى جواره ويشم عطر الصابون الانجليزي الذي تستخدمه وهي منشغلة بكتاب وهو منشغل بلاشيء. "لماذا لا تقرأ؟" ولم يجد ردا. لم يكن يقرأ سوى بعض كتب الموسيقى وتاريخها وهي كتب لم يعد يمتلكها. "هل تريد كتابا، معي كتاب كنت سأقرأه الليلة بعد أن أنهي هذه الصفحات". "لا شكرا". عادت إلى كتابها وانقطع الحديث بينهما فاكتفى بإطلاق بصره على مناظر حوله بدت عيناه تعتادها وهو يترنم بسامرية قديمة كاد أن ينساها ويحاول أن يتذكرها.

كانت الرحلة إلى قلب الضاحية أقل من ساعة تقريبا، غادرا الباص في محطة صغيرة على الطريق. لا شيء في الضاحية سوى بعض المحلات ذوات الدور الواحد وفي هذا الوقت المبكر من السبت ليس سوى بعض كبار السن يجلسون على كراسي مقاهي الرصيف ينتظرون من يبادلهم حديثا عن أشياء فعلوها في حيواتهم وندموا على فعلها لسبب

ما.

كانت ستيفاني تنظر إلى ساعتها بين وقت وآخر، كمن تتأكد أن الوقت هو فعلا ما تشير إليه. ولكي تطمئن "كم ساعتك؟". "السابعة وعشر دقائق". "بالضبط وعشر دقائق". رفعت نظرها إلى أول الشارع رأت سيارة فولكس جيتا بيضاء قادمة من بعيد. "ها هم". لم يترجل أحد لتحيتهما أو استقبالهما بقي السائق الشاب والفتاة التي بجواره في أماكنهما. ركبت ستيفاني في المقعد الخلفي وطلبت منه أن يركب إلى جانبها بعد أن وضعت حقائبهما في الصندوق الخلفي. "ماكس" أشارت للفتى "بريندا" وهي تحرك يدها جهة الفتاة. "غانم" وهي تشير إليه "شريكي في السكن وهو موسيقي شرقي أيضا" ويبدو أن الصفتين لم تلقيا اهتماما. وليس أكثر من كلمة "هاي" جافة. تحركت السيارة مسرعة على طريق في الريف تفصل بين حقلي ذرة وشوفان والهواء المحمل برائحة خضراء يعبث بنوافذ السيارة. حين هبطت السيارة منخفضا رأى العواد منظرا ربما لم يره إلا في اللوحات التي يرسمها الفنانون ويطبعها البعض على بطاقات المعايدة. كانت البحيرة قطعة من سماء سقطت على الأرض تحيط بها أشجار من جهاتها الأربعة وكلما انحدرت السيارة إلى الأسفل فقد المشهد جاذبيته.

سارت السيارة في طريق ضيقة ربما لا تتسع لسيارتين باتجاه البحيرة وانتهت الطريق إلى شاليه كبير حوله ثلاثة أكواخ صغيرة تطل جميعها على البحيرة النائمة بهدوء تترقرق صفحتها كسطح مصقول من الماس الأزرق. توقفت السيارة، وسار الأربعة نحو الشاليه المشيَّد من جذوع الأشجار المرصوصة بعناية، وله سقف مثلث من الأخشاب المستوية تعلو السقف مدخنة بطول متر تقريبا. وحين دخلوا الباب المصنّع حديثا بالنسبة للشاليه الأثري لم يكن في الصالة، الواسعة والمفروشة بالخشب الصلب تتناثر فوقه بعض جلود الحيوانات، سوى امرأة مسنة من السكان الأصليين بدت جميلة ووقورة وهي بكامل زينتها في الصباح، أمامها إبريق قهوة وبعض قطع الخبز والزبد. ركضت ستيفاني نحوها واحتضنتها بعد أن فتحت المرأة ذراعيها لتضمها إليها. تبدو المرأة طويلة وترتفع قامتها وهي جالسة. فرقت شعرها الخفيف من الأمام والكثيف من الخلف حتى بدا يلامس الأرض. "غانم" قالت ستيفاني بعد أن حررت نفسها من حضنها. "كاليسكا" قالت، وهي تشير إليها. اقترب غانم منها أحنت رأسها تحيةً له وفعل الشيء نفسه. "أهلا بك" قالت بصوت خفيض. "اجلس!" أشارت إليه فجلس على كنبة حديثة أمامها وتأمل كرسيها المصنوع من الخشب والفراء. كان يتأمل وجهها وكأنه رآه سابقا في خيمة من خيام الهنود الحمر في أحد الأفلام، كانت

التجاعيد واضحة على وجهها ورقبتها؛ لكنها تحتفظ بصلابة قاسية.

جلس الأربعة حول العجوز وانشغل ماكس برفيقته التي قالت ستيفاني أنها إبنة عمتها وبدت العجوز تسأل غانم عن الأرض التي قدم منها والأرض التي قدم إليها. "أين والديّ؟" قالت ستيفاني فردت العجوز "ذهبا يتمشيان في الغابة". نهضت وهي تقول لغانم "تعال لأريك البحيرة في الصباح". خرجا إلى البحيرة عبر الممر المرصوف بالأحجار الطبيعية حتى ضفتها، وسارا حولها ثم صعدا إلى الهضبة التي انحدرت منها السيارة قبل قليل ليطلا على البحيرة من أعلى، فاختفيا بين الأشجار الباسقة. "إذن، هي كاليسكا التي سُميتِ باسمها". هزّت رأسها موافقة. "هي القيّوط الذي طارد غزالا". قالت إن جدتها كانت في العاشرة، أو أكثر قليلا، حين طاردت أول صيدها، وكان غزالا صغيرا عادت به مصابا بحربتها إلى والدها، فأطلق عليها الاسم؛ ثم أطلقه عليَّ أبي لقبا بعد اسمي الأول الذي أسمتني به أمي الأسكتلندية. "هل طاردت غزالا في حياتك؟". نظرت إليه، وحين رأت أنه غير جاد في سؤاله لم ترد. سألته "وأنت هل طاردت غزالا في حياتك". "ليس بعد ولكني على وشك أن أفعل". وقالت مازحة "أستطيع أن أساعدك، هنا الكثير منها خلف هذه التلال". "لا هذا غزال صحراوي لا يعيش هنا". "حسنا حين تعود إلى

صحرائك طارده". "سأفعل".

بلغا المرتفع وجلسا على حجر رمادي ضخم. أطلا على البحيرة والشاليه والأكواخ الثلاثة. "ما هذه الأكواخ؟". "سنسهر اللية في أحدها وتنام فيه" كان يود لو قالت سننام فيه الليلة. لم يكن في هذا الهدوء الرائق وهذه الأرض البكر التي لم تشوهها المدنية إغراء أكثر من التماهي معها. أن تعيش عالما افتراضيا لا تستطيع أن تقبله أبدا ولا أن تتخلى عنه، عالما تلجأ إليه حين تريد أن تكون مع ذاتك فقط. "كلما جئت هنا جلست لوحدي أصنع عالمي السابق، والذي لم أعشه كاملا. هنا أرى قبيلتي وأطفالها وأسمع لغتهم وأعتقد أنني أجيدها. أرى جدي يدخن البايب كطقس ديني للخالق الذي منحنا الأرض". ثم مدت يدها إليه كي يساعدها على النهوض. في الطريق وهما ينزلان المرتفع قالت "أنا في وطني ولا أشعر أنني في وطني". ثم نظرت بعيدا في عينيه دون أن تترك يده "غانم كيف ترى نفسك بين وطنين؟". فكر قليلا "أنا طفل أمه بكماء وصماء لا يسمعها ولا تسمعه ووالده أعمى لا يراه". توقفت ثم احتضنته ملصقة جسدها بعنف إلى جسده.

في عودتهما إلى الشاليه التقيا بوالديّ ستيفاني. والدها بضفيرة طويلة مربوطة إلى الخلف، له عينان سوداوان وبشرة بلون التراب الطازج تميل إلى الحمرة، ووالدتها بيضاء

كالحليب شعرها أسود قصير حتى أذنيها. رحبا به وصافحه والدها بينما احتضنته أمها كزوج ابنتها القادم. ترافق الأربعة، يسبق الأبوان خطواتهما حتى الشاليه. جلسا على مصطبة بارتفاع متر تقريبا تطل على البحيرة. كان ذلك آخر أيام الخريف، حيث الشتاء يعلن قدومه بخجل.

يبدو أن ستيفاني قالت قصته كاملة لذويها، وأبدى الأب تعاطفا معه، يحدثه بلطف بالغ وتبتسم أم ستيفاني كلما التقت بعينيه. نهض الأب ليضع إبريق القهوة على النار التي أشعلها في الجذوع الجافة. "إن ستيفاني معجبة بك جدا، تعتقد أنك رجل شجاع، وكأنك عبرت المحيط من أجلها إلى هنا". ابتسم وهو يطرق برأسه، كان يود أن يقول بأن أحدهم قذف به عبر هذا المحيط من أجل لا أحد. ولكنه قال "وأنا أودها كثيرا ومعجب بها جدا إنها إنسانة صادقة". وكان يود أن يقول إنها إنسانة مستقيمة ولم يجد مقابلا مناسبا لها بالانجليزية.

أعدت ستيفاني شرائح لحم مقدد، وأحضرت أكواب القهوة والحليب وتولى والدها أمر خدمتهم. "هل مدينتك جميلة كهذه؟" قال الوالد. "بالنسبة لي جميلة". "ما اسم مدينتك". وحاول غانم أن يقولها بطريقة يسهل على المستمعين حفظها "جهرا" ورددها الأب بسرعة "جهرا" يبدو أن اسمَها جميلٌ. ثم أردف "وهل بها نفط أيضا". "لا إن حياتنا هناك تشبه حياتكم

السابقة هنا". وضع الأب كوب القهوة أمامه وجلس وهو يقول "لم تعد لنا حياة يا بني". ورمقته الأم بنظرة حادة، ولكنه تجاهل النظر إليها. "أنت تعزف، أليس كذلك". "نعم". نهضت ستيفاني "سأحضر العود". "تعزف العود. سمعته مرة في تورنتو، يبدو أن الذي يعزفه حينها لم يجد العزف". جرد العود من جرابه، وانحنى فوقه يدوزن أوتاره فبدا لهم ذلك جزء من الفن الذي ينتظرونه. عزف مقطوعته التي ألفها في أوتاوا. وللمرة الأولى ينتبه أن صدى اللحن يعود من البحيرة مبللا بالندى. ران الصمت على الجميع وكأن الأب يستمع إلى تراتيل كنسية اجتمع إليهم ماكس واقفا واستندت بريندا على قوامه، وأطلت كاليسكا من النافذة تاركة أذنها جهة المصطبة. حين انتهى صفقوا له تصفيقا خفيفا وقال الأب "يبدو أن الذي عزف عليه في تورنتو كان أكثر جهلا مني به يا بني، أنت "ماستر". وقالت بريندا دون أن تغير ميلانها على جذع ماكس "هل تغني؟". فضحك غانم "لا، صوتي بشع".

المشهد الذي لن ينساه غانم هو مشهد الغروب خلف البحيرة، وقد بدت الشمس حانية كقمر برتقالي كبير، تلألأت على سطح البحيرة المقابل؛ وكأنها ستيفاني تستحم بكامل عريها أمامه. في المساء بدأ الجو يبرد قليلا فدخلوا الشاليه يتحدثون عن ثلاثة أديان وثلاث حضارات وثلاث قارات وثلاثة آلهة. وكلما سئل عن دينه أجاب وهو يضحك في

سره. كان يتصور لو أن فهد غانم تحدث عن الاستقامة. ورغم تباين الآراء حول وجود الله والأنبياء ومحاولات إثباتها وإنكارها إلا أن النقاش كان لطيفا ومهذبا. أنهته ستيفاني قائلة "يجب أن تؤمنوا بالإنسان أولا ثم فكروا بمن خلقه".

تولى الأب شؤون النبيذ وهو يقول "هذه الزجاجة أحتفظ بها لضيوفي الأجمل وأنت ضيف جميل وفنان، وكلما صب له كأسا طلب منه أن يعزف له شيئا يقتل به النقاش الذي تمادى في العقم. وفي التاسعة مساء تحديدا أهداه الأب زجاجة نبيذ "أكمل سهرتك بها، ليست أفضل من الأولى ولكن لا بأس بها" ونهض الأب وزوجته إلى الطابق العلوي، وهو دور مفتوح تطل أبواب غرفه على الصالة المرتفعة والمزينة كمُتحف من العصور القديمة. كانت كاليسكا قد نامت قبل ذلك الموعد بكثير وقبيل منتصف الليل نهض ماكس وبريندا إلى كوخهما بينما نهض هو إلى الكوخ الذي قالت ستيفاني ستنام فيه.

كان الكوخ عبارة عن غرفة صغيرة لها شباكان عريضان متقابلان وشبك على كل منهما يمنع البعوض والناموس وحشرات الصيف والماء عنه، وكان الشباكان مفتوحين. وقد ارتفع في آخره سرير عريض عليه مرتبة ووسادة وبه كنبة صوفا واحدة أمامها طاولة صغيرة. وعلى عكس ما توقعه كان

باردا يدخله نسيم البحيرة. وضع زجاجة الخمر والكأس على الطاولة وأسند عوده تحت أحد الشباكين وجلس يكمل سهرته وحيدا.

دخلت ستيفاني الكوخ الثالث وأبدلت ملابسها لترتدي قميصا حريريا ناعما يصل إلى ملتقى فخذيها تقريبا ويكاد يكشف عن كامل استدارة نهديها فترفعه كلما برزت إحدى حلمتيها للخارج، و"شورت" حريريا عريضا لا يكاد يستر مؤخرتها. تمددت على سريرها بنصف وعيها. حين بدأ يعزف وضعت خفي الفرو في قدميها وتسللت إلى كوخه. لم تطرق الباب الموصد. كانت تراه من الشباك تحت الإضاءة الناعمة التي تتدلى بسلك من السقف المرتفع لثلاثة أمتار تقريبا، وكان الظلام يلف المكان.

"ستيفاني" قال بصوت غامض كمن يتظاهر بأنه لم يرها وهي تسير نحو مخدعه. "سأسهر معك". صب لها كأسا وهو يقول "لا كأس أخرى هنا". "لا عليك سنشرب من كأس واحدة". كانت تلتصق به وتلقي برأسها على كتفه وقبل أن تنتهي الزجاجة قالت "قبّلني في عنقي". عرف أنها تريده وأن كل ما خططت له في هذه الرحلة هو أن تنام معه هنا في مسكن عائلتها المؤقت. قبّلها بشهوة حارقة أحست بأنها تفقد إتزانها. أرخت يديها فجردها من قميصها الخفيف وشورتها

القصير وأصبحت عارية تماما فأحس برهبة اكتمال الجسد الأنثوي، ظهرها الطويل، عجيزتها المرتفعة، عن مستوى خصرها النحيل وأول فخذيها، ساقاها الطويلتان. حين نامت على بطنها. لاحظ وشم رأس القيّوط في أسفل ظهرها قريبا من ملتقى ردفيها؛ وقد فتح فمه كمن ينقض على غزاله. لمعت من الوشم عينان تشبه عيناها. لم تتحرك. تجرد من ملابسه. "نم إلى جانبـي فقط". ولكنه لم يهتم بكلمة "فقط". أحست به يضغط بقوة إلى داخلها قالت بصوت ضج في فضاء الكوخ. "لا يا حيوان!". حاولت أن تفتك منه كان قويا فوقها يضغطها إلى الأسفل بكل قوته. ربما تلك طريقتها في المتعة، لكن صوتها تحول صراخا عنيفا ملأ صداه أفق البحيرة. أجفل منه ولم ينهض عنها حتى دفعه ماكس إلى الأرض وخرجت عارية تركض إلى كوخها تضع قطع قماشها المبعثرة بين فخذيها. أرسل ماكس بريندا كي تتصل بالشرطة وهو يمسك به كمن يمنعه من الهرب. "لم أقصد... هي كانت...". "اخرس يا غبـي، أنتم لا تفهمون المرأة الغربية، مجموعة من الوحوش". خرج والداها والعجوز كاليسكا يتابعون ما يحدث وهو يتمنى لو ألقى نفسه غريقا في هذه البحيرة. لم يتحدثوا معه ولم تخرج إليهم ستيفاني.

في أقل من ربع ساعة كانت سيارة الشرطة تقودها امرأة ضخمة البنيان، ويرافقها رجل أطول من الجميع هنا، كبّل

يديه وألقى به في المقعد الخلفي وهو يضع رأسه بين كفيه لا يستطيع أن ينظر إلى أحد. انتهى المشهد برحيله إلى مخفر المدينة وقبل أن يبزغ الفجر تم نقله إلى مركز الشرطة في مدينة إقامته على أن يعرض صباحا على وكيل النيابة.

الفصل السابع

نبوءة النهايات

- 1 -

حين عاد زوج رشا إلى الكويت وحيدا غاضبا تفور الدماء في رأسه، لم يجد أمامه سوى العقيد اليزاز ليصبّ جام غضبه عليه. حاول العقيد أن يهدئ من غضب الرجل الساخط وهو في مقر عمله أو أن يدخله مكتبه إلا أنه رفض. "سأفضحك أمامهم وأفضح أمك وأختك العاهرة". لم يجرؤ العقيد على أن يتطاول على رجل يعرف أن بمقدوره أن يتطاول عليه. كان يردد بصوت خجول وهادئ وقد اجتمع ضباط وأفراد مقر عمله حول الرجل. "أرجوك تعال معي". "أريد أن يعرف الجميع من أنت ومن هي أمك وأختك التي هربت ليلة زفافها إلى عشيقها الذي لا أعرف أين هو ومن هو". طأطأ العقيد رأسه وهو يرى ابتسامات زملائه من حوله. كان يود أن يهرب من الموقف إلا أن ذلك كان أيضا ذلا يضاف إلى إذلاله. يفكر جديا بأن يفرغ سلاحه في رأس الرجل وينهي نفسه برصاصة مماثلة ولكنه لم يجد بأسا يساعده على ذلك. خارت قواه وهو الآن لا يستخدم حكمة متوارثة عن جد حكيم. لم يكن أمامه سوى أن يغادر المبنى

نهائيا يتبعه رجلاه ويحيط المتواجدون بالرجل ليسمعوا تفاصيل الحكاية.

ليس له أن يعرف أين هي الآن ولكنه يعرف أنه لن يعود إلى عمله حتى إذا عاد بها إلى هنا. "لقد أنهتني هذه...".

دخل على أمه قبل أن يذهب إلى بيته والدماء تضج في رأسه. "ضيعتني هذه العاهرة". يراها تبتسم. "كيف؟" ويرى برودة أعصابها وسخريتها "هل تعرفين أين هي الآن؟" وكأنها فعلا لا تعرف عمن يتحدث "من تقصد؟ من هي العاهرة". "أين ابنتك الآن؟" "أين ابنتي، مع زوجها". نظر إليها بما يشبه الاحتقار وخرج. هو يعرف أنها لن تقول شيئا، ويعلم أنها تعرف كل شيء. دخل بيته، لم يكن أحد سوى العمالة الآسيوية، صعد غرفته خلع بزته العسكرية وعلقها على المشجب وجلس على كرسي في غرفته وهو ينظر إليها، إلى الشخص الذي كان بها والشخص الذي خرج منها.

"أين هي الآن؟ لا بد أنها معه، لقد انتصر علي". وضحك بهستيريا وما زالت الدماء تغلي في عروقه. "ستأتي إلى هنا، لابد أن تأتي إلى هنا".

- 2 -

كانت سيارة السجن تقل غانم إلى المحكمة ذاتها التي منحته حق الإقامة وهو يعرف أنه لن يواجه ذات القاضية التي تعاطفت معه، وربما سيكون الأمر أكثر سوءا الآن. حين أدخله الشرطي على وكيل النيابة رأى المحامي الذي انتدبته له المحكمة وزاره في التوقيف والذي طلب منه أن يوقع خطاب الاعتراف. وكانت إلى جانبه ستيفاني وحيدة لا يرافقها أحد. سلم العواد الخطاب للمحامي الذي نهض من مكانه بعد أن مزق الخطاب، وحمل حقيبته وهو يهم بالمغادرة قال "لم تعد بحاجة إليه".

نهضت ستيفاني نحوه وببعض الحزن الذي لا يبدو مفتعلا احتضنته "آسفة فعلا" قالت. لم يفهم مالذي يجري طلب منها وكيل النيابة أن تغادر معه وأن تغلق القضية كأنها لم تكن. "آسفة". بحثت عنك منذ البارحة لأعتذر منك. "لقد أرسلت لك من السجن رسالة اعتذار". "ستصلنا في البيت نقرأها ونضحك". عادا الطريق سيرا حتى الشقة. لم يتحدث

كثيرا. كان سعيدا بأن الأمور انتهت هكذا حتى وإن لم يفهم كيف انتهت هكذا.

أخبرته أنها تحبه وغفرت له ما فعله لأنها كانت سببا مباشرا فيه. "هل كنت تقصدين أن تنامي إلى جانبي عارية دون رغبة بي". "نعم كنت أقصد". "حين أريدك أنا سأقول لك مباشرة". وضحك دون صوت "لم أكن أفهم". "كنت تفهم ولكنك عرفت عاهرات لهن لون بشرتي ولم تفرق جيدا بيننا". قالت له وهي تقبّل شفتيه بحرارة "أحببتك حين وضعت يدك على جبهتي وأنت تهتم بي في مرضي، كنت إنسانا حقيقيا". ولأنه كان سيفعل ذلك حتى لو كان الذي يسكن معه شابا لم يفهم. لكن القبلة ألهبت شفتيه وكان ينتظرها أن تقول له أنها تريده مباشرة. انتهى الخريف كاملا واقترب الشتاء ولم تقل.

في ديسمبر، وبعد أعياد الميلاد التي رفض أن يذهب فيها مع ستيفاني إلى أهلها للإحتفال بها رن هاتفه ليسمع صوت رشا في مكالمة داخلية "أنا في مطار أوتاوا". ألقى الهاتف على السرير وركض دون أن يهتم بملابسه خارج الصالة وهي ما زالت تتحدث. عاد ثانية إلى الهاتف "أنا في الطريق. أقل من ربع ساعة وأكون معك".

لم يكن يرى في الطريق إليها صورتها أو الهيئة التي سيراها عليها، كان يرى وطنا كاملا سيلتقيه في المطار. سيلتقي بأيامه التي تركها هناك، سيرى والديه وفهد غانم ومجانينه الأربعة، سيسمع في صوتها ضجيج فرقة بيت الفن، ومشاوير باص 103 وصوت محركه الذي يبعث على الغثيان. فكر أن يحملها على كتفيه ويدور بها صالة المطار الأصغر والأجمل في العالم. سيدس أنفه في ملابسها مستعيدا هواء البلاد المشبع بالرطوبة الخانقة ورائحة غبار الجهراء. حين توقف أمام المطار في الموقف المخصص لسيارات التاكسي. طلب من أحد زملائه أن ينتبه لسيارته حتى يعود.

ركض مسرعا يتلفت إلى كل جهة محتملة وحين رآها متوقفة بجانب حقيبتها ذهب بعيدا في عينها ولم يفعل شيئا من كل ما تخيل أنه سيفعله. "رشا". نظرت إلى وجهه. حين احتضنها جفلت. لم يكن هو. كان في عينيه حب آخر ليس لها أن تخطئه. لكنها تجاهلته وهي غارقة بدموع فرحة بدت تتضاءل. أخذها إلى فندق "الويستن" في قلب العاصمة. حجز لها غرفة وصعد معها. حاول أن يقبلها. "لا أرجوك، ليس الآن". "ما بك؟" "لاشيء ولكننا لا نحتاج لارتكابه الآن". فهم أنها تريد إطارا شرعيا لعلاقتها معه. "أعرف ولكن بقيت لي مهمة يجب أن أنهيها أولا، وبعدها القرار بيدك". وخرج على أن يلتقيها مساء على العشاء.

اتصل بفهد غانم. "نعم هي هنا ولكن الأمر لم ينته بعد". "ماذا تقصد؟" "أريده هو". "تريد من؟" "أريده هنا، لا بد أن يأتي إلى هنا". "تزوج حبيبتك هناك وانس أمره".

لم يقتنع العواد. "هذه آخر خدمة أطلبها منك". اتفق معه أن تتصل إحدى فتياته بالعقيد لتقنعه بأنها صديقة رشا وأنها تعرف أنها مقيمة في "الويستن" في العاصمة الكندية حيث تقيم مع حبيبها. "تأكد من المطار متى سيخرج". "وكيف عرفت أنه سيخرج". "لا تعرفه كما أعرفه. سيخرج".

الفصل الأخير

القيامة

أعيش مع رشا حالة حب قديمة، حب الأشياء التي فقدتها وأريد أن أحتفظ بها كما يصر المرء على الإمساك بتاريخه، وأعيش مع ستيفاني حالة حب جديدة، حب الأشياء التي أصنع منها تاريخي الجديد. ما تراه الأولى في عيني تعرف أنه ليس ما تركته في عيني هناك ولا أستطيع أن أخدعها. ولن أستطيع أن أخدع نفسي وأدعي أن بإمكاني الجمع بين هذين الحبين. حين وصلت رشا كانت شجرة انتقامي تنتصب قائمة بداخلي. سأترك قرار الاختيار لها. لم يعد خياري. لو قبلت أن تبقى معي فعلي أن أتوقف عن بناء أي شيء هنا. سأترك ستيفاني وأترك المدينة إلى مكان آخر حتى أتمكن من العودة إلى أيامي التي أعادتها رشا معها. ولا أظنها ستقبل. سأفعل ما يجب أن أفعله، ما كان علي أن أفعله وهو يهوي بيده على وجه والدي ليترك صوت كفه يضج بداخلي، ذلك الصوت الذي يعادل كل عذاباتي التي رأيتها بسببه. الصوت الوحيد الذي بمقدور أذني المعاقة أن تسمعه بدون آلة السمع التي تبقى مثبتة في أذني ما تبقي لي من حياة.

عدت إلى الشقة متعبا من لقاء توقعته فرحي الحقيقي بالحياة ونهاية كل ما عانيته من أجل الدفاع عنه. حين أصبحت بين يدي أشعر بأنني حققت نصرا واحدا عليه ولكنني لم أهزمه. "ما بك؟" قالت ستيفاني وهي تطوقني بذراعيها. "لا شيء". "لدي خبر جميل". ولم أهتم. جلست في الصالة وطلبت منها علبة بيرة. "الآن يحق لك أن تطلب مني". "ولماذا الآن؟" "لأنني سأتزوجك". "تقصدين أنا سأتزوجك". "لايهم نتزوج". عادت بعلبة البيرة وجلست إلى جواري. "حدثت العجوز كاليسكا وقررت أن يكون لنا حفل في الشمال حيث تقيم قبيلتنا". "ومتى قررت أن يتم زواجك بي؟". لم تحب لهجة السخرية التي تحدثت بها. نهضت إلى غرفتها. "توقعت أنك ستفرح". أكملت بيرتي وعدت إلى غرفتي. غيرت ملابسي وخرجت لألتقي رشا في الفندق.

"لم أكن أعلم أنك سائق تاكسي؟" قالت ممتعضة "وأنا لم أكن أعلم أنني سأكون سائق تاكسي". أمسكت يدي بين يديها "أعرف، لا يهم لدي مال كثير وتستطيع أن تبدأ مشروعا مناسبا هنا". "لا أعتقد". "ماذا تقصد؟" "أقصد أنني سأبقى أنا، كل ما أحتاجه هو أن أكون أنا، أنا الذي فشلت في أن أكونه".

دخلنا مطعما فرنسيا في زاوية على شارع "ليون" وحين

طلبت زجاجة نبيذ نظرت إلي دون أن تعلق في بادئ الأمر. ولكنها لم تقاوم شعورها الآن تجاهي. "حين نظرت في عينيك في المطار عرفت أنك لست أنت، تغيرت بك أشياء كثيرة". "ربما ولكن نحو الأفضل". "لا أظن". ثم تلفتت حولها وكأنها لا تريد لأحد أن يسمعها "هل تستطيع أن تضع هذه في جيبك". كانت تشير إلى آلة السمع في أذني. "لا. أريدها أن تذكرني به". "أرجوك حاول أن تنسى أريدك معي، تركت كل شيء من أجلك". كان من المفترض لجملة كهذه أن تقتلني، لكنها كانت مجرد جملة لا تحمل أي معنى. ولن أقول لها أنا خسرت كل شيء من أجلها وكأننا في مباراة هزائم نقدم هزائمنا الأكبر كي ننتصر.

حدثتني عن زواجها، وسيلة هروبها إلي، والرجل الذي تركته في غرفة في فندق ربما يبحث عنها الآن في شوارع لندن ومستشفياتها. وكنت أستمع والعقيد يجلس بيني وبينها "لا بد أن يدفع ثمن كل هذا". "اتركه، لا تفكر به". "هو لا يتركني، هو يطاردني ولا أستطيع أن أنام، أتصور أنه سينام معنا كل ليلة ليمنعك عني". وبكت. "إنك تدمر حياتنا". لا أستطيع أن أشرح لها أنه لم يحضر بكل هذا العنف بداخلي حتى رأيتها. "لا بد أن ينتهي من حياتي ولكن على طريقتي لا على طريقته".

عدت بها إلى الفندق، احتضنتني، ومسحت على خدي بيدها وهي تمر على آلة السمع وتتوقف عنها. "أرأيت؟". "ماذا؟". "لن يتركني أسمع صوته بداخلي". ودخلت غرفتها وعدت إلى البيت. "كانت هناك رسالة على الهاتف من فهد غانم. "خرج البارحة من المطار وقد يصل في أي وقت". اتصلت بفهد أسأله إلى أين خرج ويؤكد لي أنه غادر إلى لندن في نفس اليوم الذي اتصلت فيه الفتاة. "سأنتظره".

كانت ستيفاني نائمة في غرفتي حين عدت. عارية تماما وتوقعت أنها كانت ستقول لي مباشرة أنها تريدني لو أنني جئت مبكرا. لم أوقظها تركتها نائمة ونمت إلى جوارها. كان جسدها دافئا ولكنني حاولت ألا أوقظها.

هناك طائرة قادمة من لندن في المساء هذا اليوم. لا أعتقد أنه سيكون عليها وأخرى قادمة في منتصف الليل وأتوقع أنها ستكون طائرته. ولكنني لن أذهب أفتش في وجوه ركابها عن وجهه حتى أراه. أوقفت سيارة التاكسي أمام المطار وتركتها لأقف أمام الباب من الداخل. خرج جميع الركاب من البوابة، ولم يبق أحد من ركاب طائرة المساء. خرجت ثانية ولم أذهب إلى رشا. كنت أمضى ليلتي في المقهى مع سائقي تاكسي المطار. يسألني منظم الدور. "ما بك تتوقف طويلا أمام الباب؟". "أنتظر أخي وصديقي قادما من لندن ولا أعرف

موعد رحلته".

بدأت العاصفة التي نترقبها في موعدها الذي أنبأت به دائرة الأرصاد. كانت خفيفة كأنها تقوم بإحماء يسبق عنفوانها الذي بدأ في العاشرة تقريبا. توقعت أن يتم توجيه الرحلات إلى مطارات أخرى، حينها سيضيع مني، وسأضطر أن أنتظره أمام الفندق وهو ما لا أريده. كل ما جهزته يقتضي أن أقله من هنا، من أمام هذا المطار. في منتصف الليل تحديدا هبطت الطائرة البريطانية القادمة من لندن. كنت أنتظر أمام الباب أضع وشاحا على وجهي يغطي رقبتي وذقني وأرتدي كابا أسود ومعطفا سميكا. حين رأيته قادما أحسست أن فرحتي به تعادل فرحتي برشا. أن تلتقي غريمك بالنشوة ذاتها التي تلتقي بها حبيبتك. شعور لم أتوقع أن أعيشه حتى رأيته يتلفت خارجا. كانت سيارتي هي الأولى أمام الباب. اقتربت منه وحملت الحقيبة وأنا أقول بصوت أجش مفتعل "من هنا". وضعت الحقيبة في صندوق السيارة وركب في المقعد الخلفي يضع يده أمام عينيه متحاشيا ذرات الثلج الناعمة. ركبت خلف المقود وتحركت. "إلى أين؟" قلت بإنجليزية تغلب عليها لكنة هندية. "الويستن" قال. وانطلقتُ.

كان يتحدث الإنجليزية بطلاقة وبلكنة بريطانية كسكان أهل لندن، وكنت أعرف أنه يجيدها تماما. ولكنني لم أرد

عليه. كنت أضع يدي على بخاخ الفلفل لو اضطررت لاستخدامه. وأجهز مسدس الصوت تحت يدي في الدرج الجانبي للباب. متأكدا من أن يتم كل شيء كما خططت له. "لماذا لا ترد؟". سكت ولم أرد. "هل أنت أصم؟، أنا أحدثك. أنزلت وشاح الصوف عن وجهي ولم ألتفت إليه وقلت "نعم، أنا أصم في أذني اليسرى". "هل يمكن أن أدخن؟" "لا" قلت باقتضاب. "أنت من الهند أليس كذلك". ولم أرد. هززت رأسي بنعم. تجاوزت الطريق السريع المؤدي من المطار إلى المدينة وقبل أن أصل قلب العاصمة حيث يقع الفندق أخذت طريق نهر أوتاوا متجها إلى بحيرة الطين. "لم تسألني لمَ أنا أصم في أذني اليسرى". سألته. قال وهو ينظر في الظلمة البيضاء للعاصفة التي اشتدت وهي تصل عنفوانها "لا يهمني ذلك". "ظننته يهمك". ثم سألته "من أي بلد أنت؟". ورد بصلافة "انتبه لطريقك!" ثم قال لي بلهجة كويتية "هندي وأطرش".

حين اقتربت من مدخل بحيرة الطين أوقفت السيارة في الموقف العام والتفت إليه "هل تعرف لماذا أنا أصم في أذني اليسرى". جمد في مكانه وهو يرى تفاصيل وجهي التي لم تتغير كثيرا ربما في ذهنه ولكنه يحتاج إلى أن يتأكد من ملامحي. "من أنت؟" عدت إلى لهجتي "أنا موتك الذي جئت تبحث عنه". حين نظر في عينيّ عرف أني قاتله. لم يخطئ

رجل مثله رأى نفسه موتا في عيون الآخرين أن يرى موته في عينيّ. "العواد". حاول أن يفتح الباب وضعت المسدس الصوتي في وجهه. "لا تحاول. لن تجد مكانا تهرب إليه". "انزل. لا تكن غبيا. كل ما أحتاجه هو أن أضغط هذا الزناد".

لفح البرد القارس وجهه وهو يترجل من السيارة. كان يقف أمامي، يرى عينيّ وهما تركزان غضبي في عينيه، ويدي وهي تشير له بالمسدس الصوتي أن يتحرك بعيدا عن الباب. طلبت منه أن يتقدم حتى أصبح ظهره إلى صندوق السيارة. "ضع يديك على الصندوق". وضع يديه على الصندوق والتفت إليّ يريد أن يتكلم. لا أريد أن أسمعه. لن أمنحه فرصة لحوار لا حاجة لي به الآن. "إذا أدرت وجهك مرة أخرى وضعت الرصاصة بين عينيك". بقيت صامتا لثوان أريده أن يتوقع نهايته فيها. كان يرتجف من وسطه حتى قدميه. "أفرغ جيوبك على الصندوق". وضع كل ما لديه بسرعة الخائف وارتباكه على الصندوق. محفظته، جواز سفره، بطاقات صغيرة، ورزمة نقود برباط بلاستيكي، سجائره وولاعته. "ادخل هذا الباب" وأشرت إلى مدخل البحيرة القريب. حملت أغراضه في جيب معطفي، وسرت خلفه. دخلنا الغابة التي تفصل البحيرة عن طريق الممشى الضيق. انزلق المنحدر الأول وحين أصبحنا في أول الغابة درت به في نفس

المكان دون أن يتمكن من معرفة الاتجاه الذي نسير فيه. وحين بلغنا منتصف الغابة درت به مرة أخرى متتبعا المثلثات التي تشير برؤوسها إلى خارج البحيرة ثم عدنا في الاتجاه الصحيح، حتى قطعنا الغابة بما يقارب الساعة لنصل إلى البحيرة التي تجمدت، تماما، واتصلت بالنهر بذات البياض الذي وزعته السماء لتخفي لون مياهها الآسن.

من بعيد لاحت أضواء الضاحية الفرنسية على الضفة الأخرى خافتة. "اخلع معطفك وقميصك". تركته بالقميص الداخلي وبنطاله وحذائه. جثا على ركبتيه كمن ينتظر الرصاصة التي تنهيه. "انهض". نهض متثاقلا كمن يرفع جثته عن الأرض بيديه. "منحتني فرصة لكي أعيش ليس رغبة في حياتي وإنما خوفا عليك، وسأمنحك فرصة لتعيش ليس رغبة في حياتك وإنما خوفا من إثم دمك وعقابه". لم يكن أمامه سوى خيارين أن يعود عبر الغابة أو يكمل السير على النهر المتجمد حتى أضواء المدينة التي بدت الآن أكثر لمعانا حين هدأت العاصفة قليلا. وحين استدار نحوي صفعته بقوة. "هذا هو ثأري الوحيد منك" وعدت إلى الخلف. "هذه لوالدي وليست لي". قررت أن أتركه يقرر بنفسه إلى أين يذهب. صرخ بصوت مرتجف "أرجوك".

بدا لي أضعف مما تصورت. بدا رجلا متوسلا حياته

حين فقد سلطته ونفوذه ورجاله وسيارة التويوتا السوداء التي أرهقتني. "أعدك أن أعود من حيث أتيت". "وأنا أريدك أن تعود من حيث أتيت". وقفت بعيدا عنه "هل قطعت هذه المسافة لتبارك زواجنا؟" ولم يرد. رغم كل حقدي عليه لم أشأ أن أراه ضعيفا لهذه الدرجة.

عدت بخفة إلى أول الغابة ورأيته يحاول أن يكمل الطريق حتى الأضواء التي يراها سبيلا وحيدا لنجاته. كنت أعرف أنه لن يخرج من الغابة لو عاد إليها وهو يعرف ذلك أيضا. والذي لا يعرفه أن عليه أن يقطع عرض النهر لمسافة ليس بمقدوره تخمينها جيدا. لن يبقى حيا حتى ربعها في درجة برودة تصل إلى أربعين تحت الصفر. ذلك إذا لم يسقط في أي منطقة رخوة في وسط النهر.

لم أفكر وأنا أرسله إلى حتفه بغير الحقد الذي ملأني عليه حتى أعمى كل إنساني بداخلي. ليس لي أن أغفر له، فأنا لست إلها ولا نبيا، لست سوى موسيقي بائس نسى رقة الوتر الذي يعزف عليه. تحولت بسببه إلى قاتل أكثر بؤسا منه. جلست بين شجرتي صنوبر أبيض، متكئا على جذع الأولى، متدثرا بمعطفي ألف وشاحي الصوفي حول وجهي جيدا، متلمسا دفئا مستحيلا في هذه العاصفة المرعبة. كنت أنظر إليه وهو يسير المسافة التي لم يقطع كثيرا منها حين

سقط. منحت قلبه فرصة كافية لأن يتوقف تحت ضربات الصقيع. عدت إليه وقد غرس وجهه في الثلج واضعا يديه خلف ظهره. لم يرفع وجهه لأكثر من ربع ساعة وأنا أقف فوقه أرتجف من البرد أترقب الرجفة الأخيرة للشريان الأخير الحي فيه. وحين لم يرفع رأسه عرفت أنه انتهى.

تركته عائدا إلى الغابة. حرقت أوراقه ونقوده ورميت محفظته وجواز سفره إلى جانب معطفه وقميصه. وقبل أن أغادر الغابة صاعدا المرتفع باتجاه البوابة انزلقت قدمي بإحدى برك الماء المغطاة بثلج لم يتجمد بما يكفي ليحملني. حاولت أن أرفع نفسي من المياه ضاغطا على أول الجليد الذي تهشم بسرعة تحت يدي. وضعت قدمي اليسرى على جذع شجرة في المياه الضحلة، وبكل قوتي رفعت جسدي إلى أعلى فاخترق فخذي جذع شجرة مدبب، فسقطت على وجهي متمسكا بأغصان شجيرة بالقرب مني. حررت فخذي من الجذع وزحفت على بطني والدماء تنز على الثلج الأبيض. نهضت بصعوبة وتحركت أجر قدمي حتى أول أشجار الصنوبر الأبيض ولم أتمكن من السير طويلا فسقطت إلى جوار شجرة لأرى حجم إصابتي. أحسست أن رجلي قد بترت ولكنني لا أحس بألمها في هذا الصقيع. حاولت أن أنهض وخذلتني رجلي. ربطت جرحي بالوشاح ودسست رأسي في ياقة معطفي.

كان الجارح يخاتلني. انقض بكل قوته عليّ فانحنيت برأسي إلى الأرض. سمعت صوت مخالبه تقد معطفي والقماش القاسي يتمزق ولم يصل إلى لحمي. استدار ثانية باتجاه عيني، رأيت عينيه تتماوجان، يكاد يسمرني في مكاني من الرعب، فأطلقت ثلاث رصاصات من مسدس الصوت ضجت في فضاء البحيرة فابتعد عني. نهضت ثانية وسرت حتى منتصف الغابة. لم تساعدني قدمي المصابة فجلست ثانية بين أشجار يابسة ومتشابكة. بدأ النزيف يزداد ويضعف حركتي، وازداد الألم حتى أُغميَ عليَّ. لا أعرف كم من الزمن مر علي حتى أفقت للضجيج الذي ملأ الغابة. كان الوقت فجرا يمنحه البياض نورا ساطعا. سمعت أصوات سيارات الشرطة والإسعاف تسد البحيرة ومروحية تحلق بالقرب ثم أصوات كلاب تقترب. تحاملت على جراحي وحاولت الخروج. كانت أصوات الكلاب قريبة مني والشرطة يتصايحون بأنهم عثروا علي.

لقد أنهيت مهمتي، فلتقم القيامة الآن! ما أفكر فيه هو الرواية التي سأقولها حول كل ما حدث.

أوتاوا 2013 - 2015

Notes

[1←]

يوط: من فصيلة الكلبيات في أمريكا الشمالية. يشبه الذئب الرمادي، لكنه أصغر حجما.